الجزء الأول

1934 ـ 1918

1

ابـن القـريـة

1918 ـ 1934

قليلة هي أجزاء جنوب إفريقية التي تبعد عن الحياة المدنية وراء ترانسكي، التي تقع على مسافة 600 ميل جنوب جوهانسبورغ. إنها واحدة من أجمل مناطق البلاد وأكثرها فقراً. فالآفاق الشاسعة من التلال المتموجة والعشب الأخضر الشاحب والأكواخ الدائرية المسقوفة بالقش، والرعيان يسوقون قطعانهم بينها، تقدم صورة من العهد القديم عن الحياة الريفية الأزلية بأبهى صورها. إلا أن هذا الجمال سطحي فحسب، فالأرض تضيق بالسكان بشكل يائس، والتربة الرقيقة متآكلة لدرجة لا يمكنها الإبقاء على أكثر من مجموعات مبعثرة من الأبقار. والأغنام العجفاء ورقاع متفرقة مزروعة بالذرة.

في هذا المكان ولد نيلسون مانديلا وترعرع، وهنا بنى البيت الذي يرجع إليه في أعياد الميلاد والإجازات، والذي ينوي أن يتقاعد فيه. إنه بيت ريفي كبير من طابق واحد سَقْفُه من القرميد الأحمر، له أقواس على النسق الإسباني، مجاور للطريق العامة «إن 2» التي تصل دوربان بكيب تاون، على بعد بضعة أميال إلى الجنوب من أُمتاتا أكبر قرى ترانسكي.

يقع البيت في نهاية شارعٍ تحفُّ بجانبيه أشجار السَّرْو، ويحيط به سُورٌ وحديقة غناء تعزله عن الريف المفتوح. تَصَوَّر مانديلا البيتَ في آخر سَنة قضاها في سجنه، ووضع مخططه الطابقي على نمط بيت الحارس في مجمع السجن الذي كان نزيلاً فيه. لقد اختار الموقع المطل على وطنه الأم في «كونو»،

اعتقاداً منه بأن «الإنسان يجب أن يموت قرب المكان الذي ولد فيه».

يقع مسقط رأس مانديلا الحقيقي على بعد بضعة أميال إلى الجنوب في قرية مڤيزو الصغيرة، على ضفة نهر باشي المتعرج، حيث ورث والده الزعامة. (مجموعة أكواخ العائلة، أو ما يسمى «كرال»، لم تعد موجودة: ففي سنة 1988، عندما كان مانديلا في السجن، طلب من محام محلي البحثَ عنها، لكنه لم يجد لها أي أثر).[1] وُلِد روليهلاهلا مانديلا في مڤيزو في 18 تموز (يوليو) 1918 في وقت، على ما ذكر فيما بعد، كانت فيه الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها، وكانت الثورة البلشفية في روسيا ترسخ دعائمهما، وكان المؤتمر القومي الإفريقي الذي أُسِّسَ للتو آنذاك يرسل وفداً مفوضاً إلى لندن ليطالب بحقوق أبناء جنوب إفريقية السود. وكانت مستعمرة الكاب البريطانية، التي تضم «محمية ترانسكي الوطنية» قد ضُمَّت إلى اتحاد جنوب إفريقية في سنة 1910. وبعد ثلاث سنوات طَرَد «قانون الأرض الوطنية» مئات الآلاف من المزارعين السود؛ هاجر معظمهم إلى ترانسكي، المنطقة الكبيرة الوحيدة التي يستطيع الإفريقيون امتلاك الأرض فيها، وقد أنجبت ترانسكي من القادة السود أكثر من أي منطقة أخرى في جنوب إفريقية، وفي ظل تلك الظروف ترعرعوا فيها.

تعرض هندراي مانديلا والد روليهلاهلا، للطرد أيضاً. ففي السنة التي أعقبت ولادة ابنه استدعاه القاضي المحلي الأبيض لِيَرُدَّ على شكوى أحد رجال القبيلة حول ثور. رفض هندراي القدوم، فاتُّهِم بالعصيان، وطُرِد من منصبه كشيخ للقبيلة، مما أفقده معظم أبقاره وأرضه ودخله. وانتقلت العائلة من «كرال» الأجداد في مڤيزو إلى قرية كونو المجاورة، حيث سيقضي مانديلا الصبي سنوات قليلة قادمة. ورغم انحسار ثروتهم المفاجىء فقد تمكنوا من البقاء متماسكين معاً دون صعوبة كبيرة. اقتسموا الغذاء والمتع البسيطة مع أبناء العم والأصدقاء، ولم يشعر مانديلا بالوحدة أبداً. وفي سنواته التالية سيتذكر

بنشوة تلك الروح الجماعية والإحساس بالمسؤولية المشتركة، قبل أن يبدأ التأثير الغربي بِذَرِّ روح التنافس والفردية.

كان هندراي ماندیلا أباً صارماً، يميزه عنادٌ، يشُكُّ ابنُه في أنَّه قد ورثَ مِثلَهُ عنه. كان أمياً، وثنياً، له عدد من الزوجات. و كان طويل القامة، مهاب الجانب، أكثر سمرة من ابنه، ولا يشعر بالنقص أمام البيض. كان يعيش في عالم ريفي منغلق على نفسه، له عاداته وطقوسه الخاصة. كانت له أربع زوجات وكانت زوجه نوسكيني فاني، والدة ماندیلا هي الثالثة. وكان لكل زوج كرالٌ خاصٌ بها يحقق لها كفاية ذاتية بشكل أو بآخر، بما له من حقول ومواش وخضار.[2] كان هندراي يتنقل بين الكرالات المختلفة، زائراً زوجاته اللاتي كُنَّ على وفاق في ما بينهن، وكان يحتفظ ببعض المشروب البيتي في كوخه، بالإضافة إلى زجاجة براندي يحتفظ بها في الخزانة، وقد تدوم ثلاثة أشهر أو أربعة. وكان يحترم عادات القبيلة؛ فعندما يولد طفل كان يذبح عنزة وينصب قرنيها في البيت.[3]

لم يعتنق هندراي المسيحية أبداً وإنما كان له بعض الأصدقاء المسيحيين، ومنهم القس تينيسون ماكيواني، من قادة المجتمع المثقفين، وهو من النخبة في ترانسكي (أصبح أولاده فيما بعد أعضاء بارزين في المجلس الوطني الإفريقي).[4] كما كان على علاقة جيدة بالأخوين جورج وبين مبيكيلا، اللذين ينتميان إلى المجموعة القبلية المنفصلة التي تدعى أمامفنغو أو «الفينغوز». وبقي أفراد هذه المجموعة منعزلين عن قبائل «الكزوسا»، وكانوا أكثر تأثراً بالبعثات التبشيرية والعادات الغربية، فأصبح كثير منهم مدرسين أو رجال دين أو رجال شرطة. جعل الأخوان مبيكيلا والدة ماندیلا تعتنق المذهب الميثودي. ثم بدأت ترتدي ثياباً غربية بدل الزي الكزوسي. فقد عمَّدت ابنها وفق المذهب الميثودي. وبعد ذلك أقنع الأخوان الأبوينَ بأن يُرسِلا ماندیلا إلى المدرسة التبشيرية المحلية، فكان أولَ من أُرسِل إليها من أبناء العائلة.

تتذكر شقيقتا مانديلا، ميبل وليبي، بنشوة حياتهما الريفية البسيطة في كونو، التي تدور حول الأكواخ الدائرية الثلاثة المحاطة بالأعمدة في كرال والدتهم: كوخ للنوم، وآخر للطبخ، وثالث لتخرين الطعام. كانت الأم هي التي بنت الأكواخ من آجر صنع من الطين، وكذلك الموقد وهو عبارة عن حفرة في الأرض. لم يكن هناك أَسِرَّة ولا طاولات، وإنما حصير فقط. كانت الأسقف مصنوعة من العشب المجدول بالحبال.[5] كانوا يقتاتون بالذرة التي كانت تخزن في حفر في الكرال. كان الصبيان يمضون نهارهم في رعي الماشية، فيما تقوم البنات ونساء الأُسرَة بتحضير الطعام مجتمعات في أحد البيوت. كُنَّ يَطْحَنَّ الذرة بالرَّحى، ويَطبِخْنَها بالحليب الحامض في قدور معدنية سوداء ذات ثلاث أرجل. كانت الأُسرة تتناول وجبتها الرئيسية مجتمعة في المساء، والكلُّ يجلسون على الأرض، ويأكلون من طبق واحد.

كان لوالد مانديلا ثلاثة أبناء من زوجات أخريات، غير أنهم كانوا قد غادروا المنزل في وقت مبكر. كان مانديلا الغلام يتمتع بحرية أكبر بكثير مما حظيت به أخواته. وكان قريباً من أُمِّه ولكنه كان يقيم غالباً مع إحدى زوجات أبيه التي كانت تشعره بالأمان والحب ذاته الذي تشعره به نوسيكيني فاني. كان في جميع مراحل حياته يشعر بالراحة مع النساء خاصة النساء القويات القادرات على إقامة علاقات صداقة مجزية، الأمر الذي يمكن أن يربط بأيام طفولتة. وعاش مانديلا في حضن أسرته الكبيرة من أبناء العم وزوجات الأب والأشقاء والشقيقات (ليس في لغات البانتون كلمات تعني أخت من أب أو زوج أب)، لذلك كان مانديلا يدعو زوجات أبيه بلفظة «أمهاتي» وقد قال يوماً : «كانت لدي أمهات تدعمنني كثيراً ويعتبرنني ابنهن، وليس ابن الزوج أو نصف ابن، كما تقولون بلغة البيض ، كن أمهات بالمعنى الصحيح للكلمة». هذه السعادة التي أحاطت به كابن تحبه أربع أمهات جعلت طفولته زاخرة بالأمان. يتحدث أحياناً بحنين عن تعدد الزوجات في ذلك الزمان، وهو يرفضه في ظروفه

الحالية، ويقول «إنه غير مبرر لدي، وهو شيء لا أشجعهُ».[6]

كثيراً ما يحن مانديلا، في رسائله ومذكراته، إلى الأيام التي عاشها صبياً ريفياً، وكتب من سجنه بحماسة عن روعة التلال والجداول، وعن متعة السباحة في البرك وشرب الحليب من ضرع البقرة أو أكل الذرة مشوية على الفحم. أدرك كثير من قادة العالم سياسات القوة في العواصم، ولعبوا على أوتار جذورهم الريفية، مثل لويد جورج، عندما قام بزيارة قريته في ويلز، أو ليندون جونسون في حنينه إلى مزرعته في تكساس. إلا أن الرئيس مانديلا كان أكثر إصراراً في تسمية نفسه «ابن القرية»، ولسبب أقوى، وهو أن الأمان والبساطة اللذين ميَّزا نشأته الريفية لعِبا دوراً حاسماً في تكوين ثقته السياسية.

لقد شَدَّت في عَضُدِه معرفتُه بأجداده. فقد كان والده حفيد نغوبنغكوكا، ملك شعب التمبو الذي توفي في سنة 1832، قبل أن يتمكن البريطانيون من فرض سلطتهم على تمبولاند، الجزء الجنوبي في ترانسكي. وقد احتفظت عائلة تمبو المالكة، رغم فقرها وتبعيتها كما يتصورها البيض، بهيبة خاصة في ترانسكي، حيث كانت تحظى بإخلاص الشعب واحترامه. ولم يكن مانديلا من أفراد الدرجة الأولى في العائلة المالكة، بل كان دائماً يؤكد أن ليس له أي حق في الوصول إلى العرش.[7] كان مجرد واحد من عشرات الأحفاد للملك نغوبنغكوكا، وتحَدَّر هو من فرع صغير. غير أن والده كان صديقاً صدوقاً ومحل ثقة الملك داليندبيو الذي تولى عرش تمبو، وبعده ابنه الملك جونغيليزوي. كان هندراي أشبه برئيس وزراء، وكان مانديلا الفتى يحظى باحترام جماعته.

لقد تَحَدَّر من أسرة ملكية، حسب اعتقادهم، ولكن في ظل قوة محتلة. فمنذ أيام نغوبنغكوكا كانت سلطاتهم محددة أولاً، من قبل الحكومة البريطانية، ثم من بعد 1910 باتحاد جنوب إفريقية الجديد، وكان ملوك ترانسكي مشتتين بين واجباتهم تجاه شعبهم وبين متطلبات القوة الدخيلة. ولكن مهما تمسّك

أفراد العائلة المالكة في تمبو بكبريائهم واحترامهم فقد كانوا دائماً يشعرون أن شركاءهم الجدد، البريطانيين والأفارقة، قد حرموهم سلطتهم وثروتهم. وعندما بدأ مانديلا الشاب يسافر إلى ما وراء حدود منطقة بيته كان يرى أن المدن في الكاب الشرقي ـ مثل بورت شيبستون وكينغ ويليامز تاون، وبورت إليزابيث، وآليس ـ قد أعطيت أسماء أبطال بريطانيين وليس كزوسيين، وأن الرجال البيض كانوا الأسياد الحقيقيين. وسمي كثير من الأطفال من جيل مانديلا الذين تلقوا تعليمهم على أيدي البعثات التبشيرية، بأسماء أبطال ملكيين بريطانيين مثل ديلنغتون وكيتشينر وآديلايد أو فكتوريا. وفي السابعة من عمره حصل مانديلا على اسم جديد يسبق روليهلاهلا، إذ قال معلمه: «من الآن فصاعداً سيصبح اسمك نيلسون». كانت أمه تلفظ اسمه نليسيلي فيما كان الآخرون ينادونه فيما بعد داليبونغا، وهو الاسم الذي ختن به. كان أصدقاؤه من أبناء المدينة ينادونه «نيلسون» أو «نيل»، إلى أن أعرب عن تفضيله اسم قبيلته «ماديبا» الذي اعتمدته الدولة كلها.

وفي سنة 1927، عندما كان مانديلا في الخامسة من عمره، ازداد قرباً من الملكية. كان والده يعاني من مرض رئوي، و كان عندئذ يقيم في منزل والدة مانديلا، وكان صديقه جونخينتابا الوصي على عرش شعب تمبو يزرن، حين سمعت مابيل شقيقة مانديلا والدها يقول له: «سيدي ، سوف أترك ابني اليتيم بين يديك لِتُعَلِّمه، وإني أراه يتقدم ولديه طموح. عَلِّمه أن يحترمك». أجاب الوصي: «سآخذ روليهلاهلا وأعَلِّمه». ومات هندراي بعد ذلك بفترة قصيرة، وحُمِل جثمانه على نقالة إلى منزل زوجه الأولى، وذبحت بقرة في هذه المناسبة، لكن مراسم دفنه وجنازته كانت مسيحية، قام بمراسمها الأخوة مبيكيلا ودفن في المقبرة المحلية.[8]

واصطحبت والدة مانديلا ابنها في رحلة طويلة على الأقدام من كونو إلى القصر الكبير في مكيكيز ويني حيث كان الوصي يترأس شعبه كقائم بأعمال

الملك، لأن الوريث ساباتا كان أصغر من أن يستطيع إدارة شؤون البلاد. كان جونخينتابا، الذي كان زعيماً لقبيلة ماديبا أيضاً، مديناً لوالد مانديلا الذي رشحه وصياً على العرش، مما يفسر سبب موافقته على تبني مانديلا كما لو كان ابنه. إلا أن عادات الأسرة الكبيرة في المناطق الريفية كانت أقوى بكثير مما هي في المدن، الأمر الذي لم يصرف مانديلا عن الولاء لها واحترامها. فقد كتب من سجنه: «إنها تقدم الطعام لكل من تحدر من جد واحد وتجمع شملهم كأسرة واحدة».[9]

القصر الكبير في مكيكيزويني لا يكاد يمت بأي شبه للصورة الأوروبية لقصر ملكي. وما زال الوصول إليه عسيراً إلى يومنا هذا، ولا تصل إليه سيَّارة. حيث يتفرع عن الطريق الرئيسي شعب ترابي ضيق ووعر يتعرج خلال المناطق الريفية، يهبط في مجاري أنهار جافة ثم يصعد عبر ضفاف صخرية، ويمر قرب تجمعات من الأكواخ و «الروندافيلات» كما يمر قرب محطة مهجورة للسكة الحديدية.

أخيراً تظهر مستوطنة صغيرة عبارة عن بيتين يقابلان مجموعة من الروندافيلات تفصل بينهم حديقة تكسوها الأعشاب، وبناء مدرسة وراءه بعض الأكواخ. يخرج من أحد هذه البيوت رجل وقور جميل المظهر ويقدم نفسه كزعيم محلي، حفيد جونخينتابا، فهو ما زال يشرف على المجموعة المحلية. ويشير إلى الروندافيل البسيط حيث كان الرئيس مانديلا يعيش عندما كان غلاماً. على جدار أحد البيوت صورة فوتوغرافية لوجه جونخينتابا السمح بشارب مشذب. وإلى جواره مانديلا الشاب يعلو وجهه تعبير وقور. وبالقرب منها صورة يبدو فيها وجهه الباسم على إحدى الشاخصات الانتخابية سنة 1994.

قد يبدو القصر الكبير لعين الزائر الغربي اليوم صغيراً ونائياً، ولكنه كان بالنسبة لمانديلا الشاب في سنة 1927 مركز العالم، وكانت فترة مكيكيزويني هي سنوات تكوينه واكتسب منها سمات ملكية ستؤثر على حياته كلها. ولن ينسى

أبداً اللحظة التي رأى فيها الوصي لأول مرة يصل في سيارة مذهلة وشعبه يرحب به بهتافات «آه . . جونخينتابا». هذا المشهد الذي سيتكرر بعد سبعين سنة عندما قوبل الرئيس مانديلا بهتافات «آه . . داليبونغا». كانت مكيكزويني أكثر ازدهاراً يومها، وكانت تحقق الاكتفاء الذاتي تقريباً. وكان زعيمها وصياً على العرش، يلتف حوله رجال القبائل من جميع أرجاء تمبولاند للاستنارة برأيه.

لم يكن مع الصبي في عامه التاسع سوى حقيبة من القصدير، وكان يرتدي قميصاً قديماً وبنطالاً كاكياً قصيراً قُصَّ من بنطال أبيه القديم المخصص لركوب الخيل، وثبِّت حول جسمه بحبل بدل الحزام. يذكر ابن عمه نتومبيزودوا، الذي يكبره بأربع سنوات، أنه كان خجولاً ووحيداً لا ينبس ببنت شفة، وسرعان ما رحب به جونخينتابا وزوجه نو انكلاند.[10] شارك مانديلا ابنهما جَسْتيس روندافيلا صغيراً أبيض يضم سريرين وطاولة ومصباحاً زيتياً. وعومل مانديلا معاملة فرد من العائلة، مع نومافو ابنة جونجينتابا، ثم مع نزيكسو الأخ الأكبر لساباتا ولي عهد المملكة. رأى نفسه عضواً في أسرة مالكة، تعيش حياة أفخم بكثير من حياة كونو، غير أنه لم يكن يشعر بالانتماء التام إلى تلك الأسرة، الأمر الذي ربما يكون قد شحذ مطامحه.

أصبح الوصي، جونخينتابا، الذي يعرف باسم دافيد داليندیبو، يمثل شخص الوالد بالنسبة لمانديلا. كان رجلاً وسيماً، دائم الأناقة، وكان مانديلا يكوي له بنطاله بحب، مما خلف لديه احتراماً للثياب طيلة حياته. كان جونجينتابا ميثودياً ملتزماً ـ رغم أنه كان يستمتع بالشراب ـ وكان يصلي كل يوم في الكنيسة القريبة التي يديرها أحد أقربائه وهو الكاهن ماتيولو. كان ابنه جَسْتيس، الذي يكبر مانديلا بأربع سنوات، مثلاً يُقتَدىٰ به في العقد التالي، كان مثال الشجاعة والأناقة، وكان رجلاً رياضياً، شديد التأنق وكان زير نساء. كان جَسْتيس ماهراً في كل شيء، متفوقاً في الرياضة الجماعية كالكريكيت،

وكرة القدم، والركبي. فيما أثبت مانديلا، الأقل تناسقاً مقدرته في أنماط الرياضة الفردية الخشنة كالملاكمة، وجري المسافات الطويلة. يظهر جَسْتيس في إحدى الصور شاباً مقاتلاً واثقاً بنفسه، حاد النظرة، فيما يبدو مانديلا أقل عنفواناً، ويتوق إلى اكتساب الثقة التي يبديها جَسْتيس. فقد كان جَسْتيس ولياً لعهد الزعامة، فيما كان مانديلا يعتمد على عطاءات الوصي.

أحب مانديلا مباهج الريف في مكيكيزويني، التي كانت أكثر وفرة في تلك الأيام مما هي الآن، ومن ضمنها ركوب الخيل والرقص على أنغام الأغنيات القبلية التي كانت تشدو بها فتيات كزوسا. (كان يفكر وهو في السجن كم كان حاله الذي صار إليه مختلفاً عن مباهج عاشها في ميريام ماكيبا أو أيرثا كيت أو مارغو فونتين). غير أن مانديلا كان أيضاً أكثر جدية وتفانياً في العمل من الصبية الآخرين. كان يجهد في مدرسة البعثة المحلية، حيث بدأ يتعلم الإنكليزية من كتاب Chamber's English Reader ويكتب على لوح اردوازي، وينطق الكلمات بعناية بلكنة محلية بطيئة لم يتخل عنها أبداً.

لم يكن للبيض أي حضور يذكر في مكيكيزويني إلا بعض العابرين. وتذكر ميبل شقيقة مانديلا أنها ذهلت عندما التقى هو وأصدقاءه في المدرسة برجل أبيض بحاجة إلى المساعدة لعطل طرأ على دراجته النارية، وكان مانديلا قادراً على التحدث إليه بالإنكليزية.[11] كانت ميبل تخاف مانديلا كثيراً. لم يكن يحب أن يستفزه أحد، وإذا ما استثير فإن رد فعله مباشرة... لم يكن لديه وقت يضيعه في التفاهات. لقد كانت تتوافر فيه مواصفات القيادة.[12]

ويعود جزء مهم من ثقافة مانديلا إلى مراقبه الوصي، كان مأخوذاً بممارسة جونجينتابا لشخصية الملك في اجتماعات القبيلة الدورية التي كان شعب تمبو يسافر عشرات الأميال على الأقدام أو على ظهور الخيل لحضورها. كان مانديلا يحب الفرجة على رجال القبائل، سواء منهم العمال أو أصحاب الأرض، إذ يشتكون للوصي بشكل صريح قد يبلغ حد العنف أحياناً، وكان

الوصي يستمع ساعات بهدوء وصمت، إلى أن يحاول أخيراً عند الغروب الخروج بإجماع من الآراء المتناقضة. سيتذكر مانديلا فيما بعد في سجنه:

> إن إحدى علامات الزعيم الكبير هي المقدرة على الإبقاء على وحدة جميع قطاعات الشعب، التقليديون منهم، والإصلاحيون والمحافظون والتحرريون، حول القضايا الرئيسية حيث تتعارض الآراء بحدة أحياناً. كان بلاط مكيكيزويني قوياً بشكل ملحوظ، وكان الوصي قادراً على حمل عبء الرعية كلها لأن البلاط كان يضم ممثلين لجميع الآراء.[13]

وعندما أصبح مانديلا رئيساً، سعى إلى الوصول إلى نوع مماثل من الإجماع في الحكومة، كان يذكر دائماً نصيحة جونجينتابا بأن القائد يجب أن يكون كالراعي، يقود قطيعه من الخلف بالإقناع الماهر. كان يقول «إذا شَرَدَت دابَّة أو اثنتان إذهب وَأَعِدْهُما إلى القطيع. هذا درس مهم في السياسة».[14]

شب مانديلا على الفكرة الإفريقية للأخوَّة الإنسانية أو «أوبونتو» بما يعني نوعاً من التعاطف والمسؤولية الجماعية. وكثيراً ما كان يستشهد بالمثل «أو مونتو نغومنتو نغابانتو» أي ما معناه «الإنسان إنسان بفضل الناس الآخرين» أو «لا يمكنك أن تفعل شيئاً دون دعم الآخرين» وهذا المفهوم شائع أيضاً بين الجماعات الريفية الأخرى في جميع أرجاء العالم، ولكن الإفريقيين يحددون معناه بشكل خاص كنقيض للفردية والأرق لدى البيض، ولقد لازم مفهوم الـ «أوبونتو» السياسة السوداء على مر العقود التالية. وقد قال الأسقف توتو في سنة 1986 إن هذا المفهوم يعني «اللطف، والتعاطف، وكرم الضيافة، والانفتاح على الآخرين، والحساسية، ومساعدة الآخرين والإحساس بأنك مرتبط بهم برباط الحياة».[15]

كان مانديلا يرى الـ «أوبونتو» جزءاً من فلسفة عامة لخدمة البشر، ويذكر أنه كان مستعداً لأن يرى أفضل ما في الآخرين منذ سني شبابه الأولى. وكانت هذه صفة موروثة عنده: «الأشخاص الذين نشأوا مثلنا في بيئة قروية يعتادون

التفاعل مع الناس في سن مبكرة». غير أنه سَلَّمَ بأنه «قد يكون مزيجاً من الغريزة والتخطيط المقصود». ومهما كان من أمر، فإن تلك السمة ستصبح مبدأ يسود حياته السياسية كلها. «الناس كائنات بشرية، أنتجهم المجتمع الذي يعيشون فيه. إنك تشجع الناس حين تركز على مواطن الخير فيهم».[16]

تعزز إعجاب مانديلا بالتقاليد القبلية والديموقراطية إثر معرفته بالتاريخ الكزوسي من خلال زيارته الزعماء الكبار ورؤساء القبائل. وكثير منهم كان أمياً، إلا أنهم كانوا يجيدون الحكاية، فيروون ملاحم عن معارك ماضية مثل الشعراء الصعاليك الذين ينسجون على منوال هوميروس. وقد سرد أفضل رواة القصة الزعيم جوي، وهو مثل مانديلا سليل الملك العظيم نغوبنغكوكا، كيف دَمَّرَ قدوم البيض وحدة شعب كزوسا وسلامه. فقد فَرَّقوا بينهم، وطردوهم وهزئوا بالـ «أبوبونتو».[17] ولطالما استعاد مانديلا صورة ذلك المجتمع القبلي الإفريقي المثالي. فقد تحدث عنه في خطاب طويل سنة 1962، قبيل دخوله السجن:

> لقد عاش شعبنا من قبل بسلام، تحت حكم ديموقراطي مارسه ملوكه وزعماؤه (آمافاكاتي)، وتنقلوا بحريَّة وثقة في أعلى البلاد وأدناها، دون عائق ولا مُذِلٍّ. كان البلد لنا وقتها، باسمنا نحن ومن حقنا. كنا نشغل الأرض والغابات والأنهار، كنا نستخلص الثروة المعدنية الكافية من باطن التربة، وجميع ثروات هذا البلد الجميل، لقد أرسينا أسس حكومتنا الخاصة وأدرناها، كنا نسيطر على جيوشنا وننظم تجارتنا ومبيعاتنا.

كان ذلك، في نظره، العصر الذهبي، بلا طبقات ولا استغلال ولا تفاوت، حيث كان المجلس القبلي مثال الديموقراطية:

> كان المجلس ديموقراطياً لدرجة أن جميع أعضاء القبيلة كان بإمكانهم المشاركة في نقاشاته. الزعيم والتابع، المقاتل والطبيب، كلهم يشاركون ويسعون إلى التأثير في قراراته. كان هيئة ذات وزن ونفوذ لا يمكن اتخاذ أي خطوة مهمة في القبيلة دون الرجوع إليها».[18]

كان تاريخ الكزوسيين حياً عندما كان مانديلا طفلاً، ويذكر المسنون جداً ذلك الزمن الذي كانوا فيه لا يقهرون. وبقي كبرياء ترانسكي واستقلالها وقبائلها التي تتحدث بلغة الكزوسا ـ التمبو والبُوندوس والفينغوس والكزوس أنفسهم ـ رغم ذلك الغزو وما نجم عنه من التبعية في القرن السابق. تزاوج بعض الكزوسيين مع قبائل أخرى، من ضمنها الخوي خوي (الذين لقبهم المستعمرون البيض بالهوتنتيين) مما تمخض عن تشكيلة واسعة من الملامح: حيث يقال أن وجه مانديلا المتميز، بعينيه الضيقتين وعظام خديه القوية، يعود إلى اختلاطه بدماء الخوي خوي.[19] ولكن الكزوسيين احتفظوا بثقافتهم ولغتهم الخاصتين. وقد فوجيء كثير من المستعمرين البيض إذ قابلوهم لأول مرة في أواخر القرن الثامن عشر ببنيتهم، ولون بشرتهم الفاتح ووجوههم الحساسة، ونظامهم الديموقراطي في النقاش والحكم. وقد كتب المبشر ويليام هولدن سنة 1866 «إنهم لا يقلون عن أي محام بريطاني في مناقشة المسائل التي تتعلق بعاداتهم وقوانينهم». وفي الثلاثينات من القرن التاسع عشر قال الحاكم البريطاني هاري سميث إن الملك هينتسا الكزوسي «هو نسخة طبق الأصل عن العزيز المسكين جورج الرابع».[20] ولكن بعد مضي مائة عام وتسعة حروب كزوسية، جرَّدت القوات البريطانية المتقدمة شرقاً من الكاب الكزوسيين بالتدريج من استقلالهم ومن أرضهم، وبحلول سنة 1835 كان هاري سميث قد عبر نهر كي ليبدأ عملية إخضاع ترانسكي. وبحلول سنة 1848 كان قد فرض نظامه الإنكليزي على زعماء الكزوسا، وأخبرهم أن أرضهم «سَتُقَسَّم إلى مقاطعات، وبلدات، وقُرى تحمل أسماء بريطانية. وستتعلمون جميعاً الإنكليزية في المدارس التي سأشيدها لكم.. ربما لن تبقوا عراة وهمجيين بعد الآن، ولكنكم ستبقون كذلك ما لم تعملوا وتنشطوا».[21] وفي الحرب الكزوسية الثامنة سنة 1850 تمكن الجيش البريطاني ـ بعد نكسات أصابت منه ما أصابت، وأعمال قتالية من كلا الجانبين ـ من إخراج زعماء الكزوسا من

معاقلهم الجبلية وأحكم احتلاله لـ «كفراريا البريطانية»، التي لقبت فيما بعد بالسيسكي.

لم يُصب زعماء التمبو الذين كانوا يحكمون الجزء الجنوبي من ترانسكي بأذى يذكر في الحروب الأولى، ولكنهم أُخضعوا فيما بعد وأُرسلوا إلى سجن جزيرة روبن الرهيب قبالة شاطىء كيب تاون، الذي أصبح سَيِّء السمعة في التراث الشعبي الكزوسي.

بعد هذا الإذلال والإفقار أكمل الكزوسيون سنة 1856 دمارهم الذاتي. إذ قالت لهم عرافة شابة هي نونغكاوس أن يقتلوا مواشيهم ويستعدوا للبعث والنشور. مما أدى إلى موت أكثر من نصف سكان سيسكسي جوعاً. ومع نهاية حرب الكزوسا التاسعة سنة 1878 كانت العائلتان الرئيسيتان من الكزوسا، وهما النغيكا والغساليكا قد أُخضعتا وأُجبرتا على نزوح جديد عبر نهر كي. وكان الزعماء المتعاقبون يرسلون تباعاً إلى جزيرة روبن، تنفيذاً لأوامر السير جورج غراي حاكم الكاب، الذي قصد من ذلك، على حد قوله: «إخضاع كل زعيم ذي شأن، وإذلاله إذا أظهر عناداً».[22]

ولم تقع بوندولاند، في الجزء الشمالي من ترانسكي، تحت إدارة الكاب حتى سنة 1894. ولكن بعد ظهور اتحاد جنوب إفريقية إلى الوجود سنة 1910 واجه الكزوسيون قيوداً ممتزايدة فرضها عليهم القضاة البيض.

رأى مانديلا أن البيض استولوا على مؤسسة زعامة القبيلة واستخدموها لقمع تطلعات أفراد القبيلة جميعاً. وبهذا دمروا الزعامة أو كادوا.[23] ولقد ذاع صيت الزولو في أواخر القرن التاسع عشر، وهم القوة القبلية الرئيسية الأخرى في الشمال، ذاع بين أوساط البيض والأجانب بأنهم مقاتلون أكثر شراسة من الكزوسيين، وبخاصَّة شاكا ملك الزولو المقاتل الذي انطلق ليهزم القبائل الجنوبية ويوحدها في العشرينات من القرن التاسع عشر. استحوذ الزولو على

إعجاب كثير من رجال الكنيسة البريطانيين، ومنهم الأسقف جون ويليام كولينسو من ناتال. غير أنهم اكتسبوا شهرة عسكرية فريدة في كانون الثاني من سنة 1879 عندما خاض البريطانيون حرباً ضد سيتيوايو خليفة شاكا، الذي استطاع جيشه تدمير قوة بريطانية قوامها 1200 رجل تدميراً كاملاً في معركة ايساندهلوانا. وأرسل البريطانيون تعزيزات، وكان في عداد هذه التعزيزات الأمير الإمبراطوري ابن لويس نابليون، الذي أُوقع في كمين وطعن بحراب المقاتلين الزولو حتى الموت. وقال ديزرائيلي: «إن الزولو شعب متميز جداً. إنهم يهزمون جنرالاتنا، ويحولون أساقفتنا عن دينهم. لقد قضوا على سلالة أوروبية عظيمة.[24] وأخيراً انتقم البريطانيون للذل الذي حل بهم في معركة اساندهلوانا في تموز (يوليو) عندما سحقوا سيتيوايو في معركة أولوندي وأخضعوا الزولو، غير أن الروح النضالية التي اشتهر بها الزولو لم تَذِلّ أبداً.

ضعفت الروح القتالية عند زعماء الكزوسا وبدوا أقل عناداً من الزولو، وبدوا بعد سلسلة الحروب التي خاضوها ضد البريطانيين مهزومين محطمي المعنويات. وربما ساعد على ذلك انتشار تعاطي الخمر بينهم. ولكن تراثاً أخر كان ينمو من مآسي حروب الكزوسا، تراث المدارس التبشيرية والثقافة المسيحية، التي سرعان ما أنجبت نخبة كزوسية جديدة من الشبان والشابات على درجة عالية من الانضباط والتعليم. وفي الوقت الذي كانوا يعتنقون فيه الأفكار الغربية كانوا يتطلعون إلى استعادة حقوق شعبهم وكرامته. كانت التقاليد الليبرالية البريطاني ترسخ دعائمها في الكاب مع انتشار المحطات التبشيرية والسماح للسود بالتصويت. كان الكزوسيون الشباب المتعلمون يستغلون تقبل الزوار البيض الأوائل للنقاش القانوني والتحليل والحوار وأدى هذا الاتجاه ببعضهم، مع مرور الوقت، إلى الحملات السياسية للمعارضة السوداء في الستينات من القرن العشرين ـ التي سميت في بعض الأحيان بالحرب الكزوسية العاشرة ـ لكنه أوصلهم مثل أجدادهم، إلى جزيرة روبن، ولكن قدر لهم في ما

بعد أن يكسبوا معركتهم، ليس بالقوة العسكرية، وإنما من خلال مهاراتهم في الجدل والمحاكمة العقلية.

لقد حافظ الكزوسيون، مثل غيرهم من الشعوب المقهورة كالاسكتلنديين وهنود أمريكا، محافظة شفهية على تراثهم التاريخي الذي تجاهله أمام العالم الخارجي. قال ماثيوز البروفسور الإفريقي الذي دَرَّس مانديلا: «إنه يستحيل أن نقبل تقييم الأوروبي للإفريقيين من أجدادنا على أرضنا».[25] كان مانديلا، رغم تعليمه الغربي، يقدر المؤرخين الرواة ويعتبرهم أبطالاً. وبقيت الحكايات المروية عن الكزوسيين التي سمعها من الكبار مصدر إلهام له: «كنت أعرف أن مجتمعنا أنجب أبطالاً سوداً وهذا كان يشعرني بالفخر. لم أعرف كيف أنقل هذا الفخر إلى الآخرين ولكني حفظت هذه المادة الأولية داخلي عندما التحقت بالكلية».[26] وفي الوقت الذي يعتبر معظم المؤرخين البيض ثوار الكزوسا شيئاً من الماضي البعيد، غشّاه وطغى عليه المنطق المتجبّر للغزو الغربي والتكنولوجيا الغربية، رأى مانديلا، مثله كمثل كزوسيين مثقفين آخرين، في احتلال البيض فترة مستقطعة من التاريخ الحديث، ولم يكن لينسى أبداً أن جده الأكبر كان يحكم إقليماً بأكمله قبل ولادته هو بقرن من الزمن.

2

صَبِيّ المهمّات

1934 ـ 1940

عندما بلغ مانديلا السادسة عشر من عمره، سنة 1934، ذهب مع خمسة وعشرين صبياً من قبيلة تمبو بقيادة جَسْتيس، ابن الوصي، إلى وادٍ ناءٍ على ضفاف نهر باشي، الموقع التقليدي لختان ملوك المستقبل من التمبو. ولا يمكن لأي من الكزوسا الريفيين أن يتبوّأ موقع القيادة دون هذه الطقوس. ويتذكر مانديلا بحيوية الاحتفال الذي أعلن بلوغ الرجولة: الأيام التي مضت قبل الاحتفال مع باقي الصِّبْيَة في «المسكن المنعزل»؛ كانوا يومها يغنون ويرقصون مع نسوة من تلك المنطقة في الليلة التي سبقت الاحتفال؛ كانوا يَسْتَحِمُّون في النهر عند الفجر؛ ويعرضون في دُثُرِهِم أمام الشيوخ والوصي ذاته، الذي كان يراقبهم ليرىٰ أنهم يتصرفون بشجاعة.

طلع عليهم الخاتن العجوز ومعه رمحه الحاد. وكان الواحد من الصِّبْيَة إذا حان دوره في الختان صاح رفاقه جميعاً «أنا رَجُل»![1] كان مانديلا متوتراً وقَلِقاً. إنه يذكر اللحظة التي ختن فيها ويصفها؛ كأن رصاصاً مصهوراً كان ينساب في عروقه. وللحظات نسي كلماته، بينما كان يضغط برأسه على العشب قبل أن يصيح هو أيضاً: «أنا رَجُل»! لكنه كان يعي أنه لم يكن شجاعاً بطبيعته: «لم أكن صريحاً وقوياً مثلما كان بقيّة الصِّبْيَة».[2]

وعندما انفضَّ الجمع وانقضىٰ الاحتفال، بعد أن دفنوا ختانهم، طلوا وجوههم بمادة (مَغْرَة) بيضاء ثم غسلوها في النهر، كان مانديلا فخوراً بحاله

الجديد كَرَجُل، وقد اتَّخَذَ اسماً جديداً ـ داليبونغا، ويعني مؤسس المجلس ـ ويستطيع أن يمشي شامخاً ويواجه تحديات الحياة. ما زال يشعر في قرارة ذاته أنه جزء من قبيلة فخورة. وقد صدمته كلمات الزعيم مليغكيلي إلى صِبْيَة القبيلة، أنهم لن يكونوا حقيقة رجالاً لأنهم شعب مهزوم مُسْتَرَقّ في وطنِه.[3] أدرك مانديلا بعد عشر سنين أن الزعيم كان رائداً لسياسيين شجعان مثل الفْرِدْ كزوما ويوسف دادوو وجيمس فيليبس ومايكل هازْمِل. وفي خلال ذلك، أخذ مانديلا عُجْبٌ عظيم برجولته التي اقترنت بالختان وبما تنطوي عليه من شموخ وسموّ؛ ففي الجامعة صُدِم بعلمه أن أحد زملائه لم يكن قد ختن بعد. لكنه بعد أن انغمس في السياسة فيما بعد، قال ذات مرة في جوهانسبورغ: «عندما بدأت أخرج من طوق التَحَيُّز الذي عشته في صباي قَبِلْتُ بالمبدأ القائل إن الناس جميعاً سواسية».[4]

كان على مانديلا أن يقدم على نقلة اجتماعية جذرية في غمرة النظام المدرسي التبشيري الصارم. لقد كان الوصي عازماً على أن يقدم له الثقافة اللائقة، كمرشح لأن يكون المستشار لساباتا، ملك المستقبل. لذلك فقد أرسله إلى المؤسسة الميثودية الكبرىٰ في كلارْكْبري. عبر نهر باشي، حيث تَعَلَّم هو وابنه جَسْتيس، وقد يعلّم ساباتا. ولِكلاركبري رنين خاص عند عائلة تمبو الملكية: فقد أُسِّسَت سنة 1825، في عهد الملك نغوبنغكوكا جد مانديلا الأكبر، الذي قابل رائد الميثوديين وليام شو ووعده أن يقدم له أرضاً ليقيم عليها بعثته.[5] وقد أنشأ البعثة الكاهن ريتشار هادّي، على بعد أميال من قصر الملك الكبير، وقد سميت باسم عالم لاهوت بريطاني معروف، هو الدكتور آدم كلارك.

لقد كان الميثوديون أكثر المبشرين مغامرة وأعظمهم نفوذاً، حيث تغلغلوا خلال الكاب الشرقي في ذات الوقت الذي دخله الجيش البريطاني ـ تارة باتفاق مع الجيش وتارة أخرىٰ بدون اتفاق. أما غالبية المواطنين الكزوسا فإنهم

يعتبرون بعثات التبشير عملاء للحكومة البريطانية، التي استعملتهم لِذَرِّ الخلاف بين الزعماء المتصارعين ولتجريدهم من سلاحهم: فقد كتب الكاتب التروتسكي نوزيغو ماجيكي سنة 1952 أن الإرسالية الويزليانية كانت دائماً على أتم الاستعداد للتعاون مع الحكومة، وكانوا قادرين على محاصرة الملك العظيم هِنتسا، بتأليب بقية زعماء القبائل عليه.[6] لكن معلّمو البعثات التبشيرية كانوا يعارضون إدارة البيض، وقد لعبوا دوراً محايداً في تطوير شعب الكزوسا. فقد سجّلت مدارس البعثات التبشيرية في سنة 1935 في جميع أنحاء جنوب إفريقية 342181 تلميذاً، وكما يقول المؤرخ ليونارد تومبسون: «لقد دخلوا في كل مجموعة إفريقية نائية».[7]

قد يحتفظ مانديلا باحترام لتعاليم البعثات التبشيرية، بينما ينتقد نهجها وصلاتها بالإمبريالية. «لقد مارست بريطانيا نفوذاً هائلاً على جيلنا، على أقل تقدير، لأن البريطانيون المتحرّرين وإرساليات التبشير هم الذين باشروا الثقافة في هذا البلد».[8] وفي كلمة ألقاها في جامعة أُكسفورد بعد مضي ستين سنة على أيام دراسته يوضح قائلاً: «لم تُبدِ حكومة بلادنا حتى وقت قريب جداً، أيَّ اهتمام مهما كان في تعليم السود. لقد أنشأت المؤسساتُ الدينية المدارسَ، وجهّزتها، ووظّفت المعلمين ودفعت لهم أُجورهم؛ لذلك فإن الدين يجري في دمنا. ولولا المؤسسات التبشيرية لما كان روبيرت موغابي ولا سيرتسي خاما، ولا أوليفر تمبو.[9] وفي السجن سيناقش التروتسكيين الذين يستشهدون بهجمات الماجيكي على البعثات التبشرية، ويرحب بالكهنة الذين حملوا التشجيع والأخبار من الخارج.[10] وسيكتب لبعض أساتذته في البعثة القديمة ليستعيد الذكريات وليشكرهم. وفي السجن أصبح أكثر وعياً بالنفوذ السياسي لكل من زعماء القبائل والمبشرين فكتب: «كنت دائماً أعتقد أن من الخطورة بمكان الاستخفاف بنفوذ كلٍّ منهما على الناس. ولهذا السبب كنت دائماً أحثُّ على الحذر في التعامل معهما».[11]

عند قبول مانديلا في الجامعة سنة 1934 كانت كلاركبوري قد أصبحت أكبر مركز تعليمي في تيمبولاند، وتفتخر بعراقتها في التدريس، ومعظم أساتذتها من المبشرين البريطانيين. وتوسعت، فغدت مجموعة مهيبة من الأبنية الحجرية الراسخة، تضم كلية لإعداد المعلمين، ومدرسة ثانوية، وأماكن تدريب على دورات عملية، وفيها سَكَن للصبيان وآخر للبنات، وباحات للرياضة ولعب التنس. كانت مستوطنة متكاملة تحتل أحد السفوح المنعزلة في منطقة إنغكوبو، ولها جاليتها الخاصة الناشطة. وأصبحت إنجازاتها السابقة بالغة الأهمية إثر إدخال تعليم البانتو سنة 1935، عندما خسرت أموالها وأصبحت يباباً، ليس فيها سوى مدرسة صغيرة وكنيسة ميثودية تنبي عن استمرارها. وهي اليوم صورة مأساوية لأبنية متداعية، وسقوف منهارة وقاعات للدراسة متآكلة، أحرقها الطلاب المتظاهرون ضد الحكومة البانتوستانية الترانسكية. ومازال هناك بعض ما يُذَكِّر بمجدها الغابر، ويتضمن لوحة تذكارية نقش عليها اسم مدرسة دالينديبو التبشيرية بنيت سنة 1929. وقد أعيد بناء بعض المباني، لتكون مدرسة محدثة، ويقول مدير المدرسة إنها ستقوم بتدريب الكزوسين على إحداث فرص عمل، بدل البحث عن تلك الفرص، وإن مانديلا يحث السكان المحليين على أن يدركوا أن الجاليات الصغيرة تستطيع أن تنجب قادة كبار. ومازال مانديلا يزور كلاركبوري ويتحدث ويكتب عنها بحرارة، وقد اختارها لتكون الموقع الذي يطلق منه نسخة جديدة من سيرته الذاتية.[12]

كانت كلاركبوري سنة 1934 في قمة إنجازها تقريباً. كان يديرها تربوي رائع هو الأب سيسيل هاريس، الذي كان وثيق الصلة بالجماعات الكزوسية المحلية وزعمائها. نِبَّهَ الوصيُّ مانديلا كي يعامل هاريس بما يليق به من الاحترام لأنه «تمبووي القلب»، وصافحه مانديلا باحترام، كانت أول يد بيضاء يصافحها. وأدار هاريس كلاركبوري بقبضة حديدية، كان أشبه بقائد عسكري منه بمدير مدرسة.[13] كانت له طبيعة أرستقراطية، يمشي مشية جندي، كما

كان في الحرب العالمية الأولى. يذكر مانديلا أنه كان صارماً جداً في تعامله مع الطلاب. «كان قاسياً دون طيش».[14] غير أن مانديلا لمس جانباً أكثر إنسانية ووداً في هاريس وزوجه عندما عمل في حديقتهما. وبعد سنوات، عندما كان في السجن، استقصى عنوان مافيس نيبي ابنة هاريس، التي كانت طفلة يوم كان هو في كلاركبوري. «صعقت» الابنة إذ وصلتها رسالة من سجين مشهور.[15] وذكرها مانديلا كيف كانت والدتها تقدم له كعكة بالزبدة أو خبزاً بالمربى، كانت بالنسبة لصبي في السادسة عشر أشبه باحتفال ملكي. وطلب منها بعض المعلومات عن أسرة دليندیبو : «في عمرنا يصبح الإنسان بالغ الاهتمام بالحقائق والوقائع التي لم نولها ما تستحقه من الاهتمام يوم كنا شباباً».[16]

كان مانديلا يتوقع معاملة محترمة من الطلاب الآخرين لأنه سليل أسرة ملكية وقد أسس جده المدرسة. غير أنه كان موضع هزء إحدى الطالبات للكنته الريفية وبطئه في الصف ولأنه يمشي بحذائه الجديد مثل «حصان بمهماز».[17] وجد نفسه بين جماعة تحترم الذكاء والموهبة أكثر من الوضع العائلي الموروث. فقد استعاد رباطة جأشه بعد الصدمة الأولى، واستطاع بفضل ذاكرته القوية الحصول على شهادة جونيورسيرتيفيكيت (الدراسة المتوسطة) خلال سنتين. كما أقام علاقات صداقة دائمة مع أونوربرزك بالا الذي أصبح فيما بعد طبيباً انضم إلى صفوف المعارضة في ترانسكي، وكان يراسل مانديلا في سجنه. وآرثر داماني الذي اصبح صحفياً في صحيفة الغارديان الراديكالية. ودخل مانديلا السجن في بريتوريا سنة 1960، وسيدني سيديو ابن أحد المدرسين في كلاركبوري الذي أصبح موسيقاراً بارزاً، وروبين مفيكان الذي اصبح نقابياً في بورت إليزابيث، مما أدى به، كمانديلا، في نهاية المطاف إلى جزيرة روبين.[18]

كان مانديلا ينتقد الإدارة في كلاركبوري وبخاصَّةٍ الطعام الذي كان في حدوده الدنيا وأحياناً لا يؤكل. إلا أنه الكلية الأولى التي تخرج منها فتحت

عينيه على قيمة المعرفة العلمية، وفتحت أمامه أبواب عالم أوسع بكثير من تمبولاند، بما فيها من طلاب من الجنسين من جوهانسبورغ وماوراءها، لأن كلاركبوري ، على خلاف المدارس البريطانية العامة، كان التعليم في كلاكبوري مختلطاً. وحتى والحال كذلك، فقد كان يشعر أن انتماءه التمبوي مآله إلى خدمة عائلته الملكية، واستمر على يقينه بأن «جذوري هي قدري».[19]

بعد سنتين في كلاركبوري، أُرسل مانديلا إلى هيلدتاون، وهي مؤسسة ميثودية أكبر، حيث سار أيضاً على طريق جَسْتيس ابن الوصي. كانت هيلدتاون بعيدة مثل كلاركبوري، ولكي يصل الطالب إليها عليه السير عشرة أميال من فورت بوفورت على طريق ترابي يتعرج عبر الوادي قاطعين جداول وجداول، إلى أن يصلوا إلى أبنية جميلة على الطراز الفيكتوري ذات أسقف حمراء متموجة، تشرف على وادٍ شديد الأخدار، واليوم لم يبق من المدرسة سوى أطلال، كما هي كلاركبوري. وقد أعيد بناء المبنى المركزي الجميل مع برج ساعته الرائع، وبتمويل من شركة كوكا كولا افتتحت مدرسة ثانوية عامة، غير أن معظم قاعات الدرس والبيوت ليست إلا هياكل خاوية على عروشها كسرت نوافذها وصدِأت سقوفها ونمى العشب في حدائقها، لا يسكنها سوى أشباح الجماعة القديمة على سفح الجبل.

كان لهيلدتاون، التي تصغر كلاركبوري بثلاثين سنة، تاريخ أعمق رجعاً. فقد أسست سنة 1855 بعد أن أخضع السير هاري سميث قبائل الكزوسا المحاصرين في وسط مناطق المعارك. كانت موقعاً بريطانياً متميزاً اسفل الجرف الكبير لجبال آماتولا حيث لجأ الكزوسيون المهزومون، وتحيط بها نقاط حدودية عسكرية قديمة ـ فورت بوفورت، وفورت هاري، وفورت براون ـ وكانت تتبع المذهب الميثودي بصرامة، وقد سمي الموقع باسم جيمس هيلد البريطاني الوليزياني الميثودي الذي كان عضواً في البرلمان البريطاني، غير أنها بنيت أيضاً لتكون تجربة عملية في تدريب المسيحيين الفينغو على الحِرَفِ

والصناعة. لقد فشلت تلك التجربة الأولى، غير أن الكلية وسعت مجالها واستيعابها لتصبح كلية لتدريب المعلمين ومدرسة ثانوية مهمة. وفي الثلاثينيات من القرن العشرين كانت تضم أكثر من ثمانمئة طالب داخلي.[20] وكانت قريبة من المراكز التعليمية التبشيرية مثل لوفديل وسانت ماثيو وفورت هاري، وشكلت مجتمعة أكبر حشد للطلاب السود ذوي التعليم العالي في جنوب إفريقية.

قدَّمَت هليدتاون، مثلها مثل كلاركبوري، تعليماً بريطانياً متشدداً مع بضعة تنازلات لصالح الثقافة الكزوسية. وكثيراً ما كانت الطقوس التبشيرية والإمبريالية تندمج ببعضها، وبخاصَّة في أيام الآحاد، عندما كان طلاب المدرسة الصبيان والبنات يسيرون في صفوف منفصلة إلى الكنسية بقمصانهم البيضاء، وستراتهم السوداء وربطات العنق الكستناوية المذهبة. يرفعون راية يونيون جاك(*) وينشدون جميعاً «ليحفظ الله الملك» و«نكوسي سيكيليل إيافريكا» بصحبة فرقة المدرسة للموسيقى النحاسية وتحت أنظار الزوار المعجبين الذين كانوا يأتون من كل حدب وصوب.[21] كان الكاهن آرثر ويلنغتون مديراً للمدرسة منذ سنة 1927 ـ الذي طالما استمتع مانديلا بتقليده ـ وهو بطل إنكليزي محافظ كان يفخر بتحدره من نَسْلِ بطل ووترلو. غرس ويلنغتون الأدب والتاريخ البريطاني في أذهان تلاميذه بمساعدة طاقم جلَّه إنكليزي، وقام بالدعاية للمدرسة بدعوة بريطانيين بارزين لزيارتها، منهم اللورد كلارينڈُن، الحاكم العام لجنوب إفريقية، الذي أرسى، قبيل وصول مانديلا، حجر الأساس لمهاجع جديدة وقاعة للطعام.[22] كان ويلنيغتون مستبداً نشيطاً ـ رغم أنه كان يتهم نفسه بالكسل ـ يدعي أنه يدير أكبر مؤسسة تعليمية جنوب الصحراء الكبرى (في الحقيقة كانت لوفِديل أكبر منها).[23] منع شرب الكحول

(*) يونيون جاك هو اسم العلم البريطاني (المترجم).

في هيلدتاون. وكان طاقم العاملين معه يسمونه «البطة»، ويعتبرونه رجل دولة تبشيري. كتب جاك دوغارد، الذي كان يدير مدرسة تدريب المعلمين بعد سنة 1932 «بعد فترة من تولي ويلينغتون تحولت البعثة العتيقة إلى مركز تعليمي مرموق».[24]

لم تترك ميثودية هيلدتاون وكلاركبوري أثراً دينياً عميقاً في مانديلا. فما كان له أن يصبح مؤمناً حقيقياً، رغم أن كثيراً من أصدقائه في الفترة اللاحقة ومنهم زوجه الحالية قد تلقوا تعليمهم لدى الميثوديين. إلا أنه كان يتأثر دائماً بجو المدرسة البيوريتاني (التطهري المتزمت)، والنظام الصارم والتدريب الذهني، والتركيز الويزيلياني على تجريد الأفكار إلى جوهرها الأصلي، وتفادي التكلف والنزاع. كان دائماً يشجب الإفراط في الشراب أو الشتم، كما أن الاعتماد على الذات الذي تعلمه في هذه المدرسة الداخلية زاده تماسكاً وصلابة في ما بعد.

لم يكن مانديلا مستغرقاً في الميثودية فحسب وإنما في تاريخ وجغرافية بريطانيا، إذ يذكر وهو في سجنه بعد خمسين عاماً: «عندما كنت يافعاً في الريف كنت أعرف عن لندن وغلاسكو بقدر معرفتي بكيب تاون وجوهانسبورغ» وذلك في معرض مراسلاته مع عمدة غلاسكو، حيث ذكر أبطالاً اسكوتلنديين مثل ويليام والاس William Wallace وروبرت البروس Robert the Bruce وايرل آرغايل Eart of Argyll[25] إلا أنه كان يرفض أن يصبح «الإنكليزي الأسود»، وكان يفخر بشكل كبير بتراثه الكزوسي، بتشجيع من أستاذ التاريخ ويفر نيوانا Weaver Newana الذي كان شخصاً محبوباً، وكان يضيف تاريخه المحكي إلى قصص الحرب الكزوسية في عام 1938. وشعر بنشوة كبيرة عندما قام الشاعر الكزوسي الشهير كروني مكواي Krune Mkwayi بزيارة للكلية، بلباسه التقليدي (الكاروس) Kaross المصنوع من جلد الحيوان، حاملاً رمحين، ليلقى قصائده الجياشة في مديح الكزوسيين.

أقام مانديلا صداقات متينة مع العديد من الفتيان الكزوسيين الذين انضموا فيما بعد إلى المؤتمر الوطني الإفريقي ANC، ومنهم جيمي نجونغوي Jimmy Njongwe، الذي ذاق معه الجوع والمعاناة في جوهانسبورغ، والذي أصبح طبيباً ثم منظماً رئيسياً لحملة التحدي Defiance Campaign[26] في ما بعد. كما أقام صداقات خارج قبيلته مع الناطقين بالسوثو Sotho مثل زكريا موليتي Zachariah Molete، الذي رافقه في ضاحية آليكساندرا Alexandra في جوهانسبورغ، وأستاذ علم الحيوان فرانك ليبنتليل Frank Lebentlele.[27] كما تأثر مانديلا تأثراً عميقاً بصاحب بيته الكاهن سيث موكيتيمي Seth mokitimi الذي يتحدث بالسوثو أيضاً، وأصبح فيما بعد أول رئيس أسود للكنسية الميثودية. وقد أدخل موكيتيمي إصلاحات تعطي الطلاب حرية أكثر وطعاماً أفضل.[28]

انعزل الأساتذة البيض في هيلدتاون Healdtown عن الأساتذة السود، وكانوا يتناولون طعامهم لوحدهم، حتى أن واحدا منهم اضطر إلى الاستقالة عندما اشتكى الأساتذة الآخرون من أنه يصادق السود. وقد كتب فيليس نتانتالا Phyllis Ntantala الذي كان تلميذاً حتى عام 1935، والذي انضم ابنه بالو جوردان Pallo Jordan إلى حكومة مانديلا[29]، كتب «أي مكان عنصري كانت هيلد تاون ومازالت». إلا أن قلة من الأساتذة البيض الأصغر سناً بدأوا بمصادقة زملائهم، وبعض الطلاب.[30]

وكانت المدرسة مختلطة، مثلها مثل كلاركبوري Clarkebury إلا أن البنات والصبيان كانوا يفصلون عن بعضهم بصرامة خارج غرف الصف، كما كانوا يعرضون للفصل إذا تبادلوا الحديث. ولكن بحلول عام 1935 كان الكاهن موكيتيمي قد رسخ عادة إقامة حفلات عشاء مختلطة أيام الآحاد. حيث كان الصبيان والبنات يجلسون سوية ويرتدون أفضل ثيابهم. وكان الطلاب الأكثر حذلقة وغنى يحبون التباهي، حيث كتب فيليس نتانتالا «كانوا يذهبون إلى

حفلات العشاء تلك مجهدين من شدة التأنق».[31] ولكن بالنسبة للقادمين من بيوت أكثر بساطة كانت آداب المائدة الأوروبية التي تعتمد على الشوكة والسكين متعبة. ويقول مانديلا في هذا الصدد: «كنا نغادر المائدة جائعين ومكتئبين».[32]

لم يكن الدوق وطاقمه الأبيض يعرفون أنهم يعلمون قادة المستقبل من السود. كانوا يستاؤون من احتجاجات الطلبة وإضراباتهم، التي تبدأ عادة بسبب الطعام الرديء، ولكنها كانت، فيما يعتقدون، تمت إلى نزاعات بين القبائل، أو بين الريف والمدينة . شهد عام 1937 احتجاجات سياسية أكثر خطورة عندما أقدمت نصّت قوانين هيرتزوغ الجديدة Hertzog Bills التي أصدرتها الحكومة على إستبعاد السود من قوائم الناخبين العاديين وأبطلت سندات التمليك التي بحوزة الفينغو Fingo المحليين، الذين ذهلوا لتقاعس أفراد البعثة التبشيرية عن الدفاع عن مصالحهم.[33] ولم يكن مانديلا آنذاك يلمّ إلماماً كافياً بالجوانب السياسية من حياة المواطنين السود. وفي هيلدتاون سمع لأول مرة بالمؤتمر الوطني الإفريقي الذي أسس في عام 1912. وكان ملك تمبو Tembu قد دفع ثلاثين بقرة ليسجل قبيلته في المؤتمر. ولكنه، بالنسبة لمانديلا، كان شيئاً غامضاً من الماضي السحيق.[34] كان أساتذة البعثة يعزون أي احتجاجات سياسية إلى «محرضين» تحركهم الشيوعية، وكان بعضهم يرى أنهم يدرسون نخبة صغيرة مختلفة تماماً عن السود العاديين. ولقد قال لهم أحد المسؤولين الحكوميين بشيء من الحسد إنهم يتعاملون مع قشرة من التربة الخصبة على السطح، فيما يتعامل هو مع الصخر الصلد العصي على التغيير.[35]

كان مانديلا ممزقاً بين وجهين للتواجد البريطاني في جنوب إفريقية: الإخضاع العسكري الوحشي للكزوسيين، والتأثير التنويري للتعليم الإنكليزي الليبرالي. هذا التناقض لخص في قصيدة «أمير بريطانيا» The prince of Britain التي كتبها شاعر مانديلا المفضل مكواي احتفاءً بزيارة أمير ويلز للسيسكي Ciskei في عام 1925:

أرسلتم لنا الحقيقة، وأنكرتم علينا الحقيقة،
أرسلتم لنا الحياة، وحرمتمونا الحياة،
أرسلتم لنا النور، وها نحن في الظلام
نرتجف وقد دهمنا الليل في شمس الظهيرة المشرقة[36]

تخرج مانديلا من هيلدتاون في عام 1938، ثم ذهب في العام التالي إلى الجامعة في فورت هير Fort Hare التي تبعد بضعة أميال عن هيلد تاون وميلاً واحداً عن المدرسة التبشيرية الكبرى في لوفديل Lovedale التي كانت مرتبطة بها. أحضر له الوصي بزة من ثلاث قطع، وقال نتومبيزودوا Ntombizdwa ابن عم مانديلا: «لقد ظننّا أنه سيكون أكثر الشباب أناقة في فورت هير». [37]

كانت «جامعة جنوب إفريقيا الأهلية» في فورت هير جامعة صغيرة للسود، وكانت الوحيدة من نوعها في جنوب إفريقيا، إلا أنها كانت تربة خصبة للثورة التي تلت. وفي عام 1939 لم تكن قد تجاوزت بعد عامها الثالث والعشرين، حيث أنشئت في منتصف الحرب العالمية الأولى، وافتتحها لويس بوثا Louis Botha، رئيس الوزراء بنفسه. اعتقد ألكسندر كير Ahexander Kerr أول رئيس للجامعة، بأن بوثا اعتبرها استرضاء، أو إيماءة للسود في وقت الحرب، عندما كان البيض يخشون «متاعب أهلية». ولكن بعد أن شددت الحكومات البيضاء مواقفها من السود في العشرينات من القرن العشرين كان وجودها الشاذ أكثر إثارة للانتباه. [38] لم يقلق رئيس الوزراء التالي الجنرال جان سموتس Jan Smuts كثيراً من كوامن الثورة الدفينة فيها، ونظر إلى فورت هير ضمن إطار سياسة الوصاية. وعندما خاطب خريجي الجامعة عام 1938، في العام الذي سبق قدوم مانديلا، قال «لقد أتى الأوروبيون إلى هنا كحملة الثقافة الأعلى، وكانوا بشكل أو بآخر عرقاً تبشيرياً، ولكن إذا كان لشعوب جنوب إفريقية الأصليين أن يعرفوا الخلاص فإن عليهم أن يأتي في النهاية من لدنهم». [39]

كانت انطلاقة الجامعة متواضعة جداً، حيث كان فيها عند إنشائها عشرون طالباً يحضرون لامتحان القبول (وقد رسب المرشحون الأربعة الأوائل).[40] وعندما وصل ماندیلا كان عدد الطلاب أقل من مئتين (ستة وسبعون منهم كانوا من الناطقين بالكزوسية)، من ضمنهم عشرة هنود وستة عشر من الملونين.[41] إلا أن تأثير فورت هير كان أكبر بكثير من عدد طلابها. فقد أصبحت، بدعم من لمدارس المحيطة بها، قبلة النخبة المثقفة من سود جنوب إفريقيا. وكان طلابها من الأرستقراطيين والنخبويين، أي أنها جمعت بين الأُسر الملكية والأُسر التبشيرية. ولم يكن مؤسسوها من المبشرين البيض فقط وإنما دعاة الثقافة السود من أسر تبشيرية رائدة، منها أسرة جابافو Jabaus وماكيوين makiwanes وبوكوي Bokwes ويرتبطون جميعاً بصلة النسب. كان المدرِّس الكبير جون تينغو جابافو John Tengo Jabavu رئيس تحرير جريدة Imvo إيمفو الناطقة بلسان السود، من مشجعي فورت هير وكان ابنه جيلي Jili أول أستاذ أسود فيها، وتزوج ابنة الكاهن تينسون ماكيوين Tennyson Makiwane. وفيما بعد انضم أستاذ آخر إلى جيلي جابافو هو ز. ك ماتثيوز Z. K. Matthews ابن أحد المشتغلين بالتعدين في كيمبرلي Kimberley الذي أصبح أول خريجي فورت هير. وأطلق على نفسه اسم «عينة جديدة في حديقة حيوان الجنس البشري الإفريقي».[42] تزوج ماتثيوز من فريدا بوكوي Friede Bokwe أخت صديقته في الكلية روزبيري بوكوي Rosebery Bokwe، من أسرة تبشيرية بارزة أخرى.

هذه النخبة الصغيرة تلقت تعليماً جيداً لأن فورت هير قبلت نساء بين طلابها منذ البداية. ولقد احتج المدير أول الأمر، إلا أن الأعضاء الإفريقيين أعربوا عن «عدم جدوى تعليم شبانهم إذا لم تكن زوجاتهم قادرات على تقديم الصحبة والاهتمامات المشتركة التي لا تستطيع أن تقدمها سوى المرأة المتعلمة»[43] في أواخر الثلاثينات، عندما وصل ماندیلا، لم يكن في فورت هير سوى بضع طالبات، كن يقمن في نزل منفصل في بيت زراعي قديم. كانت

الحاجة إليهن كبيرة، وكن غالباً أكثر مهارة من الرجال، مما سبب صدمة لمانديلا، إلا أنه كان يعرف أن هناك نساء قويات بين أسلافه الكزوسيين، ومنهم والدته التي أسست عشيرته. وقال فيما بعد: «شغلت النساء مناصب القادة والملوك في بعض الأوقات الأكثر حرجاً في تاريخنا».[44]

واستطاعت أجيال الطلبة من فورت هير ولوفديل، ومعظمهم مرتبط مع الأسر المرموقة في ترانسكي، أن تنشئ شبكات عائلية رائعة، غالباً ما كانت ذات قيم مسيحية قوية، وانضباط ذاتي. لا تقرب الخمرة إلا قليلاً، تشبه الشبكات البريطانية الفيكتورية الأولى مثل طائفة كلافامClapham. وقد قالت نوني Noni ابنة جيلي جابافو، التي أمضت بضع سنوات في بريطانيا في وصف شبكة أسرتها الواسعة بأنها تنطلق من فورت هير ولوفديل، وتذكرها بالروابط المدرسية الإنكليزية القديمة.[45] لكن تلك الشبكة ستتقطع أواصرها بشكل مأساوي أثناء سنوات التفرقة العنصرية وذلك بسبب التمييز السياسي والنفي. إلا أن الطبقة الوسطى المهنية السوداء، بما لها من نفوذ تبشيري، لن تدمر أبداً أو تهمش، كما حدث في أجزاء أخرى من إفريقيا مثل غانا أو أوغندا. حتى أن بعض ابنائها، ومنهم بالو جوردان، ابن فيليس نتانتالا وإيه سي جوردان A. C. Jordan، واستيلا سيغكاو Stella Sigcau، ابنة ملك بوندولاند الشرقيةEast Pondoland سينضمون إلى حكومة نيلسون مانديلا عام 1994.

لم يكن مانديلا يوماً في قلب هذه النخبة المثقفة، إلا أنها كانت تضم كثيراً من أصدقائه وأقربائه. وكان دائماً يكن الاحترام لـ ز. ك. ماثيوز، الذي كانت تربطه به أواصر القربى. كان الأستاذ الضخم القوي البنية الذي درس أجيالاً من الطلاب السود في فورت هير يثير حنق كثير من الثوار لاعتداله السياسي، إلا أنه كان يؤثر فيهم عادة بقوة إقناعه ونقاشه الهادئ.

ازداد مانديلا إعجاباً بماثيوز بعد أن وضع ميثاق الحرية للمجلس الوطني الإفريقي في الخمسينات وقد كتب لأرملة ماثيوز بعد وفاته في عام 1970 «هناك

أشخاص داخل وخارج الحركة ينتقدون موقفه الحذر، ولكني لا أستطيع الآن أن أجزم بأنهم لم يكونوا متهورين».

كانت فورت هير التي التحق بها مانديلا في عام 1939 معهداً صغيراً متراكباً يتألف من أبنية محيطة بساحة رباعية الزوايا من الأبنية الإيطالية البسيطة تحيط بها بيوت سكن الطلاب. كانت ما تزال خاضعة لسيطرة مديرها الأول ألكسندر كير، الاسكتلندي الصارم الذي كان يتفادى الجدل العام ولكنه كان ملتزماً بتطوير وتحسين المستويات الأكاديمية للجامعة دون تحيز للون. حيث قال ز. ك. ماثيوز إنه «كان يتعامل مع كل طالب كما هو، ولم يكن لّلون دخل في العلاقة». كان كير مدرساً متحمساً للغة الإنكليزية، يُشَرّب طلابه حب آدابها، وخاصة شكسبير، الذي كان يدرسه بحيوية، جعلته وثيق الصلة بإفريقيا المعاصرة.[46] ولطالما تذكر مانديلا أبيات من قصيدة تينسون «ذكرى» التي كان كير يلقيها بلكنته الاسكتلندية:

يا نبي الله القوي، أيها الحب الخالد،
نحن، الذين لم نر وجهك،
نعانق، بالإيمان، والإيمان وحده
اليقين حيث لا نستطيع إثباته..[47]

الثقافة صارمة ولكن التحررية (الليبرالية) التي كان يتمتع بها كير والأستاذان الإفريقيان جابافو وماثيوز شدت عضد الطلاب في المراحل التالية من ثورتهم. بالإضافة إلى الطلاب الملونين والهنود كانت فورت هير تضم قلة من البيض المحليين، ولكن الإفريقيين كانوا الأكثرية، وفيما بعد قام أكاديمي أمريكي - إفريقي هو رالف بانش Ralph Bunche - الذي أصبح فيما بعد نائب الأمين العام للأمم المتحدة، وفاز بجائزة نوبل، قام بزيارة لفورت هير في عام 1938، وقال «إن الطالب المحلي الجيد يعادل أي طالب هندي أو ملون».[48]

كان مانديلا فخوراً لكونه في فورت هير، وكان الوصي سعيداً لانتساب

أحد أبناء عشيرته إلى تلك الكلية الذائعة الصيت. وكان الأساتذة يقولون لتلاميذهم إنهم سيصبحون قادة شعبهم، وعندما وصل مانديلا كطالب مستجد في الحادية والعشرين من عمره أرهبته الثقة والثقافة الرفيعة لدى متقدميه. بقي صديقه جاستيس في هيلدتاون، إلا أن مانديلا وجد حليفاً جديداً صدوقاً في شخص قيصر ماتانزيما Kaiser Matanzima ابن أخته من أسرة تمبو الملكية. فمثل مانديلا كان قيصر الذي عرف باسم كي دي .K.D يتحدر من الملك نغوبنغكوكا Ngubengcuka، ولكن من الخط الأعلى مقاماً، من «البيت الكبير»، وكان مستقبله مقرراً كملك أو زعيم ذي سلطة عليا. كان ابن أخت مانديلا إلا أنه كان أكبر سناً وأكثر ثقة كقائد ومثقف. مما سيجعله أول زعيم يحمل شهادة عالية[49] أصبح المعلم الناصح لمانديلا وشجعه أثناء قيامه بدوره في المستقبل كمستشار ملكي. وفيما بعد سيصبح كل منهما خصماً سياسياً للآخر. إلا أنهما كانا خير صديقين في فورت هير. كانا يعيشان في بيت الطلبة الميثودي. ويذهبان إلى الكنيسة معاً، ويلعبان كرة القدم، ويذهبان للرقص، ولا يشربان الكحول. كانا طويلي القامة، يتحليان بعادات الريف، يحبان الثياب والزهو. يقول قيصر «كنا شابين على درجة كبيرة من الوسامة جعلتنا محط أنظار كل النساء».[50] وحتى الاسمان اللذان أطلقا عليهما عند ختانهما في القبيلة كانا كاسمين لتوأمين داليبونغا Dalibunga وداليوونغا Daliwonga. وبعد ستين سنه، كان قيصر يستعيد ذكرى تلك الصداقة الشابة وهو في قصره الكبير في ترانسكي ويقول: «كنا متلازمين دائماً. وعندما كان أحدهم يجدني وحيداً كان يسأل: أين نيلسون؟.. كنا نشعر بدفء الود والألفة»، حتى أن مانديلا هو الذي وجد لقيصر زوجاً هي أغرينث Agrineth ابنة الزعيم سانغوني Chief Sangoni، الأمر الذي كان بالغ الأهمية بما أن قيصر حنث بقسم رفض تعدد الزوجات.[51] وبالرغم من خلافاتهما السياسية التالية لم يكن مانديلا يوماً لينكر إعجابه المبكر بماتانزيما Matanzima. حيث كتب لفاطمة مير Fatima Meer

من سجنه عام 1985: «قد لا تصدقين إذا قلت لك إنه كان مرة الأقرب إلى قلبي».[52]

بالرغم من أن مانديلا كان أقل عظمة من كي دي إلا أنه كان يعتبر أميراً شاباً، وكان للأسر المالكة موقع خاص حتى في المحيط الثقافي في فورت هير، يوحي بالاحترام والتحفظ. قال جو ماثيوز، ابن الأستاذ الذي سيتبع مانديلا إلى فورت هير: «كان الأمراء الكزوسيون يعتقدون أن العالم ملكهم. كان بعضهم يركل رجال القبيلة ليبعدهم عن طريقه، من منطلق أن كل من هو سواهم غير ذي شأن. الأرستقراطيون لا يستطيعون أن يصدقوا أنك ستخالفهم، مثل النساء في محلات هارودز في بريطانيا اللاتي يتجاهلن الجميع ويقلن بصوت مرتفع: سآخذ قليلاً من ذاك».[53]

لم يتصرف مانديلا يوماً بمثل ذلك الغرور وكان دائماً يحترم عامة الناس الذين كانوا أمهر منه مثل أوليفر تمبو، لكنه اعتاد أن يعامله الناس معاملة الأمراء.

تفتح مانديلا في فورت هير. وأحب موقع الجامعة الجميل على ضفاف نهر تيومي Tyume، أسفل جبال آماتولا Amatola Hills وسيستعيد فيما بعد ذكريات الرحلة على خط سكة القطار المتعرج جانب الجبل، والمشهد الرائع من الشجيرات الخضراء والجداول المتدفقة بعد أمطار الصيف، المرج الفسيح والهواء النقي.[54] وتفوق في سباق الضاحية والملاكمة، وكان أبطال هذا السباق من الرياضيين أكثر مما كانوا من المثقفين. وفيما بعد، عندما كان في سجنه، كتب يسأل عن منافسه في سباقات الأميال سوسيثنز موغوكونغ Sosthenes Mokgokong[55] كان يستمتع بالرقص في قاعات الرقص بالمشاركة في المسرح حتى أنه مرة أدى دور جون ويلكزبوث John Wilkes Booth قاتل إبراهام لينكولن. وقد أقام صداقات كثيرة من مختلف المشارب في هذا المكان الذي يجمع السود من كافة أرجاء البلاد. كان نوني جابافو يستعيد في ذاكرته

حين يقول: «كنت ترى القبائل تنصهر في أمة جديدة. وما كان عليك سوى أن تستمع إلى النداءات والصيحات. وكانت لكناتهم الإنكليزية المتعددة تشعرك بالمدى الواسع لجنوب إفريقيا».[56]

كان بعض أصدقاء مانديلا ناشطين في السياسة منذ ذلك الوقت المبكر مثل بول ماهاباني Paul Mahabane الذي كان يقضي أيام العطل معه، وهو ابن رئيس سابق للمؤتمر الوطني الإفريقي ANC ونتسو موخيهلي Ntsu Mokhehle، العالم الفذ، الذي أصبح فيما بعد رئيساً لحزب مؤتمر باسوتولاند Basutoland Congress Party، ونياثي خونغيزا Ngathi Khongisa الذي حرك الطلاب بمهلجمته سموتس رئيس الوزراء Smuts كونه عنصرياً وتمنى علناً لو أن ألمانيا النازية تهزم بريطانيا كي يستطيع الإفريقيون الإطاحة بالهيمنة الأوروبية. انضم لينكولن مكينتاني Lincoln Mkentane، وهو سليل أسرة ترانسكية كبيرة أخرى إلى المؤتمر الوطني الإفريقي وسجن، وكان أوليفر تمبو، المثقف المتميز في العلوم والأدب ماهراً في المناظرات السياسية[57] إلا أن مانديلا نفسه لم يكن ناضجاً سياسياً إذ ذاك. لم يكن قريباً من تمبو، وكان يشعر بالحرج إزاء النزعة الثورية لأصدقاء مثل ماهاباني كان طموحه الأول هو أن يصبح مترجماً في البلاط، وهي مهنة محترمة في المناطق الريفية تثير الأمل بالحصول على النفوذ والحظوة: «لم أستطع أن أقاوم بريق العمل الوظيفي».[58] وقد درس الترجمة في فورت هير، بالإضافة إلى الحقوق والإدارة المحلية والسياسة واللغة الإنكليزية. كان يعتبر الشهادة جواز مرور ليس إلى القيادة السياسية، وإنما إلى منصب في الجماعة يخوله أن يعيل أسرته.

معظم الطلاب لم تكن لديهم ميول سياسية أيضاً. وكانوا يتوقعون أن يصبحوا موظفين أو على الأغلب مدرسين، مما أثار قلق مجلس إدارة الجامعة الذي أفاد في عام 1940[59] بأنه «لا يمكن أن نتوقع أن مهنة التدريس ستستوعب جميع الخريجين». ومر وقت كانت فيه فورت هير أكثر ثورية. ففي أوائل عقد

الثلاثينات من القرن العشرين كان الشيوعي الشاب ايدي روكس Eddie Ruox قد نصب خيمة على التل قرب الجامعة، ونظّم دورات في الماركسية ـ اللندنية سحرت الطلاب الإفريقيين ومنهم غوفان مبيكي الشاب Govan Mbeki، فيما كان الأمريكي الأسود ماكس ييرغان Max yergan يدرس مبيكي عن المادية الجدلية.[60] أما في أيام مانديلا فقد كان الشغل الشاغل لمعظم الطلاب هو مستقبلهم المهني، وكانت الخيمة الحمراء قد خبا بريقها عقب تحالف استالين مع هتلر في آب (أغسطس) 1939. وبعيد وصول مانديلا إلى فورت هير أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا، وأعلن رئيس الوزراء جان سموتز Jan Smuts فوراً عن دخول جنوب إفريقيا الحرب إلى جانب بريطانية. وعندما أتى سموتز ليتحدث إلى الطلاب في فورت هير صفقوا له كلهم تقريباً ـ بما فيهم مانديلا، الذي سره أن سموتز يتحدث الإنكليزية بلكنة ركيكة كلكنته هو.[61] وقد دعم مانديلا بحماسة موقف بريطانيا ضد هتلر، وظل مأخوذاً بونستون تشرشل Winston Charchill وبعد حوالي خمسين سنة سيحدث ماري سوميز Mary Soames ابنة تشريشل كيف كان يستمع إلى خطبه الإذاعية في فورت هير إبان الحرب. ويتذكر كيف نجا تشرشل من الأفارقة أثناء حرب البوير Boer War[62] ولكن يذكر مانديلا أنه عندما كان في الثانية والعشرين «لم تكن الحرب ولا السياسة هاجسه».[63]

بدت فرص النجاح مشرقة في مستقبل مانديلا كموظف، إلا أن نزعته الثورية أطاحت بتلك الآمال. ولم يكن الأمر وقتها يتعلق بالسياسية، ولكن بقضية أكثر إلحاحاً هي قضية الطعام المنفر. كانت الوجبات في فورت هير تتسم بالبساطة والتقشف، وشعر الطلاب الإفريقيون بالغبن عندما اكتشفوا بأن الطلاب البيض في جامعة رودوس، التي زاروها لإجراء مباريات رياضية ومناظرات، كانوا يغذون بشكل أفضل بكثير.[64] وفي عامه الثاني انتخب مانديلا لعضوية مجلس تمثيل الطلبة، إلا أن ربع الطلاب الذين يحق لهم الانتخاب فقط أدلوا

بأصواتهم. إذ قاطعت الأغلبية الانتخابات وطالبت بتحسينات في النظام الغذائي للكلية ومزيد من السلطات للمجلس. قدم مانديلا وخمسة آخرون من الممثلين المنتخبين استقالتهم، وأصدر المدير الماكر الدكتور كير Dr. Kerr أوامره بإجراء انتخابات جديدة، تجري وقت العشاء، حيث يكون جميع الطلاب حاضرين. ولكن مرة أخرى لم يدل سوى ربع الطلاب بأصواتهم. وانتخبوا الممثلين الستة أنفسهم.

واتفق الخمسة الآخرون على البقاء في المجلس إلا أن مانديلا شعر أنه لا يستطيع أن يتجاهل آراء الأغلبية، فاستقال مرة أخرى. وشجعه في موقفه قيصر ماتانزيما الذي سبق أن كان في المجلس.

استدعى الدكتور كير مانديلا، وحذره بتعاطف لا يخلو من صرامة من أنه إذا استمر في المقاومة فإنه سيطرد. لم ينم مانديلا ليلته تلك، إذ كان ممزقاً بين طموحه وواجبه تجاه أخوته الطلاب. وقال فيما بعد «كنت مذعوراً. كنت أخاف /كي دي/ أكثر من خوفي من الدكتور كير».[65] وأكد في اليوم التالي أنه لن يمتثل. فأعطاه كير فرصة أخيرة ليعيد التفكير، وطلب منه أن يعود إلى دراسته. رفض مانديلا، من زاوية اعتقاده بأن كير ينتهك حقوق الطلاب، وطرد إثر ذلك. وعاد مانديلا إلى القصر الكبير حيث قال له الوصي، الغاضب لأنه أضاع مستقبله، أن عليه أن يعتذر ويعود إلى فورت هير، إلا أن عناد مانديلا كان في أوجه. وقال ابن عمه نتومبيزودوا Ntombizodwa «إنه عنيد جداً ولن يعود أبداً».[66]

وسرعان ما ألقى الوصي مفاجأة مذهلة أوصلت علاقتهما إلى الأوج. إذ تملكته فكرة أنه لن يعيش طويلاً. ورتب لزواج ابنيه جاستيس ومانديلا واستقرارهما كل مع أسرته. روّع مانديلا فالفتاة التي اختيرت له كانت أقرب إلى السمنة ولم يشعر بميل إليها، كما كان يعرف أنها تحب جاستيس «ربما كانت تشعر بأني عبء عليها كما كنت أشعر أنها عبء عليّ».[67]

كانت تلك نقطة القطيعة. كان مانديلا يعرف أنه مدين بالكثير للوصي، الذي تبناه كما لو كان ابنه ومول تعليمه، وهو الآن مريض وبحاجة إلى الدعم. إلا أنه كان مصمماً على التمسك بحريته. فقرر الهرب سريعاً مع جاستيس ليجرب حظه في جوهانسبورغ.

وقد كتب فيما بعد أن «الحياة تعرف كيف تفرض قراراتها على المترددين». هذا كان خياره هو، الذي أنهى بشكل قاطع آماله القبلية ومستقبله الجامعي: «فجأة تداعت جميع أحلامي الجميلة، والفوز الذي كان يناديني تبخر كالثلج تحت شمس الصيف» إلا أن قراره كانت له تبعات أكبر مما كان يتخيل إذ ذاك. حيث فكر بعد أربعة عقود وهو في سجنه لو أنه لم يتحد مدير فورت هير «لربما نجوت من جميع العواصف التي عصفت بي وحملتني من مكان لآخر على مدى السنوات الثلاثين الماضية» فقد وجد نفسه في خضم بحر يزخر بالأخطار. إلا أنه بدأ يفتح أمامه ببطء آفاقاً أوسع. استطاع من خلالها أن «يرى تاريخ وتراث شعبه ضمن إطار التاريخ والتراث الثقافي للجنس البشري كله». (68)

3

المدينة الكبيرة

1941 ـ 1945

غادر مانديلا في نيسان (أبريل) 1941 القصر الكبير متجهاً إلى جوهانسبورغ مع جاستيس وكان وقتها في الثانية والعشرين. كان واحداً من آلاف السود القرويين الذين يصلون كل عام إلى مدينة الذهب، معظمهم يلتفون ببطانيات أو بثياب رثة، يأملون أن يجدوا عملاً كعمال مناجم أو خدم أو شغيلة. كان منظرهم مألوفاً بالنسبة للبيض في جوهانسبورغ ترسخ ذكراهم الأفلام والروايات المعاصرة من Jim Comes to jo-bury to cry, the Belvoed country.[1] وكان وصولهم مثالاً حياً للنقلة من فقر الريف إلى تكلف العاصمة، وخاصة الصورة المتكررة لقبلي حائر يحملق ذاهلاً في ناطحات السحاب، والسيارات السريعة والأنوار البراقة لمدينة الرجل الأبيض، إلا أنها صورة مضللة: فالإفريقيون القرويون القادمون من بيوت أصيلة ذات جذور قد يشعرون بأمان أكبر وطموح أوضح في غابة المدينة من سكان المدن ممن ليست لهم جذور، وأخذوا فوضى المدينة على أنها من المسلمات. وقلة من البيض أدركوا أن هؤلاء الريفيين البسطاء يضمون شباباً طموحين على مستوى عال من التعليم ولديهم عاداتهم الأصيلة، وسيثبتون مقدرتهم على هزيمة تفوق البيض في سنوات معدودة.

لم تكن جوهانسبورغ قد تجاوزت عامها الخامس والخمسين، إلا أنها كانت واحدة من المدن الرئيسية في إفريقيا، فيها مركز تجاري متكامل يضم

فنادق كبيرة وكاتدرائية من الحجر، ولها ضواح غنية تنتشر نحو الشمال وتتصل بها سلسلة غير منتظمة من القرى السوداء إلى الجنوب الغربي.

كانت الحرب العالمية الثانية تحرك اقتصاداً ناشطاً في جنوب إفريقية، كما في سواها من المراكز الصناعية عبر العالم. فقد أدى تخفيض الاستيراد إلى تنشيط الإنتاج المحلي، كما أصبحت الحاجة ملحة لإحلال قوة عمل سوداء محل العمال البيض الذين كان كثير منهم يحارب وراء البحار. وفي الإحصاء الرسمي للسكان ما بين عامي 1936و1946 ازداد عدد السكان السود في مدن جنوب إفريقية بمعدل حوالي 50٪. من 1.142.000 إلى 1.689.000. وعندما اكتسح الجفاف المناطق القبلية الريفية تحول النزوح إلى جوهانسبورغ إلى فيضان، وتخلت الحكومة لمدة عامين عن ضبط حركة السكان عن طريق فرض قوانين تقيد التنقل. أدى هذا التدافع إلى ظهور بلدات عشوائية فقيرة من الأكواخ على أطراف المدينة، إلا أنه أوجد أيضاً آمالاً وفرصاً جديدة للشباب السود الطموحين، وأثار تطلعات سياسية جديدة شجعتها الحرب.

كانت حكومة جنوب إفريقية بحاجة إلى دعم السود أيام الحرب، وقد جندت القوات المسلحة 120.000 إفريقي وملون كسائقين وخدم وحراس كانوا مسلحين بالرماح، بدل البنادق، ولكنهم كانوا يشعرون أنهم يشاركون في القتال ضد النازية والعنصرية. وفي منتصف الحرب بدأت الحكومة بالتراخي في تطبيق سياستها التقليدية بالعزل العرقي (التمييز العنصري) التي حصرت السود في قراهم ومدارسهم وحافلاتهم الخاصة. وفي خطاب رئيسي أدلى به رئيس الوزراء سموتس Smuts في شباط / فبراير 1942 تحدث عن الفشل الذريع الذي آلت إليه الآمال الكبيرة التي علقها البيض على العزل العرقي، إذ تحرك العالم في الاتجاه المعاكس: «لقد ذهبت العزلة وآتت التفرقة العنصرية ثماراً رديئة». ومنيت محاولة مقاومة التوجه نحو المدن بالفشل: «كما لو كان المرء يحسر ماء المحيط بمكنسة».

إلا أن هجرة الإفريقيين إلى المدن كانت تثير حفيظة الوطنيين الأفارقة، الذين شعروا بخطر المنافسة السوداء، فحملوا بشكل أكثر شراسة على ـ الخطر الأسود، وطالبوا بفصل عرقي أكثر تطرفاً أسموه ـ الأبارثيد ـ Apartheid أي «الفصل التام» لم يجرؤ سموتز على تقديم تنازلات للسود قد تدفع بالناخبين البيض إلى المعسكر الوطني. فكتب إلى أحد الأصدقاء في حزيران ـ يونيو 1943 : «ماذا يفيد هذا البلد إذا رفع الظلم عن الفريق الخاسر لتسلم المجموعة بأكملها، بما فيها هذا الفريق، إلى تجار الحطام؟». [2]

توجه مانديلا وجاستيس إلى مناجم الذهب أولاً للبحث عن عمل. وكانت المناجم، التي تشكل لب اقتصاد جوهانسبورغ، تخضع للفصل العرقي بشكل صارم، حيث حصر العمال السود، الذين يشكلون أغلبية القوة العاملة، في مجمعات وأماكن إقامة مطوقة مفصولة عن بقية المدينة.. وحافظت شركات التعدين على علاقات وثيقة مع زعماء المناطق الريفية، الذين كانوا يساعدون على تأمين اليد العاملة الرخيصة، ويؤكدون هرمية السلطة ويعززون الانقسامات داخل المناجم مما أدى إلى ترسيخ الانضباط وتعزيز التبعية. وكان الوصي قد أرسل كتاباً قبل بضعة أشهر ملتمساً توفير عمل لجاستيس ككاتب في مناجم التاج Crown Mines، وهو أحد أكبر المناجم وأقدمها. وأقنع جاستيس رئيس العمال بإعطاء مانديلا عملاً أكثر تواضعاً كشرطي منجم، مع وعد بعمل مكتبي بعد ثلاثة أشهر. [3] عمل مانديلا بعض الوقت حارساً ليلياً، يعتمر خوذة، ويحمل صفارة وهراوة ـ صورة مثالية للموظف المخلص ـ يحرس مدخل المجمع الذي علقت عليه ملاحظة تقول «السكان المحليون يعبرون من هنا» وقد عدلت إحدى هذه الملاحظات فأصبحت «السكان المحليون يعبرون كثيراً من هنا». [4] في ذلك الوقت كان عمال المناجم يتميزون من الغيظ حيال أوضاعهم وأجورهم، وقد تفجّر هذا الغضب فيما بعد في إضراب المناجم عام 1946[5] وبقي مانديلا بعيداً عن السياسة، ولكنه سيبقى دائماً فخوراً لكونه من عمال المناجم، كما قال فيما بعد للاتحاد. [6]

كان مانديلا يشعر بالأهمية في كونو Qunu إلا أن جوهانسبورغ لم توله أي أهمية. وسرعان ما وجد نفسه يواجه مشكلة لأنه تباهى بأنه هرب من البيت وخدع الوصي. فأمر هو وجاستيس بالعودة إلى البيت، وطردا من المنجم. واضطر مانديلا، الذي لم تكن لديه أي رغبة بالعودة إلى الريف، إلى البحث الحثيث عن عمل. فأرسله أحد أبناء عمه لمقابلة سمسار أراض أسود هو وولتر سيسولو Walter Sisulu، الذي كان يملك مكتباً ـ قبل أن تصبح جوهانسبورغ معزولة عرقياً تماما كما أصبحت فيما بعد ـ في بيركلي آركيد Berkeley Arcade في وسط المدينة.

كان سيسولو رجلاً قصيراً نشيطاً في الثامنة والعشرين من العمر، فاتح البشرة، أسنانه مفرقة، يضع نظارة على عينيه وقد اعتاد أن يمضغ شفته، لم يكن ذا شخصية آسرة، ولكن كانت لدية ثقة داخلية غير عادية كان يسميها «ثقة خارقة» وسيكون له الأثر السياسي الأكثر أهمية في حياة مانديلا.[7]

وكان يتّسم بمرونة غير عادية، فهو، مثل مانديلا، أتى من منطقة فقيرة في الترانسكي ـ هي مقاطعة إنغكوبو Engcobo ـ لكنه لم يكن في موقع مانديلا. فقد كان والده قاضياً أبيض اسمه فيكتور ديكينسون Victor Dickinson، أحب والدته في إنغكوبو، ولكنه تركها مع طفلين.[8] كانت والدة ووالتر تتحدث باحترام عن أبيه ولكن وولتر كان يدرك أن أباه لم يقم بواجبه تجاه أسرته.[9] قامت والدة وولتر وخاله رئيس العمال بتربيته على خشيه الله واحترام البيض. كان يحب قراءة الإنجيل ويتعاطف مع المضطهدين مثل داود وموسى، إلا أنه تمرد على تحفظ أساتذته المبشرين وأسرته، التي حذرته بالقول مرة: «لا أظن أنه سيسمح لك بالعمل لدى الرجل الأبيض».

ترك سيسولو المدرسة في سن السادسة عشرة وأصبح راعي بقر ثم جرب حظه في جوهانسبورغ. حيث اشتغل أربعة أشهر ينقب الصخر على عمق ميل تحت الأرض في أحد مناجم الذهب، ويستشيط غضباً لوحشية النظام. وبعد أن

اشتغل في مطبخ في شرق لندن عاد إلى جوهانسبورغ وقد تحول اهتمامه إلى نقابات العمال. وعاش مع أمه، التي أصبحت تعمل غسّالة لدى ربّات البيوت البيض، وطرد من عدة معامل لسلاطة لسانه وعصيانه الأوامر. واستجار من الإذلال بتعلم تاريخ الكزوسيين من أحد أحفاد هينتسا Hintsa الزعيم الكبير الذي ترك أثراً كبيراً لدى مانديلا أيضاً. ولكنه في الوقت نفسه وسع نظرته لتشمل وحدة إفريقية أوسع.. وبعد أن عمل سنتين في أحد المصارف أسس وكالة لبيع الأراضي مع خمسة من أصدقائه السود، وكان يأمل أن يستطيع بذلك الاستقلال عن البيض (بعد سنتين استولت شركة بيضاء على الوكالة). [10]

كان والد سيسولو الأبيض فيكتور ديكنسون قد أصبح قاضياً في المحكمة العليا في جوهانسبورغ. وكان سيسولو يراه أحياناً هناك دون أن يلحظه. كما أنه كان رئيس جمعية إعمار، وعندما بدأت وكالة سيسولو تواجه صعوبات ذهب إليه طالباً العون. لم يكشف سيسولو صلة القرابة بينهما فقد أراد أن يعطي والده فرصة «ليتذكر أن له ابناً مثل هذا»، إلا أنه لم يبد ما ينم عن معرفته به. وتذكر سيسولو أنه كان مهذباً وحنوناً، ولكنه لم يعرض عليه أي مساعدة مادية[11] كانت مقابلة مؤثرة. ما يزال سيسولو متحفظاً عليها. هل عرف ديكينسون أن ابنه سيكون واحداً من كبار قادة جنوب إفريقيا؟

أعجب مانديلا كثيراً بإتقان سيسولو عادات أهل المدينة، كما أعجب برطانته الإنكليزية، وقال لا شك أنه جامعي. كما أعجب سيسولو بالروح القيادية لمانديلا، ولقد قال فيما بعد: «عندما دخل مكتبي شعرت أنه رجل لديه إمكانيات كبيرة، وأنه لا شك سيكون له دور مهم». [12]

وكانت تلك بداية شراكة ستكون بالغة الأهمية بالنسبة لمستقبل مانديلا السياسي.

رأى مانديلا في سيسولو تفوقاً ثقافياً، كان معلماً له عقل تحليلي. لن يكون منافساً له أبداً. فهو سيكون صانع الملك ولكنه لن يكون ملكاً أبداً، كان

المدرب وليس الملاكم. وقد وفّر لمانديلا وبمحض الصدفة السعيدة أول دعامة حاسمة في عجلة حياة المدينة التي عاشها مانديلا. وقد كتب مانديلا فيما بعد «كان أصعب وقت في حياتي».[13]

كان طموح مانديلا الحقيقي هو أن يكون محامياً، فاصطحبه سيسولو لمقابلة لازار سايدلسكي Lazar Sidelsky من مؤسسة وتيكين، سايدلسكي وايدلمان Witkin, Sidelsky & Eidelman التي كان لها عملاء سود إضافة إلى العملاء البيض. كان سايدلسكي محامياً يهودياً شاباً نشيطاً لا يقرأ السياسة ولكنه يؤمن بمعاملة السود معاملة لائقة، وكان يتهم مؤسسات قانونية كبيرة بأنها«تمتص دماء زبائنها من السود». كان يظهر الاحترام لسيسولو الذي كان يأتيه بالإفريقيين الذين يريدون رهن عقاراتهم، ويذكر أنه كان «شخصاً ماكراً، مفسداً قليلاً ولكنه ذكي».

وافق سايدلسكي على توظيف مانديلا كاتباً بعقد، دون أن يكلف ضريبة، وسرعان ما لمس إمكانياته: «كان مانديلا حي الضمير، لا يعرف المخادعة، مرتباً بشخصه وعقله «فاهتم سايدلسكي بالشاب واقرضه 50 جنيهاً ـ وذلك مبلغ كبير ـ وأعطاه بزة قديمة، سيرتديها خمس سنوات». وحث مانديلا على الابتعاد عن السياسة، وقال له: «تستطيع أن تخدم شعبك بشكل أفضل إذا استطعت أن تثبت أن هناك محامياً واحداً أسود شريفاً وناجحاً».

لم ينس مانديلا يوماً أن سايدلسكي كان، كما كتب عنه، «أول رجل أبيض عاملني معاملة البشر، وهو الذي دربني كي أخدم بلدي». وبعد بضع سنوات عندما عرف مانديلا الغنى لفترة وجيزة وكان يقود سيارة ألودزموبيل Oldsmobile رأى سايدلسكي، الذي ساءت أحواله، ينتظر على موقف الباص، فأوصله إلى بيته. احتار سايدلساي في أمر مانديلا الذي رفض أن يتجاوز عتبة المطبخ. وفي اليوم التالي أرسل مانديلا إليه حوالة مصرفية تسدد الـ 50 جنيهاً. وبعد أربعين سنة زار سايدلسكي وابنته مانديلا في السجن، وذكره، مازحاً،

بنصيحته بالابتعاد عن السياسة قائلاً: «لم تأخذ بنصيحتي، انظر أين انتهى بك الأمر». [14]

لكن السياسة كانت تحدق بمانديلا من كل جانب. كان يشترك في مكتب واحد مع محام أبيض اسمه نات بريغمان Nat Bregman، وهو أحد أبناء عم سايدلسكي، قال عنه فيما بعد «إنه شيوعي جذل خَليّ من الهموم». وبريغمان، الذي كان يعمل جزيئاً كممثل كوميدي، استمتع بصحبة مانديلا، الذي اعتبره متحفظاً حسن الفهم والتقدير. [15]

فاصطحب مانديلا إلى محاضرات شيوعية وأحزاب متعددة الأعراق حيث اجتمع بأشخاص بيض يساريين ودودين، منهم الكاتب الشيوعي الشاب مايكل هارميل Michael Harmel. ذهل مانديلا بما يتمتع به هارميل من ذكاء وبساطة في العيش ـ فقد كان يرفض أن يرتدي ربطة عنق ـ وأصبح فيما بعد صديقاً حميماً.

في مكتب المحاماة حذر سايدلسكي مانديلا من شيوعي أسود هو غور راديبي Gaur Radebe، كان يعمل في الشركة، وهو رجل قوي البنية ألمعي، أكبر من مانديلا بعشرة أعوام، يتقن خمس لغات، وكان يساعد في تأسيس نقابة جديدة لعمال المناجم الإفريقيين. [16]

لم يخف آراءه المناهضة في المكتب، وقد قال أحد الزملاء لمانديلا: «ابتعد عن غور، سيسمم عقلك. فهو يجلس كل يوم في ذلك المكتب يخطط لثورة عالمية» لكن راديبي صادق مانديلا، وقال لرئيسه الأبيض إنه زعيم حق: «لقد تجشمتم عناء القدوم من أوروبا لتأخذوا أرضنا وتستبعدوننا، انظر إلى نفسك تجلس كالسيد فيما زعيمي يدور حولك منفذاً أوامرك. سيأتي يوم نمسك بكم جميعاً ونلقي بكم في البحر» كانت البرودة والثقة التي يناقش راديبي البيض بها تبهر مانديلا. [17]

حثه راديبي على الانضمام إلى الشيوعيين، إلا أن مانديلا كان يعمل كثيراً

في المساء استعداداً لامتحاناته في الحقوق، وبعد عشرين عاماً كان الرجلان قد تبادلا مواقعهما تقريباً حيث انضم راديبي، بعد أن فصل من الحزب الشيوعي في عام 1942 لنشاطه في ترتيب القروض، وانضم إلى المؤتمر الإفريقي العام المناوئ للشيوعية، فيما كان مانديلا يدافع عن الشيوعيين ضمن المؤتمر الوطني الإفريقي.[18]

كان مانديلا يعيش إذ ذاك في أحد أحياء الفقراء السود في منزل يشاركه إياه قس هو الأب مابوتو Reverend Mabutho، في المنزل رقم 46 في الشارع الثامن في الكساندرا، وهي ناحية فوضوية تبعد ستة أميال شمالي المدينة، لا تصلها الكهرباء، ويسمونها: المدينة المظلمة، كانت الكساندرا خليطاً غير منتظم من بيوت القرميد والأكواخ المؤقتة التي تغص بسيل عارم من عمال زمن الحرب القادمين من الريف. كان مكاناً غير صحي يعلو فيه الضجيج وتكثر فيه الكلاب الجائعة في تناقص كامل مع القصور البيضاء المنعزلة وراء أسوارها. ولكن ألكساندر كان لها حيوية القرية وإحساس بالجماعة لا تعرفه تلك القصور، «كانت مرجلاً تتقد فيه آمال السود ومواهبهم. ومرآة تعكس إحباطاتهم»، كما كتب الناشط السياسي مايكل دينغاكي Michael Dingake.[19] خلطت ألكساندر الكزوسيين والزولو والسوثوثيين Sothos في معمعة الزحام من أجل البقاء في حياة المدينة، ودهش مانديلا إذ وجد نفسه يلاحق فتاة سوازية Swazi. أصبح أكثر اهتماماً بالقبائل الأخرى، وسمع عن أمجاد الزولو الغابرة من أحد أصحاب الأملاك واسمه جون منغوما Jone Mngoma، الذي روى له حكايات طويلة عن بطولة شاكا Shaka ملك الزولو وسرد أحداثاً لم ترد أبداً في كتب تاريخ البيض.[20]

في ألكساندر كان مانديلا من الأشخاص الأكثر فقراً، كان يضطر أحياناً إلى السير اثني عشر ميلاً في اليوم ليوفر أجرة الباص من وإلى المكتب في مركز المدينة. ويذكر كم كان يشعر بالذل عندما تلاحظ الفتيات ثيابه المهلهلة، وكان

ينظر بحسد إلى الشبان الأمريكيين الأكثر تألقاً، وهم يجذبون النساء بما يرتدونه من بزات صارخة وقبعات عريضة وساعات لماعة، غالباً ما تكون مسروقة. لكنه بقي على أسلوبه الإنكليزي الرصين.[21] وساعده أصدقاء يعيشون في المنزل نفسه. وشعر فيما بعد بالذنب لأنه «لم يفكر يوماً أن يرد جميلهم».[22]

وسرعان ما وجد طريقه كإفريقي ريفي، قادر على إعالة نفسه، ولم يعد بحاجة إلى دعم الوصي الذي كان منه في مقام الأب الذي أصبح الآن ضعيفاً جداً. وقد زاره الوصي في أواخر عام 1941 ولم يعاتبه لعصيانه السابق. وبعد ستة أشهر، عندما مات الرجل الكبير ذهب مانديلا ليحضر جنازته في ترانسكي، وندم لأنه لم يكن أكثر امتناناً للطف الذي أغدقه عليه الوصي في السابق. كما تمنى لو أنه انتهز الفرصة ليسأله عن سر تفوق البيض وعن حركة التحرر[23] إلا أنه الآن كان قد تجاوز مرحلة الكزوسية البحتة، لكنه مازال ممزقاً بين التزاماته القبلية والفرص التي تلوِّح له بها المدينة الكبيرة.

أكمل مانديلا دراسته الجامعية بالمراسلة، لكنه سرعان ما أدرك أنها ليست مفتاح النجاح: «لم يكن لأي شيء تعلمته في الجامعة أي علاقة ببيئتي الجديدة» وعاد إلى فورت هير ليتسلم شهادته. كان يرتدي بزة جديدة اشتراها بقرض من سيسولو. وحثه ابن أخته قيصر ماتانزيما Kaiser Matanzima، الذي كان يسعى إذ ذاك ليصبح زعيماً، على العودة على ترانسكي كمحام، لكن مانديلا كان يزداد اهتماماً بالساحة الوطنية.

وسرعان ما غادر ألكساندرا. ولتوفير المال عاش فترة قصيرة في مجمع وينيلا Wenela للتعدين (Witwatersrad Native Labour Association) الذي كان يقدم مساكن خاصة لزعماء القبائل الزائرين. وهناك اجتمع بكبار رجال القبائل، ومن ضمنهم وصي ملكة باسوتولاند Queen Regent of Baustoland ثم انتقل إلى أورلاندو Orlando (وهي الآن جزء من سويتو Soweto، وهي ضاحية مستقلة خططت في عام 1930 لتكون قرية نموذجية من أجل «الطبقة

الأفضل من السكان المحليين» كانت أورلاند تمتد على أرض زراعية تظللها أبراج عملاقة لمحطة طاقة. وهي عبارة عن مجموعة أزقّة ضيّقة تضم منازل من غرفتين بلا أرضيات ولا سقوف تصل بينها ممرات ترابية وعرة كانت أكثر نظافة ولكن أقل ألفة من ألكساندر: كان مانديلا يحب أن يقول إنه لم يكن لديه منزل في ألكساندر وإنما كان له مسكن، أما في أورلاندو فكان له منزل، وليس مسكناً. لكنه أصبح قريباً من وولتر سيسولو الذي كان يعيش مع والدته في بيت يضج بالسياسة، وكان قدر أورلاندو أن تحدد مسار جنوب إفريقية السوداء كلها.

كان على مانديلا أن يتابع دراسته ليحصل على إجازة في الحقوق هذه المرة. وفي أوائل عام 1934 انتسب إلى جامعة ويتووترسراند Witwatersrand التي كانت ترتفع بأعمدتها المهيبة على هضبة إلى الشمال من جوهانسبورغ. كانت جامعه ويتز Wits، خلاف جامعات الأفريكان، تسمح لقلة من الطلاب السود بالدارسة فيها إلى جانب البيض، بالرغم من أنه لم يكن يسمح لهم باستخدام باحات الرياضة، والتنس وحوض السباحة. كان بعض المحاضرين البيض يشجبون بشدة وجود الطلاب السود، ومنهم البروفيسور هاهلو Hahlo المحامي اليهودي الألماني الذي كان يعتبر الحقوق ـ القانون ـ من العلوم الاجتماعية لا يملك السود ولا النساء الإمكانية الذهنية والخبرة التي تمكنهم من دراستها.[24] إلا أن محاضرين آخرين في القانون مثل جوليوس ليوين Julius Lewin وريكس ويلش Rex Welsh، كانوا ليبراليين كرماء، كما أن عدداً كبيراً من الطلاب البيض عادوا من الحرب يحملون الكراهية للتفرقة العنصرية. وكان بينهم العديد من الشيوعيين، ومنهم جو سلوفو Joe Slovo وزوجه روث فيرست Ruth First، وطوني أودود Tony O'Dowd وهارولد وولبي Harold Wolpe. تذكر روث فيرست، التي أصبحت فيما بعد صديقة حميمة وزميلة لمانديلا، إن مانديلا كان «وسيماً، فخوراً بنفسه، يتمتع بعزة نفس وحساسية زائدة، حتى أنه

كان متكبراً، إلا أنه تعرض طبعاً لجميع الإهانات».[25] أما الانطباع الذي خلفه لدى جوسلوفو فكان أنه «رجل أسود على قدر كبير من الكبرياء وضبط النفس، ولديه إحساس واضح بأنه أسود وحساس جداً لفكرة أنك عندما تعمل مع رجل أبيض، فإنه هو المسيطر».[26]

أما إسماعيل مير Ismail Meer الذي كان صديق روث المقرب، فقد رأى أن مانديلا «قليل الثقة بنفسه»، وبعيد عن أجواء الطلاب السياسية «كان الطالب الأفضل هنداماً، ولم يكن ليبدي أي استعداد للمشاركة في النشاطات السياسية في الحرم الجامعي. فقد كان بالغ الحذر».[27] أما ناثان لوتشوف Nathan Lochoff فقد قال في مانديلا إن له جواً من الكرامة المحببة، وهو خجول قليلاً، وليس ميالاً إلى الحسم أبداً».

وقدّر لمانديلا أن يمضي ستة أعوام في ويتز، من 1943 إلى 1949 دون تميز كبير. كانت له ذاكرة ممتازة، ولكنه كان مضطراً لحشر دراسته بين عمله ككاتب متعاقد والتزاماته السياسية. كان البروفيسور هاهلو بالغ القسوة أحياناً «هل تسمي هذه مقالة؟» «ألا تعرف ما أتوسمه فيك؟» قال مانديلا لأحد أصدقائه البيض وهو جولس براودي Jules Browde «إنه يتمنّى أن يضطر هاهلو في أحد الأيام إلى الكتابة على ضوء زيت البارافين في سوويتو Soweto».[28] وعندما رسب في آخر الفصل الدراسي طلب من البروفيسور هاهلو السماح له بإعادة الامتحان في بعض الأوراق، قائلاً إنه كان في معظم الأيام يصل إلى بيته في أورلاندو بعد الثامنة مساء مرهقاً وجائعاً بشكل لا يسمح له بالتركيز على دراسته.. «ولو أني قمت بعملي في ظروف أفضل، لحصلت على نتائج أفضل».[29] لكن هاهلو، المتمسك بالأنظمة بصرامة، رفض طلبه، واضطر مانديلا إلى مغادرة ويتز دون الحصول على شهادة البكالوريوس في القانون. وبالرغم من مسوغاته إلا أنه كان يشعر بالفشل.[30]

عانى مانديلا كثيراً من الإذلال في ويتز. فقد جلس مرة إلى طاولة في مكتبة الحقوق، وإذا بأحد الطلاب البيض يتركها.. كما ذهب مرة إلى مقهى مع بعض الطلاب البيض فأبقوهم خارجاً لأن بينهم شخص كِفيري (ممن يتحدثون بلغة البانتو في جنوب إفريقية ـ المورد). احتج واحد منهم، وهو جوليوس وولفسون Julius Wulfsohn إلا أن مانديلا وضع يده على كتفه وقال ببساطة. «هوِّن عليك»[31] وعندما ركب حافلة كهربائية مخصَّصة للبيض فقط مع اثنين من الهنود قال مفتش الحافلة عنه إنه رفيقهم الكفيري، وقاضاهم أمام المحكمة.[32] لكن مانديلا لم يحمل ضغينة. وبعد خمسين عاماً، عندما أصبح رئيساً للجمهورية، دعا جميع الطلاب الذين كانوا عام 1946 إلى اجتماع في ويتز. وقال لهم «أنا ما أنا عليه الآن بفضل الأشخاص الذين احترموني وساعدوني، وكذلك بفضل أولئك الذين لم يحترموني وأساءوا معاملتي».[33]

في أورلاندو كان مانديلا يعتبر إنساناً لاهياً، وزير نساء. وقال فيما بعد «لا يد لي في أن النساء يلحظن وجودي، وما كنت لأحتج أو أرفض».[34] كان يمضي معظم وقته مع وولتر سيسولو ووالدته (ما Ma) في بيتهما الصغير في أورلاندو. وفي عام 1944 تزوج وولتر من ألبرتينا ثيثيوي AlbertinaThethiwe وهي ممرضة شابة من ترانسكي تلقت تعليماً كاثوليكياً. إلا أنها سرعان ما أصبحت دعامة المسكن، كما كان سيسولو يصفها. كانت قوية بما يكفي ليجعلها أماً وسياسية. وفي الوقت نفسه توفر لزوجها أرضاً صلبة.[35] أضمرت ألبرتينا نوعاً من الحماية تجاه الشاب القروي الوسيم. فقالت عنه إنه «كان واضحاً من شكل هندامه أنه من الريف» وخشيت أن تفلح العصابات الإجرامية spoilers في ألكساندرا في تجنيده واستغلال عدوانيته.[36]

لكن سرعان ما بدأ مانديلا يستقر، ففي دفء جو بيت سيسولو التقى بإفيلين ميز Evelyn Mase، ابنة عم وولتر، التي تصغر مانديلا بأربع سنوات، وكانت قد وصلت مؤخراً من ترانسكي، لتعمل في التمريض ـ وهي المهنة

الأكثر احتراماً بالنسبة للنساء الإفريقيات ـ وكانت تعمل في المستشفى العام في جوهانسبورغ مع ألبرتينا.

ووصفها جارهم أزكيا مفاهليلي Eskia Mphahlele فيما بعد بأنها فتاة متواضعة، ذات عينين ناعستين وابتسامة لطيفة خجول.[37] سرعان ما مال مانديلا لإيفلين وبعد بضعة أشهر عرض عليها الزواج. وتزوجا ببساطة في عام 1944 في محكمة المفوض الأهلي. دون أن تقرع أجراس الكنيسة أو يقام حفل زواج.

عاشا في البداية في غرفة واحدة في بيت صغير في أورلاندو لشقيق أيفلين سام ميز Sam Mase، ثم انتقلا فيما بعد إلى بيت زوج أختها مغودلوا Mgudlwa الذي كان يعمل كاتباً في أحد المناجم.

تذكر إيفلين أن «كل من كان يعرفنا كان يقول إننا زوجان مثاليان»[38] كانت تحب الأعمال المنزلية وتقضي الوقت دائماً بين تلميع الأثاث والعناية بالحديقة والطبخ، كما كانت تعنى بمانديلا أيما عناية. قال مانديلا[39]: «كانت سيدة هادئة تحسن التصرف، وقد كرست نفسها لأسرتها ولزوجها».

كانت متدينة نشأت في بيئة أكثر تديناً من بيئته. وتذكر أنها لم تكن تراه كسياسي وإنما كطالب[40] وقد لاحظت ليبي أخت مانديلا الصغرى التي أتت لتسكن معهما أن «إيفلين لم تكن تريد أن تسمع شيئاً عن السياسة»[41] إلا أنها كانت تؤيد وتدعم زوجها الطموح. وقد كتب فيليس نتانتالا Phyllis Ntantala الذي كان صديقاً للاثنين «خلال السنوات التي قضاها مع إيفلين نما مانديلا سياسياً وتفتح وأصبح الشخصية الوطنية التي هو عليها اليوم».[42]

بعد سنة من زواجهما أنجبت إيفلين ابنهما ثيمبي Thembi. وانتقلا بشكل مؤقت للسكن في المنزل رقم 719 شرقي أورلاندو، ومنه انتقلا إلى المنزل 8115 في أورلاندو، وهو واحد من مئات البيوت المتماثلة المؤلفة من ثلاث غرف وتشبه علب الكبريب، وليس فيها كهرباء ولا مرحاض داخل المنزل. كان

الزوار كثراً من ضمنهم ماتانزيما Matanzima ابن أخو نلسون. كانوا يأتون للإقامة في البيت الصغير، وغالباً ما كانوا ينامون على الأرض. في السنة التالية أنجبت إيفلين ابنة هي ماكازيوي Makaziwe التي ماتت بعد تسعة أشهر.

كانت إيفلين غالباً تلقى المساعدة من والدة نيلسون، التي أتت من ترانسكي. وتعايشت المرأتان بشكل جيد. كما كان مانديلا يساعد في التسوق وحمام الطفلين، حتى أنه أحياناً كان يتولى مهمة الطبخ. تذكر أديلايد Adelaide زوجة أوليفر تامبو Oliver Tambo أن «كثيراً من الزوجات كن يحسدن إيفلين على رجلها الذي كان ملتزماً بالعائلة ويشتري الطعام من المدينة ويحمله إلى البيت». [43] كان شخصاً منظماً جداً له عادات ثابتة، قالت إيفلين إنه كان «ينهض مع انبلاج الفجر، ويمارس رياضة الجري بضعة أميال. ثم يتناول إفطاراً خفيفاً ويمضي اليوم خارج المنزل». [44]

خلال أربع سنوات في جوهانسبورغ كان مانديلا قد ابتعد كثيراً عن الحياة الريفية الهادئة في ترانسكي. لقد استطاع العيش في الأماكن المزدحمة، واشتغل في مكتب للمحاماة، ودرس في الجامعة وتزوج. كان ما يزال يشعر شعور ابن الريف أمام الأفارقة وأبناء المدن الذين يتحدثون الإنكليزية بطلاقة إلا أنه كان يستمد الأمان من قيمه الريفية ونشأته. وكان يشعر أنه من سلالة ملكية. قال سيسولو «في كل ما كان يقوم به كان دائماً يفكر أنه سيصبح زعيماً وشخصاً مهماً من سلالة ملكية وعندما انخرط في العمل السياسي الجاد كان ذلك التصور لا يفارقه». [45]

لكن مانديلا كان ينجّر إلى خضم السياسة، مما سيعطي هدفاً وإطاراً أوسع لحياته الريفية. وقد لاقى كرجل أسود في مدينة الرجل الأبيض صعوبات وإحباطات وإذلالاً لا يليق بأرستقراطي متكبر، مما كرس لديه الإحساس بأنه رجل أسود بكل معنى الكلمة وبأنه واحد من ملايين يحملون نفس الشعور. وبدأ الآن ينظر إلى نفسه في مرآة أكثر قسوة، وسرعان ما أصبح وطنياً إفريقياً

طموحاً، يحمل عداء وغضباً لن يستطيع السيطرة عليهما لوقت طويل.

كان غور راديبي، الزميل المناضل لمانديلا في المكتب، هو أول من أدخله عالم السياسة في بلدة ألكساندرا. ففي آب (أغسطس) 1943 ساعد راديبي في تنظيم مقاطعة لاستخدام الباصات الموصلة إلى المدينة ـ وكانت تلك ثالث مقاطعة خلال ثلاث سنوات ـ وذلك بعد رفع أجرة الركوب من خمسة بنسات إلى ستة بنسات. انضم مانديلا إلى المقاطعة وإلى مسيرة شارك فيها 10.000 أسود وبقيت الباصات فارغة لمدة تسعة أيام إلى أن أعيدت أجرة الركوب إلى السعر السابق. وكان ذلك درساً مشجعاً في قوة المقاطعة[46]

كما كان ذلك أول تماس مباشر لمانديلا بالمؤتمر الوطني الإفريقي، الهيئة السياسية السوداء الرئيسية، التي كانت الآن قد بدأت تستفيق من نوم طويل. وكان المؤتمر الوطني الإفريقي قد أسس في عام 1912 من قبل محام من الزولو Zulu هو الدكتور بيكسلي كاسيمي Pixley Kaseme، كرد مباشر على إحداث اتحاد جنوب إفريقية في عام 1910، الذي ضم الأفارقة والبريطانيين في اتحاد واحد، قال سيمي في خطاب الافتتاح «ليس لنا فيه صوت في وضع القوانين ولا دور لنا في الإدارة» كان الرئيس الأول للمؤتمر الوطني الإفريقي هو الدكتور جون دوبي Dr. John Dube، وهو مثقف زولي، وكان الأمين العام هو سول بلاتجي Sol plaatje، وهو مترجم وكاتب من كيمبرلي Kimberley، فيما سلم سيمي عمل الخازن[47] Treasurer. وعندما رأى قادة المؤتمر الوطني الإفريقي نشوء أسوأ ما كانوا يخشونه من فوقية البيض نظموا وفوداً ومظاهرات واحتجاجات، إلا أنهم كانوا يخشون العمل الجماعي، أو المجابهة. كان المؤتمر الوطني الإفريقي هيئة رسمية وقورة تضم أعضاء كثيرين من أسر ملكية، ممثلة في مجلس الزعماء ـ وهو يشبه مجلس اللوردات ـ كان مانديلا يعتبره «حبيس أشكال إمبريالية من التنظيم».[48] وكان من السهل شراؤه بمركز حكومية غير فاعلة، وعندما حرم الإفريقيون في مقاطعة الكيب من حق الانتخاب في عام

1936. وافق قادة المؤتمر على الانضمام إلى «مجلس الممثلين الأهلي»، الذي كان يفترض فيه أن يقدم النصح ولمشورة للحكومة. على أنهم سرعان ما اكتشفوا أنه لم يكن أكثر من «هاتف لعبة»[49] كما أسماه واحد منهم وهو بول موساكا Paul Mosaka وفي أواخر الثلاثينات بدأ المؤتمر الوطني الإفريقي يدخل في سبات وفوضى تنظيمية، وطغت على أصوات الاحتجاج فيه العناصر الشيوعية والتروتسكية، وفقد مصداقيته إذ عّول على وعود من البيض كان من السهل عليهم نقضها.

في عام 1940 كان المؤتمر الوطني الإفريقي قد انتخب رئيساً أكثر نشاطاً هو ألفريد زوما Alfred Xuma، وهو طبيب صغير البنية كثير المشاغل متزوج من أمريكية سوداء، وقد كان في صباه راعي ماشية في إنغكوبو Engcobo مثله مثل سيسولو، وهو الآن يعيش في بيت مريح على تخوم صوفيا تاون Sophia twon، وهي ضاحية متعددة الأعراق قرب جوهانسبورغ. وسرعان ما أعاد الدكتور زوما الحياة إلى الجسم الخامد. «لم تكن العضوية موضع فخر، ولم يكن هناك أية سجلات، وكانت الخزينة فارغة» كما قال.[50] فقام بجولة في البلاد وأنعش الفروع ومارس سيطرة شخصية على الترانسفال Transvaal واستقطب من صفوف السكان هناك كثيراً من الأعضاء الجدد. لقد جلب روحاً وحدوية جديدة إلى المؤتمر، وقضى على انقساماته القبلية وتخلى عن مجلس الزعماء[51]، ولكن ظل قوامه بشكل رئيسي من أبناء الطبقة الوسطى والعمر المتوسط، ولم يكن له أتباع كثيرون إذ لم يسمح بدخوله لغير الإفريقيين. كان زوما شديد الحرص على كرامته وكان فخوراً بأصدقائه البيض، بما فيهم المسؤولون الحكوميون. وكان يهاب ديماغوجية القادة الشباب وميلهم إلى القتال خاصة بعد أن ثبتوا أقدامهم.

في منزل سيسولو في أورلاندو عام 1943 التقى مانديلا لأول مرة بالزولي الشاب المتحمس أنطون لمبيدي Anton Lembede الذي كان في التاسعة

والعشرين إذ ذاك، وقد تخلى لتوه عن مهنة التدريس ليعمل في مكتب محاماة للدكتور سيمي، الذي أسهم في تأسيس المؤتمر الوطني الإفريقي. وكان لمبيدي ابن العامل الزراعي كاثوليكياً متديناً، أثار التردي الأخلاقي المتفشّي في البلدات الإفريقية ذعره، فصمم على أن يعبئوا أنفسهم دون الاعتماد على البيض أو الهنود. واعتقد أن البريطانيين كانوا يعملون عملاً منظماً بهدف تثبيط ومحو جميع الاتجاهات الوطنية بين أتباعهم الغرباء، وأنهم كانوا يختارون من النخبة الشابة السوداء أعضاء يجعلون منهم أدوات في أيديهم. وتلك تهمة شعر مانديلا بأنها قد تطاله.[52]

كان للمبيدي لمسة شعبية قوية، قال: «زوج من الأحذية يساوي جميع أعمال شكسبير»[53]، إلا أنه كان مثقفاً أيضاً، متعمقاً بالأدب الإنكليزي (بما فيه شكسبير). ويثير حماسته قادة أمريكيون سود أمثال ماركوس غارفي Marcus Garvey ودبليو إي بي دوبوا W. E. B. du Bois. قال لمبيدي «إن روحي تتوق إلى مجد إفريقية الضائع. ولكنني سأعمل جاهداً من أجل ولادة إفريقية جديدة، حرة عظيمة بين بلدان العالم».[54]

أدرك مانديلا أن لمبيدي لم يكن علمياً، وكان مطنباً، وفي بعض الأحيان يشت عن الموضوع الأصلي، لكنه كان معجباً بحماسته في الخطابة ورؤيته التي أعادت إلى الأذهان الأبطال الكزوسيين القدامى.[55]

أصبح لمبيدي قائداً لجماعة صغيرة من الشباب السود، من ضمنهم سيسولو ومانديلا، أرادت أن تشكل رابطة شباب داخل المؤتمر الوطني الإفريقي . كان هدفهم هو الضغط على المنظمة باتجاه عمل جماعي من النوع الذي لاقى نجاحاً كبيراً في ألكساندرا لدى مقاطعة الحافلات. وفي الوقت الذي كانوا فيه يدعمون المؤتمر الوطني الإفريقي فقد كانوا يشجبون تخبط زوما. كما شعروا بتحدي الحزب الديموقراطي الإفريقي الجديد . بقيادة بول موزاكا Paul Mosaka الذي انشق عن المؤتمر وأصبح بإمكانه (كما أراد) أن «يصول ويجول

في البلاد». [56] وشجعتهم المثالية الأنغلو ـ أمريكية التي تجلت في الحرب ضد هتلر، وخاصة الراديكالية التي أظهرها ميثاق الأطلسي Atlantic charter، الذي وقعه تشرشل وروزافلت في آب (أغسطس) 1941. هذا الميثاق ألزم الموقعين «باحترام حقوق جميع الأفراد في اختيار شكل الحكومة التي سيعيشون في ظلها». وسرعان ما بدأ تشرشل بعد ذلك بالتراجع عن المضامين المعادية للاستعمار في الميثاق، وقال لليو آميري Leo Amery وزير الدولة الهندي إنه لم يكن يعني بكلمة «الشعوب» أن تتضمن أهالي نيجيرية وإفريقية الشرقية، هذا إن لم نذكر العرب الذين قد يطردون اليهود من فلسطين. [57] إلا أن مانديلا وأصدقاءه أخذوا الميثاق بمعناه الظاهري وأعجبوا بتشرشل من أجل ذلك، فيما بدا أن سموتز Smuts يدعم تطبيقه في إفريقية، خاصة بعد الانتصارات اليابانية في الباسيفيكي في أواخر عام 1941، عندما خشي أن تغزو اليابان إفريقية بدعم من السود. (كان هناك ما يبرر خوف سموتز وهو أن وولتر سيسولو ـ مثل آخرين سواه ـ كان يعجب باليابانيين لكونهم شعباً ملوناً ناجحاً، وصرح بسعادته عندما هدد اليابانيون جنوب إفريقية). [58] شكّل المؤتمر الوطني الإفريقي لجنة برئاسة البروفيسور زد. كي. ماثيوز Z. K. Matthews لتفسير ميثاق الأطلسي. فقدمت اللجنة وثيقة سميت «مطالب الإفريقيين باختيار حكومتهم. وقالت الوثيقة إن الامتحان الحاسم للميثاق هو في تطبيقها على القارة الإفريقية». [59]

كان مانديلا وهو في الخامسة والعشرين، ملتزماً بسياسة المؤتمر الوطني الإفريقي، وفي عام 1943 انضم إلى وفد برئاسة لمبيدي من أجل طرح فكرة رابطة الشباب أمام الدكتور كزوما في مكتبة بيته في صوفياتاون. كانت مواجهة تاريخية لكنها شائكة. أعجب مانديلا بكزوما لإعادته المؤتمر الوطني الإفريقي إلى الحياة، وتأثر بأصدقائه الدوليين سثل تشيكيدي خاما Tshekedi Khama من بيتشوانالاند والملك سوبهوزا Sobhuza من سوازيلاند. [60] إلا أنه لم يحب أسلوب زوما الإنكليزي المتسم بالغرور، وهوسه بالوفود والبرقيات. كان زوما

من جهته بحاجة ماسة إلى دعم المثقفين الشباب. وكانت زيارة «أطفال الحضانة»، كما كان يسميهم، تشبع غروره. إلا أنه حذرهم من أن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يكن مستعداً لتصرف جماعي.[61] إلا أن مانديلا وسيسولو وسواهما واصلوا مساعيهم لتشكيل لجنة مؤقتة، تعمل على إعداد بيان رسمي بالأهداف في مكتب المؤتمر الداكن في روزنبرغ أركيد Rosenberg Arcade في وسط مدينة جوهانسبورغ.[62]

في نيسان (أبريل) 1944 انطلقت لجنة الشباب رسمياً في مركز بانتو الاجتماعي للرجال Bantu Men's Social Center في جوهانسبورغ، حيث كان لمبيدي رئيساً وسيسولو وتامبو ومانديلا في اللجنة التنفيذية. افتتح البيان المفعم بالحيوية والنشاط بتحديد لمبيدي الفارق بين مفاهيم البيض والسود:

«الرجل الأبيض يَعدُّ الكون آله عملاقة تنطلق بقوة عبر الزمان والمكان نحو دمارها النهائي . والأفراد ضمنها ليسوا سوى كائنات حية لها حياتها الخاصة التي تؤدي إلى موت خاص. .

أما الإفريقي فهو يَعدُّ العالم وحدة واحدة، كياناً عضوياً، يتوجه باضطراد نحو مزيد من الانسجام والوحدة، والأفراد فيه يشكلون أوجهاً مستقلة لكل واحد. .»

ومضى البيان ليرفض أي ادعاء بأن الرجل الأبيض كان يساعد في تحضير الإفريقيين، وليؤكد أن الإفريقي «يقترع الآن كي يحدد مستقبله بجهوده الخاصة» وأقر البيان المؤتمر الوطني الإفريقي، مع بعض التحفظات، ووعد بدعم لجنة الشباب الجديدة كونها «خزينة الأدمغة ومولد الطاقة للروح الوطنية الإفريقية». وجاء في نشرة إعلانية أصدرتها اللجنة المؤقتة في أيلول(سبتمر)، أن «ساعة الشباب قد دقت» واختتمت النشرة بأبيات من مسرحية يوليوس قيصر Julius Caesar.

«الخطأ. . . ليس في طالعنا

وإنما في أنفسنا، أننا تابعون»[63]

يذكر مانديلا أن هذه كانت المرة الأولى التي طرحت فيها فكرة القومية الإفريقية بشكل واضح. إلا أن الخط السياسي مازال متردداً. هل كانوا فعلاً يهدفون إلى رمي الرجل الأبيض في البحر، كما يقول الراديكاليون؟ أخيراً ساد رأي أكثر اعتدالاً، كان مانديلا من أنصاره، وهو أن للجماعات العرقية الأخرى أن تبقى في جنوب إفريقية، ولكن يجب التخلي عن فوقية البيض.[64]

منظمة سياسية أخرى حصدت أيضاً بعض الدعم من عقابيل زمن الحرب. إذ بدأ الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي، الذي التقاه مانديلا أول مرة في ويتز Wits، بدأ الآن لأول مرة يكسب شعبية بين صفوف الإفريقيين بعد عشرين سنة من الاضطراب.

تأسس الحزب في عام 1920، بقيادة مجموعة صغيرة من المهاجرين اليهود والبريطانيين المنشقين عن كنيسة بريطانية. وعمل بموجب القوانين الصارمة للكومينتيرن Comintern في موسكو. وقد أثارت جنوب إفريقية، بموارد التعدين العالية الكثافة فيها، اهتمام كثير من المنظرين الماركسيين، ومنهم لينين Lenin، لكونها سيرة امبريالية اقتصادية ورأسمالية احتكارية، لكن عند التطبيق خلط كثير من قادة الشيوعيين بين النزاعات الطبقية والعرقية. في البداية لم يظهر الشيوعيون كبير اهتمام باستقطاب قادة أو أعضاء سود. حتى أنهم في عام 1922 دعموا بشكل فعلي حزب العمل الأبيض الصرف في إضراب المنجم، تحت شعار «اتحدوا من أجل جنوب إفريقية بيضاء»، وقطع الشيوعيون علاقاتهم مع حزب العمل الأبيض عندما انضم إلى ائتلاف تهكمي مع حكومة الوطنيين الأفارقة بعد ذلك بعامين، لكنه نفر كثيراً من الأعضاء البيض في عام 1962 عندما قبل مبدأ الكومينتيرن الجديد «جمهورية سوداء».

وبحلول عقد الثلاثين كان الشيوعيون يُنَسّبون مزيداً من الأعضاء السود، كان بينهم شابان نشيطان بارعان هما جي بي ماركس J.B. Marks وموسى كوتاني Moses Kotane اللذين تلقيا تدريبهما في معهد لينين Lenin Institute

في موسكو وعادوا للمساعدة في تنظيم نقابات للسود. لم يكن للشيوعيين حظوة كبيرة لدى المؤتمر الوطني الإفريقي الذي مازال واقعاً تحت تأثير الزعماء التقليديين. وفي عام 1939 عارض الحزب الشيوعي الحرب انطلاقاً من ولائه للحلف بين هتلر وستالين. ولكن بعد أن أقدم هتلر على غزو روسيا في حزيران (يونيو) 1941 وأصبح حليفاً لبريطانية، أصبح الشيوعيون مقبولين أكثر، كما ازداد اهتمامهم بالدفاع عن حقوق السود. وبحلول عام 1945، وبمساعدة مخصصات إضافية لورق الصحف وصل توزيع الصحيفتين الجنوب إفريقيتين المتأثرتين بالشيوعية، وهما الغارديان Guardian وإنكلولوليكو Inkululeko إلى 67.000 نسخة.[65] تأثر مانديلا بأصدقاء بيض مثل نات بريغمان ومايكل هارميل، وبالتعددية العرقية للشيوعيين، الذين وضعوا السود بمحاذاة البيض على قدم المساواة. وكتب مانديلا فيما بعد أن الشيوعيين فقط هم الذين كانوا مستعدين لمعاملة الإفريقيين معاملة البشر الأنداد، وهم الذين كانوا مستعدين ليأكلوا معنا، ويتحدثوا معنا، ويعيشوا معنا ويعملوا معنا. إنهم الجماعة السياسية الوحيدة التي كانت مستعدة للعمل مع الإفريقيين لتحصيل الحقوق السياسية والموقع الاجتماعي.[66]

اعتقد الأمين العام للمؤتمر الوطني الإفريقي من 1936 إلى 1949، القس جيمس كالاتا James Calata، أن «الشيوعيين ليس لهم تأثير يستحق القلق» ورأى أن الحياة الوطنية الإفريقية مازالت مبنية على نظام الارتباط، الذي يشد العزو إلى الأسرة، والعشيرة والقبيلة «والشيوعية؛ التي هي نظام مادي بحت، لا تستطيع أن تحول قلوب الإفريقيين نحوها إلى أن يشعر ذلك الإفريقي بالذات أنها هي الطريق الوحيد للخلاص من الاضطهاد».[67]

إلا أن الوطنيين الشباب في لجنة الشباب في المؤتمر الوطني الإفريقي كانوا يناصبون الشيوعيين عداء لدوداً، إذ رأوا فيهم تأثيرات غريبة تفسد القومية الإفريقية، واعتبروهم مروجي طريقة أجنبية.[68] وقد هاجمهم لمبيدي بضراوة،

وفض اجتماعاً شيوعياً في أورلاندو بتقريع مطول ومتوعد لدرجة أن أنكلولوليكو علق قائلاً: «إن هتلر قد يخسر الحرب في أوروبا لأنه وجد تابعاً في جنوب إفريقية».[69]

وعلى الرغم من أن لمانديلا أصدقاء شيوعيين إلا أنه وتامبو شاطرا لمبيدي شكوكه، ورفع الثلاثة اقتراحاً بأن «أعضاء المنظمات السياسية، يجب أن يستقيلوا من المؤتمر الوطني الإفريقي». ورفض المؤتمر الوطني الاقتراح، إلا أن حملة لجنة الشباب ضد الشيوعيين استمرت.

كان النزاع جزءاً من تنافس أكبر بين القومية والشيوعية ضمن حركات التحرير في إفريقية وآسيا التي ستشتعل بعد الحرب العالمية الثانية. كان الوطنيون يستطيعون الاعتماد على الكبرياء التاريخي لشعوبهم ومنحها تقديراً جديداً للذات. فيما الشيوعيون، الذين يدعمهم الاتحاد السوفيتي المنتصر، كانوا قادرين على تقديم التنظيم والتمويل، والنقد الثقافي للإمبريالية. لكن جنوب إفريقية كانت ساحة معركة إيديولوجية خاصة. فقد عانى الإفريقيون من السيطرة والإذلال، مما أعطى دفعاً لوطنيتهم. لكن الأقلية البيضاء في البلاد كانت كبيرة إلى حد لا يمكن معه إعادتها إلى أوطانها، على نحو ما كان ينادي به في مناطق أخرى من إفريقية. قال غوفان مبيكي «لقد تحدثوا عن الاستقلال. ونحن تحدثنا عن الحرية، والفارق كبير».[70] كان الحزب الشيوعي في جنوب إفريقية الحزب الوحيد الذي ضم جميع الأعراق، وكان على وشك أن يصبح، متعدد الأعراق أكثر من أي حزب شيوعي آخر[71] هذان القطبان المغناطيسيان: الوطنية والشيوعية، تجاذبا مانديلا كل من جهة.

4

الأفارقة ضد الإفريقيين

1946 - 1949

سرعان ما تداعت آمال مانديلا وأصدقائه بعالم أكثر اعتدالاً بعد الحرب. ولم يكن السبب نظام الأبارثيد Apartheid بل حكومة الحزب الموحد بزعامة جان سموتز Jan Smuts، الذي كان حليف تشرشل المخلص في الحرب، والذي كان يلقى دعم رجال الأعمال في جنوب إفريقية الناطقين بالإنكليزية. في عام 1946، بعد أشهر فقط من انتصار الحلفاء النهائي على اليابان، أقدم سموتز على خطوتين دفعتا كلاً من الإفريقيين والهنود نحو مزيد من الميل للقتال، والعمل جنباً إلى جنب.

الخطوة الأولى كانت ضد إضراب قامت به نقابة عمال المناجم الإفريقيين الحديثة العهد، التي كان محركها الرئيسي ورئيسها الأول غور راديبي صديق مانديلا.. خلف راديبي في عام 1942 جي بي ماركس الشيوعي الإفريقي الصلب الذي تلقى علومه في موسكو وقاد إضراب 70.000 من عمال المناجم السود في آب (أغسطس) 1946، مطالباً بزيادة الأجور وتحسين الأوضاع والطعام. أجبرت شركات التعدين، بدعم من الحكومة، العمال على العودة إلى المناجم بالهراوات، فقتل تسعة وجرح المئات. وبعد عشرة أيام وجهت إلى خمسين من القادة تهمة التحريض على الإضراب وثبتت التهمة على العديد منهم، وعوقبوا بالسجن أو الغرامة.[1]

رأى معظم البيض في هذه الإجراءات الصارمة رداً ضرورياً على الخطر

الشيوعي، الذي عاد إلى الظهور الآن بعد هدنة زمن الحرب. فطار سموتز إلى لندن «ولم يكن قلقه غير مبرر». فيما هاجمت الراند ديلي ميل Rand Daily Mail»الخطابات الهوجاء والمطالب المضحكة «لقادة النقابة، ومنهم جي بي ماركس.[2] وجه المحافظون ضمن المؤتمر الوطني الإفريقي، وبينهم الدكتور زوما، اللوم إلى الشيوعيين لأنهم حرضوا على اختبار مبكر للقوة، لكن رابطة الشباب انتقدت كزوما لأنه لم يدع إلى إضراب عام تضامناً.[3] وبدا القمع الوحشي مبرراً لتحذير لمبيدي من أن السود لا يستطيعون أن يتوقعوا من البيض الرحمة.

أثارت شجاعة وتضامن المضربين مشاعر مانديلا، خاصة وأنه يعرف بعضهم، وقام بزيارتهم مع جي بي ماركس وقد ناقش مانديلا ماركس في الشيوعية وفوجئ بمرحه وتواضعه ورأى ماركس في مانديلا وطنياً متطرفاً إلى أبعد الحدود، لكنه اعتقد أنه سيتجاوز تلك المرحلة.[4]

سخرت إجراءات قمع إضراب المنجم بالوفود الصبورة ـ للحرس القديم ـ في المؤتمر الوطني الإفريقي الذين وضعوا ثقتهم في سموتز. وفيما كان عمال المناجم يضربون بالهراوات كان المجلس الأهلي للممثلين يناقش بهدوء مطالب السود مع الحكومة في بريتورية. وفض أعضاؤه الاجتماع احتجاجاً، لكنهم لم يقاطعوا المجلس مقاطعة حقيقة.

إلا أن سموتز أدرك أنه أثار حفيظة مثقفين معتدلين من نوعية البروفيسور ماثيوز. وفي العام التالي حاول استرضاء وفد من أعضاء المجلس برئاسة ماتثيوز.[5] تحدث سموتز بطريقته الأبوية المألوفة: «هذا الطفل الصغير الذي هو جنوب إفريقية يكبر، والملابس القديمة لم تعد تليق بالصبي الذي يكبر». وأبدى أسفه الشديد لموقفهم المستاء، وقدم لهم عظمة على شكل مجلس أكبر، كله من السود وكله منتخب، ونقابات قانونية للسود، ولكن ليس في المناجم.. كان ماثيوز ميالاً إلى الشك، وقال: إن السود قد فقدوا ثقتهم

بالمجلس. وفيما بعد قال للصحافة: إن الجبل قد تمخض فولد فأراً، وإن الجماهير الجائعة بحاجة إلى أكثر من مجرد عظمة تمضغها.[6] لكن المجلس التمثيلي الأهلي لم يحل نفسه (وسرعان ما ستحله أول حكومة وطنية).

تأثر نلسون مانديلا تأثراً لا يمحى بخطوة سموتز الحادة الثانية، ضد الهنود في جنوب إفريقية. فقد كان للهنود الـ30.000 الذين وصلوا إلى ناتال Natal في بدايات 1860 عمالاً متعاقدين أولاً، ثم تجاراً، كان لهم تاريخهم الخاص الحافل بالتمييز ـ التفرقة العنصرية ـ والاحتجاج. وكان أول من تحدث عن الاحتجاج السلمي عام 1911 هو موهانداس غاندي Mohandas Gandhi، الذي ابتكر نوعاً خاصاً من المقاومة السلبية عندما كان محامياً في جنوب إفريقية، وقاد آلاف الهنود بشكل غير قانوني من ناتال إلى ترانسفال Transvaal. حاول الإفريقيون والملونون الاحتجاج بشكل مماثل عامي 1919 و 1939، لكن باءت محاولتهم بالفشل. فالهنود، الذين أصبح بعضهم تجاراً أغنياء، عزلوا أنفسهم عن السود، أملاً بمعاملة أفضل بعد الحرب. لكن عام 1946 طرحت حكومة سموتز مشروع قانون امتلاك الأرض الآسيوية، «قانون الغيتو الهندي»، الذي حظر بيع مزيد من الأراضي للهنود، في الوقت الذي قدمت الحكومة استرضاء على شكل ممثلين بيض في (البرلمان) وهيئة استشارية.

طار صواب الهنود. وأمضوا سنتين في حملة مقاومة سلبية تذكر بمقاومة غاندي منذ خمسة وثلاثين عاماً، فاحتلوا أرضاً مخصصة للبيض. أودع ألفان من المحتجين السجن، وبينهم قائدا الحملة الدكتور مونتي نايكرر Dr. Monty Naicker والدكتور يوسف دادو Dr. yusuf Dadoo.[7]

كان مانديلا يزداد قرباً من الهنود، وأعجب بتقدمهم من إلقاء الخطابات وصياغة المقررات إلى التحرك الجماعي، على عكس القصور الذاتي للمؤتمر الوطني الإفريقي. وصعق بالتضامن والتضحية اللذين أبداهما المحتجون الذين

كانوا مزيجاً من الهنود المناهضين والمحافظين. وأعجب بكل من نايكر ودادو.[8] وفي جوهانسبورغ أصبح الآن يجتمع بكثير من الهنود، وكان يتصرف معهم بتبسّط لا تكلف فيه. وأصبحت إحدى الشقق في وسط مدينة جوهانسبورغ، في خولفاد هاوس رقم Kholvad House 13 في شارع السوق، Market street مكاناً مهماً للقاء الأجناس. فهناك التقى مانديلا بإسماعيل مير وروث فيرست ويوسف كاتشاليا وسواهم من الهنود والشيوعيين البيض، في جو مريح. كما أمضى أوقاتاً طويلة في بيت أمينة باهاد Amina Pahad (التي انضم ولداها عزيز Aziz وأيسوب Essop فيما بعد إلى حكومة مانديلا)، حيث كانوا جميعاً يأكلون الكاري والأرز بأصابعهم . مما ذكره بطفولته في قصر جونجنيتابا الكبير ف.[9] وبعد بضعة نقاشات مبكرة عمل مانديلا عملاً وثيقاً مع أحمد كاثرادا Ahmed Kathrada وهو شيوعي هندي شاب سيمضي معه خمساً وعشرين سنة في السجن.

من خلال أصدقائه الهنود أصبح مانديلا أكثر اهتماماً بالهند نفسها، التي كانت يوم ذاك على مشارف الاستقلال، كما ازداد اهتمامه بإنجازات غاندي وتلميذه جواهر لال نهرو.

يذكر مانديلا: «عندما كنا في بداية النضال لم يكن في تجارب قيادتينا، غير المدونة، ما يكفي ليدفعنا، إلا أن أشخاصاً مثل غاندي ونهرو سجلوا تجربتهم. لذلك كان لا بد لنا أن نتطلع إليهم كأنموذج، وكان تأثيرهم كبيراً جداً». كان مانديلا أكثر تأثراً بنهرو، الذي لم يكن سلامياً، أكثر مما تأثر بغاندي؛ فعندما كان أي مهراجا يحاول أن يوقفه كان نهرو يزيحه جانباً. كان من ذلك النوع من الرجال، وأحببناه لأن سلوكه أرشدنا إلى سبيل التعامل مع مضطهدينا. فيما كانت لغاندي روح من الفولاذ، إلا أنها كانت تتجلى بطريقة لطيفة وناعمة، وكان يفضل المعاناة بتواضع على رد الإساءة.[10]

علم المقاومون السلبيون الهنود في جنوب إفريقية عامي 1946 و1947

مانديلا وسواه من السياسيين الإفريقيين درساً مهماً. ولم ينضم إليهم سوى قلة من غير الهنود (من ضمنهم الراهب البريطاني الراديكالي مايكل سكوت Michael Scott)، إلا أنهم سرعان ما استقطبوا دعم المؤتمر الوطني الإفريقي . وعام 1947 انضم الدكتور كزوما رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي إلى نايكر ودادو في ما سمي «حلف الأطباء» «Doctors Pact»، الذي وعد بالتعاون بين المؤتمر الوطني الإفريقي والمجلسين الهنديين. ورسخ كزوما الائتلاف بظهوره في الجلسة الأولى للأمم المتحدة في نيويورك بصحبة ممثل الهند، هـ. آ. نايدو H. A. Naidoo، للاحتجاج على قانون الغيتو Ghetto Act، ومن هنا انطلقت حملات الأمم المتحدة ضد العنصرية . وسيرى مانديلا في هذا الحلف منطلقاً لجميع أشكال التعاون اللاحقة بين الأعراق . وتفاءل كثير من الهنود بإمكانية التعاون العرقي .[11] وقد قال قادر أسمل Kader Asmal الذي أصبح فيما بعد وزيراً لشؤون المياه في حكومة مانديلا[12]: «كان هذا الحلف هو الذي جعلني أشعر أنا وجيلي بمعنى أن تكون جنوب إفريقي» .

ولكن في ذلك الوقت كان مانديلا يعارض التعاون السياسي الوثيق مع الهنود. لقناعته بأن المجلسين المنفصلين فقط هما القادران على تعبئة الجماهير، وخشي أن يهيمن الهنود أو الحزب الشيوعي على المؤتمر الوطني الإفريقي أو يسخرانه لخدمة أهدافهما مما (يهمّش) القومية الإفريقية .[13]

كانت جذوة الهوية والمعاناة الإفريقية الخاصة مازالت متقدة داخله، وشعر أنه مستهدف شخصياً وسياسياً، من قبل الهنود الأكثر تأهيلاً وحنكة .

وانتهت المكاشفتان عام 1946 إلى هزيمة، وقضي على نقابة عمال المناجم الإفريقيين التي لن تقوم لها قائمة حتى عقد الستين. وعزل الهنود بشكل متزايد في أحيائهم الخاصة .[14] خلفت النكسات أثراً عميقاً في نفس مانديلا وسواه من السياسيين السود الشباب . كما ضعفت الثقة بوفود الحرس القديم

والوساطة الممثلة في مجلس الممثلين الأهلي، وبدت مؤشرات ولادة قيادة أكثر شجاعة بين أوساط الهنود والشيوعيين.

قدم استقلال الهند في آب (أغسطس) 1947 مثلاً طموحاً للنضال في جنوب إفريقية، كما في بقية أرجاء القارة، إذ أظهر كيف يمكن لحركة جماهيرية منظمة وموحدة أن تهزم سلطة حاكمة وطيدة الأركان. وكان أول رئيس وزراء هندي، نهرو، يحث الهنود على التعاون مع الإفريقيين في جنوب إفريقية منذ عام 1927، وسرعان ما سيثبت أنه حليف حميم لكلا المجلسين مما جعل الهند أول بلد يفرض عقوبات ضد جنوب إفريقية[15]، وسيشعر مانديلا بالامتنان دائماً لنهرو من أجل ذلك. سيصبح نفوذ الشيوعيين الهنود هاجساً يقض مضجع حكومتي جنوب إفريقية وبريطانية، إلا أن نهرو استطاع، دون أن يكون شيوعياً، أن يقدم رسالة أوسع لمانديلا وسواه، بأن يتطلعوا وراء القومية المحلية والعرقية. وقد اقتبس مانديلا عن نهرو قوله «إن القومية جيدة في مكانها إلا أنها صديق لا يمكن الاعتماد عليه كما أنها مؤرخ غير أمين. إنها تعمينا عن كثير من الأحداث وأحياناً تشوه الحقيقة، خاصة فيما يتعلق بنا وببلدنا».[16]

في هذه الأثناء كانت رابطة الشباب في المؤتمر الوطني الإفريقي تعدل نزعتها القومية وفي تموز (يوليو) 1947 توفي مؤسسها اللامع أنطون لمبيدي فجأة عن عمر يناهز ثلاثة وثلاثين عاماً، بعد ساعات قليلة من حديث مع مانديلا.[17] ذعر مانديلا! لكن خلف لمبيدي بيتر مدا Peter Mda أثبت أنه مفكر سياسي أكثر وضوحاً ونفوذاً (على الرغم من أن مانديلا سيجده فيما بعد بالغ الحذر).[18] كان مدا متحدثاً ساحراً، مفرداته غنية، صغير الرأس ويضحك بصخب. كان ابن صانع أحذية كزوسي. تلقى تعليمه على أيدي الكاثوليك، وبما أنه عمل في مهنتي التدريس والمحاماة فقد اكتسب تدريباً ثقافياً وعملياً.[19]

أصبح مانديلا نفسه أمين سر لرابطة الشباب، مسؤولاً عن التنظيم السياسي وتأسيس الفروع.[20] وبرفقة مدا نسب مزيداً من الأعضاء خارج

ترانسفال وناتال والكيب. وحاول أن يخترق المدارس الإفريقية، فزار مدرسة سانت بيتر في جوهانسبورغ ـ حيث كان أوليفر تامبو يعلم ـ في محاولة التوجه إلى الطلاب. لكن مدير المدرسة دي أتش دارلينغ D. H. Darling (كما قال لتامبو فيما بعد) شعر أنه لا يستطيع السماح بتحويل المدرسة إلى منبر.[21] وقد أحرز مدا نجاحاً أفضل في فورت هير. حيث أقنع محاضراً شاباً في علم الإنسان هو غودفري بيتجي Godfrey Pitje بتأسيس فرع لرابطة الشباب كي «نغرقهم في تطلعنا الوطني». وليعمل مع الهيئة التنفيذية في جوهانسبورغ «التي أمينها العام إن آر دي مانديلا المحترم، بي أيه، N. R. D. Mandela طالب حقوق».[22]

انتقد زد. كي ماثيوز أستاذ بيتجي، التعقلية النظرية لرابطة الشباب، إلا أنه لم يمنعها من العمل في فورت هير. وأصبحت الجامعة أغنى وأخصب تربة لرابطة الشباب، تجتذب جيلاً جديداً من الطلاب المناهضين، الذين كان منهم روبرت سوبوكوي Robert Sobukwe، وجو ماثيوز Joe Matthews وتي تي ليتلاكا T. T. Letlaka، إلى المؤتمر الوطني الإفريقي.[23]

أصر مدا أنه ليس ضد الرجل الأبيض لكونه كذلك، وإنما هو ضد هيمنة البيض. إلا أنه حذر الإفريقيين ألا يتوقعوا أن ينحاز البيض إلى صفهم «في الوقت الذي يعطيهم حاجزّ اللون الأفقي نمط حياة مميزة»[24]، فكتب بياناً جديدا لرابطة الشباب أقل فصاحة وأكثر تحليلاً من بيان لمبيدي، أقره مانديلا. عرف البيان القومية الإفريقية بأنها «موقف مناهض لشعب مقهور يبحث عن قاعدة صلبة يشهد منها صراعاً طويلاً وحاداً لا هوادة فيه من أجل حريته الوطنية». وحذر الإفريقيين من مغبة «الاقتداء بالأوروبيين سواء كمصدر للاقتباس أو للعون في نضالهم السياسي». لكن البيان كان أكثر استرخاء حيال الهنود، قائلاً: «إنهم جماعة مضطهدة لم تأت إلى إفريقية غازية مستغِلة، وإنما مستغَلة».[25]

على الرغم من صداقاته مع الهنود إلا أن مانديلا بقي قلقاً من هيمنة

الهنود على المؤتمر الوطني الإفريقي في ترانسفال[26] ووصل التوتر ذروته بعد حملة «التصويت للجميع» التي شنت في أيار (مايو) 1948 في مجلس الشعب في جوهانسبورغ التي افتتحها مايكل سكوت مطالباً بالتصويت للجميع. كان فرع الترانسفال للمؤتمر الوطني الإفريقي منقسماً. حيث اشتكى مانديلا من أن مجلس الشعب تجاوز منظمات قائمة، فيما أصر وولتر سيسولو على أن الإفريقيين يجب أن يجدوا حلفاء أنى استطاعوا.[27] ذهب مانديلا وتامبو إلى اجتماع للكونغرس الهندي مع سيسولو، واستشاطا غضباً ـ عندما أيد أراء الهنود ـ لدرجة أنهما لم يتحدثا معه بعد اللقاء، وذهبوا كل في طريق.[28] إلا أنهما أصبحا بالتدريج أقل شكاً بأصدقاء شيوعيين أمثال جي بي ماركس وموسى كوتاني. وقال تامبو: «إذا كان موسى يمثل الحزب لا أعتقد أنني سأختلف معه».[29]

انضم مانديلا إلى الهيئة التنفيذية الوطنية الترانسفالية لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي Transvaal National Executive of the ANC، عام 1947، وأصبح مخلصاً لها أيما إخلاص. وقد تودد إليه رئيسها كونستانتين راموهانو Constantine Ramohanoe. الذي علمه كيف يبقى على اتصال مع الجذور.[30] لكن راموهانو أراد التعاون مع الهنود والشيوعيين، في خطوة عارضتها الأغلبية، بما فيهم مانديلا. وعندما تحداهم باتخاذ بيانه الخاص تحرك مانديلا، وتلاه أوليفر تامبو للإحاطة به، مما أدى إلى اجتماع عاصف ورحيل راموهانو. كان مانديلا دائماً يعتقد أن «الإخلاص لمنظمة ما يأتي قبل الإخلاص لفرد».[31] وبقي على ذلك القانون الصارم على مدى السنوات الخمسين التي تلت، كما سيتعلم المنشقون من حسابهم. ولما كان قد أخضع إرادته الخاصة للحركة، فقد كان مصمماً على أن الآخرين أيضاً يجب أن يفعلوا.

التقى مانديلا بكثير من المثقفين الذين كانوا على قدر بالغ من التحفظ حيال حزب المؤتمر الوطني الإفريقي، خاصة في كيب تاون، حيث أنشأ

التروتسكيون «حركة الوحدة» التي ضمت كثيراً من الإفريقيين الرواد والأكاديميين الملونين الذين أصروا على عدم التعاون مع العدو. وعام 1948 زار كيب تاون للمرة للأولى، وبقي هناك ثلاثة أشهر . وصعد جبل تيبل Table Mountin بالمركبة المزودة بأقراس Cable car وأرسل نظره نحو جزيرة روبين[32] Robben Island ودعي لزيارة أيه سي جوردان A. C. Jordan وهو محاضر جامعي بارز في حركة الوحدة، ألف كتاباً لقي إعجاباً كبيراً لدى أصدقائه التمبوويين Tembu (غضب أرواح الجدود)، وتأثر بذكائه. مع جوردان كان إسحق تاباتا Isaac Tabata مؤسس حركة الوحدة ومن دعاتها، الذي تحدث حديثاً لامعاً عن تاريخ جنوب إفريقية، إلا أنه انتقد مانديلا بشدة لانضمامه إلى المؤتمر الوطني الإفريقي، قائلاً: «أنا متأكد أنك فعلت ذلك لمجرد أن والدك كان من الأعضاء».[33] (والواقع أن والد مانديلا كان من أعضاء القبيلة الجماعية) شعر مانديلا بالرهبة تجاه تاباتا: «وجدت صعوبة في التكيف مع وجهات نظره.. ولم أشأ أن أستمر في الجدال مع ذلك الشخص لأنه كان بكل بساطة يبتلعني».[34] وقد صدم مانديلا لأن تاباتا بدا أكثر عداء للمؤتمر الإفريقي منه للحكومة.[35] وفيما بعد كتب تاباتا إليه رسالة مطولة حذره فيها من متواطئي المؤتمر الوطني الإفريقي وحثه على بناء تصرفاته على مبادئ، وعلى «السباحة عكس التيار».[36]

لكن مانديلا ظن أن إصرار التروتسكيين على عدم التعاون لم يكن أكثر من عذر يتذرعون به لعدم قيامهم بأي شيء.. وجعلته كيب تاون أكثر اقتناعاً من أي وقت مضى بأن المؤتمر الوطني الإفريقي هو القادر على تعبئة شعبه من أجل التحرك الجماهيري المؤثر.[37]

ومهما بلغ تحرره من وهم حكومة سموتز فإن مانديلا ـ مثل كثير من أصدقائه ـ مازال يعلق بعض الأمل على ليبرالية الائتلاف الأطلسي بعد الحرب، وعلى الأمم المتحدة والحكومة العمالية في بريطانية. وفي نيسان(أبريل) 1947

قام الملك جورج السادس مع ملكته والأميرتين الشابتين إليزابيث ومارغريت بزيارة رسمية دامت شهرين لجنوب إفريقية بهدف دعم الروابط بين البلدين. إلا أن المندوب السامي البريطاني في جنوب إفريقية، السير إيفيلين بارينغ Sir Evelyn Baring. كان محقاً بتحذيره لندن من أن الوطنيين الأفارقة سيهاجمون الزيارة، من زاوية كونها رمزاً للقيد الإمبراطوري الذي تعهدوا بأنفسهم أن يكسروه.[38]

كانت اتصالات الملك بالإفريقيين أثناء الجولة محددة جداً من قبل حكومة سموتز. ولم يسمح له بمصافحة الأيدي السوداء في الاحتفالات الرسمية، إلا أن حشوداً من المتفرجين السود حيت الزوار الملكيين[39]، ولم يستطع الدكتور كزوما، رئيس حزب المؤتمر الوطني الإفريقي، أن يقاوم إغراء السفر إلى زولولاند Zululand لرؤية الملك.[40] أثارت الاحتفالات الإفريقية حفيظة صحيفة الغارديان اليسارية في كيب تاون، فقالت في مقال افتتاحي: «إذا كانت سوية وأسلوب نضال الشعب من أجل الحرية من الممكن خفضها بهذه الأساليب الإقطاعية الاستعراضية فإن من الصعوبة البالغة استعادة الموقع الذي ضاع».[41]

أما مانديلا، بما له من جذور من الزعامة فقد اعتقد بأن الأسرة المالكة البريطانية جديرة بالاحترام كمؤسسة عريقة. ولاحظ الاحترام الذي أبداه الزعماء الكزوسيون لجورج السادس. وقد وصف أحد الشعراء الكزوسيين كيف قام الزعيم فيليل ساندیل Velile Sandile / بطعن الأرض/ أمام الملك. ويذكر مانديلا إنه في الواقع كان منبطحاً يعفر وجهه بالتراب. «ولكني لا أستطيع أن ألومه. لأني ربما كنت سأفعل الشيء ذاته».[42]

كان سموتز قد بدأ يفقد جل شعبيته بين أوساط الجنوب إفريقيين، خاصة الأفارقة منهم، قبل الانتخابات العامة في أيار(مايو) 1948 وقد حرص على عدم إثارة ذعر الناخب الأبيض بتقديمه تنازلات للسود، إلا أن الحزب الوطني

الأفريقاني بقيادة الدكتور دانييل مالان Daniel Malan الذي تمسك بمبدأ الأبارثيد الذي يعتنقه، وتحذيراته من / الخطر الأسود/ و/ التهديد الأحمر/ كان يكسب دعماً مع تزايد ظهور الإفريقيين في المدن. رأى المؤتمر الوطني الإفريقي في الانتخابات البيضاء خياراً بين شرين، فيما أدعى الدكتور كزوما أن الأبارثيد ليس أمراً جديداً وإنما هو مجرد نمو طبيعي ومنطقي للسياسة الأهلية الوحدوية.[43]

وكان الإفريقيون السود المثقفون في أورلاندو يحتقرون الأفارقة الفجين الذين كان منهم معظم أنصار مالان. إذ قال أيسمي ماتشيكيزا Esme Matshikiza صديق مانديلا «نحن لا نعرف الأفارقة إلا سائقي ترام ومفتشي تذاكر ورجال شرطة ونعتقد أنهم غير قادرين على إدارة البلد. كما أننا لا نعلم ما الذي درسه قادتهم في ألمانية النازية».[44]

فاز حزب الدكتور مالان (الحزب الوطني) في الانتخابات. بأغلبية ثمانية فقط، لكنها كانت كافية لأن تحكم البلد لأول مرة من قبل الوطنيين الأفارقة دون مزيد من دعم المعتدلين الناطقين بالإنكليزية. وأهين سموتز، وعندما توفي بعد ذلك بسنتين بجّله العالم الخارجي كرجل دولة وقائد حرب، إلا أنه شجب في بلده لتجاهله كلاً من الأفارقة والإفريقيين، وذلك تحذير لمن خلفه بأن رجل الدولة يجب ألا ينسى أن يبقى سياسياً.

سرعان ما غيرت حكومة مالان الجديدة شخصية وتطلع دولة جنوب إفريقية. وكان الأفارقة، من سلالة المستوطنين الهولنديين الكالفينيين في القرن السابع عشر، قد أبقوا على حضارة مستقلة عن الناطقين بالإنكليزية، ولم تتأثر كثيراً بالليبرالية الأوروبية التالية. وقد أدى اضطهادهم من قبل الامبرياليين البريطانيين، الذي وصل ذروته إبان حرب البوار في بداية القرن، إلى ظهور قومية قوية، لها ديانتها وأساطيرها الخاصة، وداروا استياءهم من البريطانيين. وعندما أحدث اتحاد جنوب إفريقية عام 1910 كان البريطانيون يأملون الاحتفاظ

بأغلبية تتحدث الإنكليزية، ولطفوا بالتدريج استياء الأفارقة، إلا أن أعداد الأفارقة تضاعفت فيما غذي فقرهم النسبي ـ وكونهم الضحية باستمرار ـ، نزعتهم القومية. كان الأفارقة (كما قال لهم رئيس الوزراء البريطاني هاورلد ماكميلان Harold Macmillan في عام 1960) أول الوطنيين الإفريقيين، لحاجتهم الخاصة لأن يثبتوا وجودهم ويدافعوا عن ثقافتهم. ومن هنا فإنهم لا شك مقدمون على نزاع مع الوطنيين الإفريقيين السود الذين هددوهم في فرص العمل وفي التفوق[45] وعندما تطلع مانديلا فيما بعد إلى الوراء، إلى أربعين سنة من التنافس قال: «ربما قضى التاريخ أن يدفع شعبنا هذا الثمن الفادح لأنه أورثنا قوميتين تتحكمان بتاريخ جنوب إفريقية في القرن العشرين.. لأن كلا القوميتين طالبتا بقطعة الأرض نفسها ـ وطننا المشترك، جنوب إفريقية ـ ولم يكن للنزاع بين الجهتين أن يكون إلا وحشياً».[46]

لم تخف الحكومة الأفريقانية الجديدة نيتها بالمضي في فصل العرقين وبناء دولة أفريقانية. وقال الدكتور مالان لأول مرة منذ الوحدة، تكون جنوب إفريقية لنا.

أما السير أفلين بارينغ فكانت لديه بضعة تهيؤات: كانت رسائله إلى لندن تقارن القومية الأفريقانية بالنازية، وقالت زوجه إنه اصبح يكره الوزراء الأفارقة لدرجة أنه ما كان يستطيع أن يخفي ذلك التعبير عن وجهه.[47] ولكن في البداية لم يبد معظم السياسيين والمعلقين البريطانيين قلقاً كبيراً لدى تغيير الحكومة. وقد كتبت مجلة الإيكونوميست أن «أغلبية الدكتور مالان أصغر من أن تسمح له بأن يفعل شيئاً يذكر».[48] وكانت الحكومة العمالية في لندن، الغارقة في أزماتها الاقتصادية، بحاجة إلى يورانيوم جنوب إفريقية، كما كانت حريصة على عدم إثارة حفيظة حكومة مالان فتدفعها إلى الاستيلاء على المحميات البريطانية الثلاث: سوازيلاند Swaziland وباسوتولاند Basutoland وبيتشوانالاند Bechuanaland على حدودها. رحب كثير من الإفريقيين، ومنهم أوليفر تامبو،

بفوز حزب مالان، عدو غيرغامض سيوحد السود ضده، إلا أن مانديلا كان «مصعوقاً ومذهولاً».[49]

وبعد اثني عشر سنة مازال يتحدث عن أن الضغط الأسود المتزايد قد يؤدي بالتدريج إلى إجبار الحكومات البيضاء على توسيع التصويت، مما يؤدي بالتالي إلى تصويت / اقتراع/ عام.[50] لكن ذلك التوقع بدا أقل احتمالاً الآن. ومثل جميع السياسيين السود تقريباً استهان بشكل خطير بالإصرار الأفريقاني على فرض فصل تام، وقمع المقاومة السوداء، على عكس الاتجاه السائد في أماكن أخرى من إفريقية وأمريكة. ولم يتوقع أحد تقريباً أن حكومات الحزب الوطني المتتابعة على مدى الأربعين عاماً التالية ستسن قوانين تمنع القيادة السوداء، وتسجن القادة، أو تجبرهم على المغادرة إلى المنفى.

في وجه هذا الخطر الجديد، لم يبد الإفريقيون سرعة في التوحد. وفي كانون الأول(ديسمبر) 1948 عقد المؤتمر الوطني الإفريقي اجتماعاً مع الهيئة المنافسة له وهي الميثاق الإفريقي العام، الذي يسيطر عليه التروتسكيون، ومنهم اسحق تاباتا مناوئ مانديلا. حث فيه الدكتور كزوما السود على «توحيد صوتهم» وحذر جي بي ماركس من أن «الشعب يسحق فيما نتماحك راضين حول مصاعب تقنية» وأصر بيتر مدا أن قاعدة الوحدة يجب أن تكون القومية الإفريقية. إلا أن تاباتا نادى بالوحدة بين جميع غير الأوربيين من منطلق عدم التواطؤ، الأمر الذي لن يوافق عليه المؤتمر الوطني الإفريقي.[51] لم يصل الاجتماع إلى شيء، واستمرت المناقشات في اجتماع آخر عقد بعد أربعة أشهر.

ظهرت الحاجة إلى الوحدة بشكل أكثر حدة مع الاضطرابات التي شهدتها دوربان Durban في كانون الثاني(يناير) 1949، عندما هاجم الزولو الغاضبون الهنود وتدخلت الشرطة والجيش مما أسفر عن 142 قتيلاً. وسمع مانديلا من أصدقائه الهنود أن البيض شجعوا أعمال الشغب بنقل الزولو إلى الموقع.[52]

اعتقد مانديلا أن إراقة الدماء وضعت «حلف الأطباء» على المحك، وتأثر

إذ رأى الدكتور نايكر يلعب دوراً حاسماً في الإسراع بإعادة السلام والإعراب عن حسن النية. وبعد ثلاثين سنة كتب كان عام 1949 تجربة لا تنسى بالنسبة للأشخاص الذين وقفوا حياتهم على رعاية الانسجام بين الأعراق ».[53]

أرجع الدكتور كزوما أعمال الشغب إلى سياسات التفرقة التي تتبعها الحكومة، وحذر من «قانون الغاب». وانتشر الغضب الأسود إلى منطقة جوهانسبورغ حيث أمل بعض القادة الإفريقيين والهنود أن يطالب المجلسان معاً بالهدوء. وذهب أحمد كاثرادا بصحبة صحفي هو هنري نكزومالو Henry Nxumalo إلى بيت مانديلا في أورلاندو لمحاولة إقناعه بدعم بيان مشترك. إلا أن مانديلا، الذي مازال متوجساً لتأثر المؤتمر الوطني الإفريقي بالهنود، أصر على أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يتحرك بمفرده.[54]

في منتصف عام 1949 كانت حكومة الدكتور مالان تستعد لدعم الأبارثيد بقوانين جائرة تنص على أن يصنف كل شخص عرقياً وأن تعيش الأعراق في أماكن منفصلة من المدن، وأن تمنع الزيجات بين الأعراق.

شعر مثيرو الفتنة في رابطة الشباب، ومنهم مانديلا، أنهم يستفزون للرد. ونادى رئيسهم بيتر مدا بـ/برنامج عمل/ يعتمد على تنظيم احتجاجات جماعية ضد الحكومة.

كانت رابطة الشباب تكتسب مزيداً من الدعم في المؤتمر الوطني الإفريقي عموماً، وكانت قدرتها على تحمل حذر كزوما آخذة بالنفاد، وفي تشرين الثاني (نوفمبر) 1949، قبل بضعة أسابيع من المؤتمر السنوي للمؤتمر الوطني الإفريقي، ذهب مدا مع سيسولو ومانديلا وتامبو لمقابلة كزوما في صوفياتاون. قالوا إن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يتبنى سياسة التحرك الجماعي والمقاومة السلبية مثل غاندي في الهند، أو الهنود في جنوب إفريقية قبل ثلاث سنوات. أجاب كزوما أن الوقت مازال مبكراً جداً، وأن التحرك لن يفلح في أكثر من تحريض الحكومة لتسحق المؤتمر الوطني الإفريقي. وقد

حذره أبناء رابطة الشباب أنه إذا لم يدعمهم فإنهم سيصوتون ضد توليه منصب الرئاسة في المؤتمر. فأجاب كزوما غاضباً بأنهم شباب متعجرفون، وطلب منهم المغادرة.[55]

بحث الشباب عن رئيس بديل فتوجهوا أولاً إلى البروفيسور ماثيوز، الذي عدَّهم ـ بخطابتهم الجياشة ـ سذجاً غير ناضجين، وخذلهم.[56] فقاموا بخيار أهوج إذ التفتوا إلى الدكتور جيمس موركس، وهو طبيب إفريقي محترم وغني ورث أرضاً صغيرة في أورنج فري ستيت Orange Free state في المكان الذي شهد منذ قرن ترحيب جده الأكبر الزعيم موروكا بالأفريقاني فورتريكرز Voortrekkers الذي خانه وقتها. وكان موروكا مهذباً وأنيقاً، ومثل الدكتور كزوما، كان لديه كثير من الأصدقاء والمرضى البيض. كان شجاعاً في معارضته / قوانين هيرتزوغ/ عام 1936، إلا أنه بعد ذلك انجذب نحو التروتسكيين، وأصبح رئيساً لميثاق كل إفريقية المنافس للمؤتمر الوطني الإفريقي. والآن؛ يثير الدهشة قوله لرابطة الشباب إنه يدعم برنامج عملهم الراديكالي، ووافق على الوقوف في وجه كزوما، بالرغم من أنه لم يكن عضواً في المؤتمر الوطني الإفريقي - الذي كان دائماً يسميه «المجلس الوطني الإفريقي».[57]

افتتحت رابطة الشباب في المؤتمر الوطني الإفريقي مؤتمرها الخاص يوم 15 كانون الأول (ديسمبر) 1949، قبيل المؤتمر الرئيسي لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي في بلومفونتين Bloemfontein بصلاة متواضعة:

> «أنت يا أبانا الذي في السماوات ترفعنا دائماً من أغوار البذاءة وحمأة الجهل. أنت ترفع ستار الظلمة عن هذا العرق الذي يسمى إفريقية السوداء»[58]

خرجت المجموعة المصغرة في رابطة الشباب ـ بزعامة مدا وسيسولو ومانديلا وتامبو ـ من المؤتمر / صناع ملوك/ ، بالرغم من أن مانديلا لم يستطع الحضور. كانت هناك بعض الخلافات: حيث بقى مدا وطنياً إفريقياً صلباً،

وكذلك مانديلا. أما سيسولو فكان أكثر انفتاحاً على الجماعات العرقية الأخرى، فيما بقي تامبو دبلوماسياً.[59] ولكنهم جميعاً طالبوا بالتحرك الجماعي.

طغى على أخبار المؤتمر الرئيسي لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي في صحافة جنوب إفريقية حدث أكثر إثارة وهو قيام رئيس الوزراء ميلان بافتتاح مبنى الفورتريكر الكبير خارج بريتورية، الذي يخلد معاناة الهجرة الكبرى The Great Trek، أمام جمهور من 100.000 أفريقاني. قال مالان: «لقد آن الأوان؛ إن شعاعاً من السماء ينصب على الناووس» (التابوت الحجري).

بذل الدكتور كزوما أقصى جهده لتحدي هذا الاحتفال ، بخطاب في ساحة السوق في ضاحية بلومفونتين حذر فيه من أن حركة الفورتريكر ستذكر الأجيال القادمة بالكفاح العرقي بين الأوربيين والإفريقيين. ولم تشر الصحافة البيضاء إلى الخطاب إلا قليلاً.

وفي خطابه الرئاسي أمام مؤتمر حزب المؤتمر الوطني الإفريقي حاول كزوما جمع الدعم، وأكد أن الإفريقيين متحدون ضد الأبارثيد.[60] إلا أنه رفض بحزم سياسة رابطة الشباب بمقاطعة مؤسسات الأبارثيد. لم يلق خطابه كبير استحسان، وعندها أثار ديليزا مجي Diliza Mji، وهو طالب طب شاب جريء من رابطة الشباب، التصويت على حجب الثقة. قال مجي: إن «الصدمة هزت القاعة. إذ لم يسبق في تاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي أن انتقد رئيساً».[61]

عند ذلك التفت صانعو الملوك إلى موروكا، الذي أعرب عن دعمه، فانتخبه المؤتمر رئيساً. وبقي كزوما في المكتب التنفيذي إلى أن استقال يوم 13 آذار (مارس) 1950، متذمراً من أن رابطة الشباب قد خانته. إلا أن سيسولو ومانديلا وتامبو كتبوا رداً قوياً في البانتو وورلد Bantu World: «نحن كأمة لنا في أي وقت أن نناشد أياً منا ليقود النضال».[62]

كما انتخب حزب المؤتمر الوطني الإفريقي لجنة تنفيذية وطنية أكثر

راديكالية، من ضمنها أعضاء رابطة الشباب بيتر مدا وأوليفر تامبو وغودفري بيتجي الناشط الشاب من فورت هير.

كان مانديلا نفسه قد اختير عضواً في اللجنة التنفيذية الوطنية قبل ذلك بشهرين، للمكان الذي خلفه كزوما، والأكثر أهمية هو أن الكونغرس اختار أميناً عاماً جديداً. حيث تنحى رجل الدين من الرعيل الأول جيمس كالاتا James Calatla معتبراً برنامج العمل بالغ الراديكالية، وانتخب مكانه وولتر سيسولو بتصويت واحد.[63]

كان سيسولو الشخص المناسب في الوقت المناسب. وخلاف موروكا، كان ملتزما التزاماً تاماً بالمؤتمر الوطني الإفريقي وسياسته الجدية قال: «بمجرد أن قرروا انتخابي كان شعاري / ليس لدي ما أعيش من أجله سوى السياسة، لذلك لا أستطيع أن أضع برنامج عمل لست قادراً على تطبيقه بنفسي/ وهذا تطلب مني ثقة بالمستقبل لولاها لكنت ضعفت في بعض المواقع . لكن الثقة دعمتني».

كان لمانديلا وجهة نظر أضيق من سيسولو. قال سيسولو فيما بعد: «عندما أصبحت أميناً عاماً كان واجبي هو توحيد الناس. أما نلسون ومدا فكانا ما يزالان يفكران ضمن إطار ترويج رابطة الشباب».[64] لكن مانديلا رأى أن برنامج العمل سيحول مواقف وأساليب الكونغرس.

حيث قال فيما بعد: «لم يعد المؤتمر الوطني الإفريقي الآن يعتمد على مجرد تغيير طريقة تفكير السلطات. وإنما صار بصدد ممارسة الضغط وصولاً إلى إجبار السلطات على ضمان مطالبه.[65] صار الآن في قلب حركة جديدة نحو المجابهة مع الوطنيين الأفارقة». وقالت فريدا ماتثيوز زوج البروفيسور الرصين في فورت هير «كان الآن في قلب حركة جديدة نحو المجابهة مع الوطنيين الأفارقة. صار الناس متحمسين رجالاً ونساءً، شيباً وشباناً. أخيراً سيكون هناك عمل».[66]

5

الوطنيون في مواجهة الشيوعيين

1950 ـ 1951

كانت الأحياء الإفريقية في جوهانسبورغ مفتاح العمل السياسي. كانت كالمغناطيس تجتذب جميع السود في جنوب إفريقية، فهي تمثل انفتاحهم على عالم غربي جديد من الأفلام، والجاز والسوينغ والرياضة. هنا تعرض القرويون السود، المشبعون بالإنجيل وشكسبير على أيدي أساتذة البعثات، لتأثيرات أوسع وحوافز حرضت تفجر المواهب الإبداعية في الموسيقى والكتابة والدراما. تأقلم الإفريقيون المتعلمون مع حياة المدينة باستعداد أكثر من الأفارقة الذين مازالت ثقافتهم مزروعة في الريف.

هذه النهضة الثقافية لـ «الإفريقي الجديد» تشبه نهضة حي هارليم Harlem في نيويورك في عقد العشري من القرن العشرين، التي عكست النوع نفسه من التعبير المشبوب العاطفة على الحدود الفاصلة بين الثقافتين. ولكن جوهانسبورغ كانت لديها الثقة الأوسع لأغلبية سوداء وراءها قارة بأكملها.[1]

بالنسبة للبيض القلائل الذي عبروا الخط كانت جوهانسبورغ السوداء في عقد الخمسين، بحفلاتها التي تمتد طوال الليل، وحاناتها غير المرخصة، وحلقات الجاز، كانت تقدم نقيضاً كاملاً للحياة الاجتماعية الرسمية التي تميز الضواحي الشمالية الأنيقة، حيث يقوم خدم إفريقيون يرتدون قفازات بيضاء على خدمة حفلات العشاء الكبيرة.

كان لسوويتو Soweto حيوية وأصالة متفجرة تشع من سير الكتاب السود

الشباب في ذلك الوقت مثل كان تيمبا Can Themba ونات ناكاسا Nat Nakasa وحزقيا مفهليل Eskia Mphahlele، وبلوك موديسان Bloke Modisane، وكيسي موتسيسي Casey Motsisi وبيتر براهامز Peter Abrahams أو القصص القصيرة للروائية الشابة البيضاء نادين غورديمر Nadine Gordimer.[2]

احتشد السياسيون والمثقفون مع عمال المعامل والأساتذة ورجال العصابات، كل كان يشعر أنه جزء من العالم الغربي ما بعد الحرب، الذي تعرفوا عليه بواسطة المجلات والأفلام السينمائية والإعلانات. وسحرهم استعراض مواهب أبطال الرياضة الأمريكيين السود والنجوم الشعبيين أو منظمي الحملات الانتخابية، بوحي من المثالية الدولية للأمم المتحدة الجديدة و«أسرة الإنسان». عكست أحاديث الجاز والموضة والرقص والنار السريعة في جوهانسبورغ مزيجاً من الإيقاعات والتعابير الغربية والإفريقية بأسلوبها الأصلي، وأصبحت مؤلفات موسيقية مثل كويلاكويلا بني ويستل Kwela-Kwela Penny whistle أو أغنية ويموويه Wimoweh ألحاناً مألوفة تتردد في أمريكة وبريطانية.[3]

إلا أن هذه الثقافة النابضة بالحياة والنشاط لم تلق اهتماماً يذكر بين أوساط البيض في جوهانسبورغ. كان العرقان يمتزجان في مركز المدينة كل يوم كسادة وخدم. ويفترقان كل مساء حيث يستقل البيض سياراتهم ويتجهون شمالاً، بينما يركب السود باصاتهم إلى الجنوب وراء نفايات المناجم. كان البيض لا يرون في السود سوى الخدم والعمال أو القرويين القبليين، الذين يلمون بالقراءة ويعتمدون على وصاية البيض، وبدا أن السماح لهم بترسيخ قوتهم السياسية أمر غير مسؤول، إن لم يكن خطيراً. لكن وراء حاجز اللون كانت النواحي القذرة والمزدحمة وراء مراكز المدن الجنوب إفريقية تضج بالطاقة والطموح.

وقد كتب المؤرخ الجنوب إفريقي الكبير سي دبليو دي كيويت C. W. de Kiewiet عام 1956 أن «التفاؤل الأكثر صدقاً في جنوب إفريقية هو في التجمعات المدنية المزدحمة، والزاخرة بالأمراض والجرائم. إنها تمثل قبول الرجل الأسود للحياة الجديدة لعالم الغرب، واستعداده لتحمل الترويض والتمهن القاسيين على أساليبها.[4]

كان الريفيون الإفريقيون محافظين عموماً، يسلب الغرب ألبابهم، ويتأثرون كثيراً بالكنائس المسيحية، وكلهم تفاؤل بالمستقبل. وقد كتب الكاتب الزولي الشاب لويس نكوسي Lewis Nkosi يصف ما أسماه «العقد الخرافي» في عقد الخمسين. «كان وقتاً من الأمل والاحتمالات غير المحدودة. ولم يبد من المبالغة في شيء أن تتوقع إذ ذاك أن الحكومة الوطنية سرعان ما تتداعى».[5] «كانت تلك أفضل الأوقات، وأكثرها سوءاً» كما أحب الكاتب كان ثيمبا Can Themba أن يقتبس من ديكنز Dickens.[6]

وببطء شديد أدرك السود، أنهم يحشرون في رذيلة. وأن هذا سرعان ما يصبح أكثر الأوقات سوءاً. ففي السنوات القليلة القادمة ستطبق حكومات الأبارثيد، بدعم من مقاتلين باردين غربيين Western Cold Warriors سياسات بدت مصمّمة على دفعهم باتجاه سياسات ثورية، والبحث عن أصدقاء بين الشيوعيين وفي الشرق.

كان نلسون مانديلا الأسود في جوهانسبورغ نموذجاً واستثناء في آن. فقد كان يتحرك بثقة متزايدة بين معاصريه في غرب أورلاندو، معقل السود الأكثر غنى. كان يحب عالم الموسيقى والرقص، وكان قريباً من أبطال موسيقى النواحي مثل الأخوين مانهاتان Manhattan Brotherss بيتر ريزانت Peter Rezant من فرقة الشحارير المرحة، والملحن والكاتب ماتشيكيزا Todd Matshikiza. وقد بدأ يكسب المال كمحام متمرن، وتقمص أسلوب عظماء الشأن في النواحي، يقود سيارته من طراز أولدزموبيل ويأكل في المطاعم القليلة

في المدينة التي تسمح بدخول الإفريقيين: الحوت الأزرق The Lagoon، مور ريتسيل Moretsele ثم مؤخراً الكابتن Kaptain المطعم الشرقي الذي مازال في شارع كورت .Kort street وكان يشتري حاجياته من دكان مجاور يبيع الأطعمة المعلبة . فوجئ جوماتثيوز Joe Matthews الابن الرفيع الثقافة لبروفيسور فورت هير بأن يجد أحد أبناء الريف من الترانسكي يتمتع بذلك الذوق الرفيع.[7] فقد كان مانديلا يعني بثيابه أيما عناية مثل الزعيم جونجينتابا الذي كان يكوي بنطاله وهو صغير. وقد التقى جورج بيزوس George Bizos صديق مانديلا الذي دافع عنه فيما بعد إبان محاكمته، التقاه مرة قرب نادي راند Rand Club في وسط جوهانسبورغ، يقوم بالبروفة النهائية عند الخياط العصري ألفرد كاهن Alfred Kahn (الذي كان يخيط أيضاً لزعيم المال المليونير هاري أوبنهايمر Haarry Oppenheimer) وذهل بيزوس لرؤية كاهن يثني ركبته ليأخذ مقاس ساق الرجل الأسود من الناحية الأنسية. وقد أعجب أحمد كاثرادا بسترة تحمل شعاراً إفريقياً خاصاً صنعها كاهن لمانديلا لدرجة أنه أوصى بصناعة واحدة لنفسه، لكنه ذعر لما رأى صحيفة الحساب (الفاتورة).[8]

كان مانديلا يشعر بثقة الثري المتبطل، بحضوره القوي وفتنته وابتسامته العريضة. إلا أنه بقي على كبرياء تليق بأرستقراطي أكثر مما تليق بواحد من العامة. وحتى نثاتو موتلانا Nthato Motlana، الذي أصبح طبيبه الخاص، وجد أسلوب مانديلا ملكياً، وشعر أن عليه انتقاء كلماته بحذر عندما يكون برفقته.[9] بدا مانديلا مختلفاً كل الاختلاف عن أبناء المدن الذين يتحدثون بسرعة والذين نشأوا في جوهانسبورغ وحافظ على أسلوبه الرسمي في كل من الكزوسية والإنكليزية. وكان غالباً يتناول غداءه في المركز الاجتماعي للرجال في بانتو، حيث يلتقي السود المحترمون من أبناء الطبقة الوسطى. وكان يحوي ملاعب تنس، وكرة المضرب، ويقيم الحفلات الموسيقية والرقص، والاتصالات بالأمريكيين من خلال راي فيليبس Ray Phillips الأبرشاني الذي

كان يدير مركز جان هوفمير الاجتماعي في الطابق العلويJan Hofmeyr Sou'al centre.[10]

ابتعد مانديلا عن جلسات الشراب التي شوشت كثيراً من معاصريه، ولم يغامر بدخول الحانات الرخيصة الفظة مثل /تسع وتسعون خطوة/ أو /ظهر القمر/. ولكني اجتمعت به في عام 1951 في مكان للشراب يفضله المؤتمر الوطني الإفريقي، وهو دكان للطباعة في شارع كوميشينور Commissioner street في وسط جوهانسبورغ كان آندي أندرسون Andy Anderson مالكه الملون الفالستافي Falataffian يحضر زجاجات الجعة والبراندي من وراء آلات الطباعة بعد أوقات الدوام، ويحضر دجاجاً مقلياً من مطعم صيني للوجبات الجاهزة، فيما قادة حزب المؤتمر الوطني الإفريقي يناقشون الحملات والمنشورات القادمة. وبقي مانديلا بوقاره ورزانته بالمقارنة بزملائه الأقل تحفظاً. وقال فيما بعد إنه لا يقر بالمشروب القوي.[11]

كان مانديلا صاحب بنية جسدية مرموقة، يحرص على الحفاظ عليها وكان ملاكماً من الوزن الثقيل، طوله ستة أقدام وإنشين، يقضي تسعين دقيقة أيام العطل الأسبوعية في قاعة الألعاب في أورلاندو حيث كان يتدرب منذ عام 1950. كانت تنقصه القوة والسرعة ليكون بطلاً. لكنه تخلى عن مهاراته في الملاكمة: المراوغة، والتراجع، والرقص، والدوران، ورأى في الرياضة وسيلة لتنمية القيادة والثقة. أصبح الملاكمون رمزاً لقوة السود ومنجزاتهم، في جنوب إفريقية كما في أمريكة. كان جو لويس Joe Louis بطل العالم الأمريكي في الوزن الثقيل من عام 1937 إلى عام 1949، بطل مانديلا أيام نشأته، وكان السويتيون يفخرون كثيراً بأبطالهم المحليين مثل جيري مولوي Jerry Moloi وجيك تولي JakeTuli الذي أصبح بطل الإمبراطورية البريطانية لوزن الذبابة. وسيتذكر مانديلا دائماً في الأيام القادمة المباريات الكبيرة. كان يحب أن يستعيد المباراة الأخيرة لبطل الوزن الثقيل كينغ كونغ King Kong الذي بدأ بالسخرية

بخصمه سايمون (غريب) متيمكولو Simon' Greb' Mtimkulu. انتظر غريب حتى الجولة الثالثة ثم سدد ضربة بيسراه وفوق اليمين وضربة بولو للجسم. وانتهت المباراة.[12]

كان مانديلا يرى الملاكمة ـ من زاوية السياسة ـ كسباق كان في الأصل متكافئاً وأعمى الألوان، يستطيع الإفريقيون الانتصار فيه على التمييز العنصري. كان أحياناً يتحدث عن مسيرته السياسية بتعابير الملاكمة، ففي عام 1955 شعر أنه كان في فئة الوزن الثقيل الخفيف.[13] وأسهمت استعراضية المقاتل وتفرده، بالإضافة إلى قوته الجسدية، في أسلوب مانديلا السياسي كفرد مناهض يدرك جيداً أهمية الأداء.

إلا أن السياسة هي التي أصبحت الآن لعبته الرئيسية. كانت رابطة الشباب تتفجر توقاً إلى التحرك، وكان مانديلا يفكر في كيفية تحقيق ذلك. فشرح لمجلة الرابطة «أفريكان لود ستار African lodestar» أن المنظمة يجب أن تبقى على اتصال حيوي بالسود العاديين: «لدينا أيديولوجية قوية قادرة على شد اهتمام الجماهير. وواجبنا الآن هو أن نطبق تلك الأيديولوجية بشكل كامل عليهم».[14] لكن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يكن مجهزاً بما يلائم التنظيم الجذري. وكان بطيء الاستجابة. فبعد عام من مؤتمر كانون الأول (ديسمبر) 1949، قال سيسولو من موقعه كأمين عام: «الجماهير تسير بشكل متقدم كثيراً على القيادة» وتذمر من «الإهمال العام للواجب من قبل مسؤولي المنظمة، وقلة الإيمان بالنضال ونقص أجهزة الدعاية مثل الصحافة» وأصر أنه «إذا كان للكونغرس أن يكون قوة تحرير الشعب الإفريقي في هذا البلد، فلا بد له من ترتيب آلته».[15]

مازالت مصادر حزب المؤتمر الوطني الإفريقي تعاني من نقص كبير، كما تعب الحزب، كمنظمة إفريقية صافية، من البحث عن العون لدى الأعراق الأخرى. حيث كان الكونغرس الهندي يدار بشكل أكثر كفاءة وكذلك كان الشيوعيون. لكن الوضع سرعان ما تغير عندما صممت الحكومة على جعل

الحزب الشيوعي حزباً غير قانوني، فأصدرت قانوناً عام 1950 حظر العمل الشيوعي. وحصرت «الشيوعية النموذجية» بشكل أوسع بكثير مما رسمته السياسة الماركسية. فأصبح من الناحية العملية يعني مجرد التساوي بين الأعراق.

كانت الحكومة تستغل مخاوف البيض من مؤامرة شيوعية عالمية حتى قبل أن يبدأ السناتور جوزيف ماكارثي حملة مطاردة السحرة في أمريكة. وما من شك في أن القانون نجح في كبح نشاطات بعض الأعداء الألداء للحكومة، إلا أنه سرعان ما قارب بين كثير من الشيوعيين الممنوعين وبين الناشطين الشباب في حزب المؤتمر الوطني الإفريقي، ومن ضمنهم مانديلا، ودفعهم معاً باتجاه عمل مشترك.

كان الحظر تهديداً حقيقياً لحرية التعبير، وفي آذار (مارس) 1950 تواطأ الحزب الشيوعي في جوهانسبورغ مع المؤتمر الوطني الإفريقي الترانسفالي والكونغرس الهندي من أجل تنظيم «ميثاق الدفاع عن حرية الحديث» الذي جلب 10.000 شخص إلى ساحة السوق Marker square. كما اقترحوا إضراباً ليوم واحد يوم أول أيار (مايو) احتجاجاً على منع القادة الشيوعيين. وسرعان ما أدرك سيسولو أن الخطر الذي يتهدد الشيوعيين يتهدد جميع قوى المعارضة، لكن مانديلا وكثيرين غيره من أعضاء حزب المؤتمر الوطني الإفريقي لم يثقوا بالمبادرة الشيوعية، التي سبقت الاحتجاج الذي كانوا يخططون لتنفيذه. وهاجمت جريدة الأفريكان لود ستار استغلال العمال السود من قبل منظرين أجانب، قائلة: «إن نبتة الشيوعية الدخيلة لا تستطيع أن تنمو وتزدهر على التراب الإفريقي».[16] وأمضى جو سلوفو Joe Slovo المحامي الشيوعي الشاب من ليثوانيا ساعات طويلة يناقش مع مانديلا خطة الحزب للإضراب، ورأى أن مانديلا يحاول حلَّ نزاعه الداخلي «بين التراث العاطفي الذي خلفته تجارب العنصرية المؤلمة، وبين التكتيكات الرمادية الباردة التي تقتضيها السياسة».[17]

كان مانديلا ما يزال مناهضاً حاداً للشيوعية، ولجأ هو وأعضاء آخرون في رابطة الشباب إلى تشويش الاجتماعات الشيوعية التي تعد للاحتفال بأول أيار (مايو)، بالإكثار من الأسئلة التي كانت تؤدي أحياناً إلى فض تلك الاجتماعات. في نيوكلير New clare، إحدى ضواحي جوهانسبورغ قام مانديلا بجر القائد الهندي يوسف كاشاليا Yuseuf Cachalia من فوق المنصة.[18] وقال راستي بيرنشتاين Rusty Bernstein مهندس العمارة الشيوعي الذي التقى مانديلا أول مرة هناك: «لا يمكن أن تخطئه، لأنه كان طويلاً جداً» ويتذكر أن مانديلا «بدا مشوشاً وزعيماً لمثيري الشغب.. لقد وقف بعيداً عن مجموعة الساخرين، يضايق أعضاء رابطة الشباب بمجرد حضوره الطاغي، وبالسلطة الهادئة التي بدا أنه يمارسها عليهم».[19]

يستطيع مانديلا أن يكون مثير شغب حاد. ففي إحدى الاجتماعات ألقى الشيوعي الإفريقي جي بي ماركس خطاباً منطقياً واضحاً يشرح فيه كيف يمكن الإحاطة بفوقية البيض، وقد قوطع الخطاب عدة مرات بالتصفيق. لكن مانديلا، الذي كانت لديه تعليمات من رؤسائه في رابطة الشباب بفض الاجتماع، توجه بزهو نحو ماركس وأصر على مخاطبة الجمهور قائلاً: «يوجد ثوران في هذا الكرال. ثور أسود وثور أبيض، يقول جي بي ماركس إن الثور الأبيض يجب أن يحكم الكرال. وأنا أقول إن الثور الأسود يجب أن يحكم. فماذا تقولون؟». التفت الأشخاص الذين كانوا منذ دقيقة يستحسنون ماركس وقالوا: «الثور الأسود، الثور الأسود!» واستمتع مانديلا برواية تلك القصة بعد أربعين سنة.[20]

كان احتجاج الأول من أيار (مايو) ناجحاً، بالرغم من معارضة رابطة الشباب، إذ لزم نصف العمال السود على الأقل في جوهانسبورغ منازلهم. ذلك المساء عاش مانديلا لحظة حقيقة. إذ كان يسير إلى بيته في أورلاندو بصحبة سيسولو، يرقبان مسيرة احتجاج سلمية تحت ضوء القمر، عندما لحظا وجود

بعض رجال الشرطة على مبعدة خمس مائة ياردة. بدأت الشرطة تطلق النار باتجاههم. وانطلق ضباط على صهوات الخيل داخل الحشد وأعملوا فيه هراواتهم.

لجأ مانديلا وسيسولو إلى مهاجع مخصصة للممرضات، حيث كانوا يسمعون صوت الرصاص يضرب الجدران. كانت حصيلة تلك الليلة مقتل ثمانية عشر من السود في أورلاندو وثلاث ضواح أخرى في الريف Reef.[21]

استشاط مانديلا غضباً، ويذكر فيما بعد أن «ذلك اليوم كان نقطة تحول في حياتي، إذ أدركت بالخبرة المباشرة مدى وحشية الشرطة، كما تأثرت بشكل كبير بدعم العمال الإفريقيين لنداء الأول من أيار(مايو)».[22]

بدأ مانديلا الآن يكشف عن براغماتية أساسية ستجعله معلماً في فن السياسة. فحذر في جريدة أفريكان لود ستار من أن قانون حظر الحزب الشيوعي لم يكن في الحقيقة يستهدف الحزب الشيوعي (الذي كان حزباً ليس بذي شأن كبير وليس له أتباع كثر)، وإنما كان يستهدف حزب المؤتمر الوطني الإفريقي.[23] وفي اجتماع في الكونغرس نادي بالعمل المشترك ودعمه تامبو. وسرعان ما اقترحت لجنة مشتركة «يوم حداد» بإضراب الاعتكاف في المنازل يوم 16 حزيران (يونيو)، احتجاجاً على إطلاق النار والقانون الجديد.[24] طلب سيسولو من مانديلا تجهيز مكتب صغير سريع لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي في جوهانسبورغ حيث كان القادة الإفريقيون والهنود والبيض يغدون ويروحون. صار مانديلا الآن في الأوج، شخصية مهمة في احتجاج وطني رئيسي، يعمل جنباً إلى جنب مع ناشطين من أعراق أخرى.

كان يوم الحداد هبوطاً مفاجئاً، وكانت الاستجابة ضئيلة جداً في الترانسفال، وقالت الراند ديلي ميل إن الحدث كان إخفاقاً ذريعاً بنسبة 95٪.[25] يتذكر مانديلا فيما بعد أن: «الإضراب السياسي أكثر مغامرة من الإضراب الاقتصادي»[26] وانتقد بعض الزملاء الخسارة غير الضرورية في الأرواح.

ووصف الكاتب الأسود بلوك موديسان Bloke Modisane، الذي كان وقتها في رابطة الشباب، الأهوال التي ارتكبتها الشرطة في صوفيا تاون: «كانت البنادق والمدافع الرشاشة تفرقع الموت وتبصقه على أي شيء يتحرك! أي شيء أسود».

دان موديسان الاحتجاج من زاوية كونه «مغامرة سياسة أخرى.. وإذا كان المرء لا بد ميتاً فإنه يستحق التكرم عليه بتفسير».[27] مرر قمع القانون الشيوعي في المجلس النيابي بدعم من معارضة الحزب الوحدوي الناطق بالإنكليزية. لكن الحزب الشيوعي في جنوب إفريقية لم يكن أبداً تلك المنظمة الحصينة التي صورتها الحكومة. وصوتت اللجنة المركزية في كيب تاون على حل الحزب، بمعارضة اثنين فقط.[28] وفي جوهانسبورغ، حيث كان الحزب أقوى من أي مكان آخر، اجتمع الأعضاء في منزل وسط المدينة مقابل عيادة يوسف دادو. ودهشوا لسماع موسى كوتان يعلن القرار الذي اتخذ في كيب تاون. قال جو سلوفو «صعق كثير منا».[29] وقال راستي بيرنشتاين «كنا واثقين بأن هذه ليست القصة الحقيقية»[30]، وانتظروا على مدى الأشهر التالية تعليمات سرية، لكنها لم تأت. فقاموا عل التدريج بتأليف جماعات صغيرة منفصلة، اتحدت مع بعضها بمنتهى الحذر. فالطريق بعيدة لا تطالها ذراع موسكو الطويلة ولا الكومينيترن. هل كان المنع نعمة خفية بالنسبة للشيوعيين؟

كتب مؤرخا الحزب جاك وراي سيمونز Jack and Ray Simons: «في ساعة حل الحزب امتزج النضال الطبقي بالنضال من أجل التحرر الوطني».[31] وبعد أربعين سنة قال بريان بانتينغ Brian Bunting: «كان للقانون فعل السحر في التقريب ما بين المؤتمر الوطني الإفريقي والشيوعيين. فحوله من هيئة بمثابة حفرة في زاوية إلى منظمة وطنية».[32] وما من شك في أن الشيوعيين اضطروا لإعادة النظر في مواقفهم من المؤتمر الوطني الإفريقي، الذين كانوا يميلون إلى اعتباره من البرجوازية الصغيرة غير المعنية. وقال راستي: إن رابطة الشباب

وهبت الحزب «فهماً للعرق والوطنية لم يكن لدى الشيوعيين في بلدان أخرى... الهدية الفريدة التي قدمها الحزب للنضال هي التعددية العرقية والنزعة الدولية».[33]

عام 1950 انتخب مانديلا، بما كان لديه من شكوك حيال الهنود والشيوعيين، رئيساً لرابطة الشباب خلفاً لبيتر مدا، الذي استقال إثر معاناته من متاعب قلبية وقرحات هضمية.[34] وبقي يرى في نقاشاته مع سيسولو أن يرفض الإفريقيون التعاون مع التجار وأصحاب (الدكاكين) الهنود، الذين يعتبرونهم مستغلين لهم. وعندما اجتمعت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني الإفريقي في حزيران (يونيو) 1951 قال ثانية إن الإفريقيين يجب أن يمضوا بمفردهم، وذلك نقيض الأغلبية في اللجنة إلا أنه في قرارة نفسه كان يغير آراءه. وفي حزيران (يونيو) 1951 قاد سيارة فولكسفاغن بالية إلى ناتال برفقة آخرين من رابطة الشباب هما هو ماثيوز وديليزا مجي Diliza Mji وعلى الطريق نوقش التواطؤ مع الشيوعيين المحظورين. وكم دهشا عندما اخترق مانديلا ما أسماه مواقفهما الوطنية والعاطفية وطلب منهما أن ينظرا إلى المنجزات الحقيقية لشيوعيي جنوب إفريقية، الذين شعر كثير منهم بشعور السود وضحوا بكل شيء من أجل قضيتهم. وفيما بعد قال ماثيوز: «أعتقد أن ذلك الحوار قلب التوجه الكامل داخل رابطة الشباب نحو الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي».[35]

انجذب مانديلا نحو الشيوعيين لالتزامهم الشخصي وتخطيطهم العملي أكثر من انجذابه نحو أيديولوجيتهم وقال لي فيما بعد: «عندما كنت أجتمع بشيوعيين مثل إسماعيل مير وجي ان سينغ J. N. Singh في الجامعة لم يكونوا أبداً ليتحدثوا عن الأفكار وإنما عن البرامج السياسية. أنت ترتبط بالناس كما هم يرتبطون بك. لقد تأثرت بأن رجلاً مثل دادو، طبيب من أدنبرة، كان يعيش حياة بسيطة، ويرتدي قميصاً كاكياً، وحذاء ضخماً ومعطفاً من معاطف الجيش».[36]

إلا أن مانديلا كان قديراً، يفكر بشكل جدي بالنظرية السياسية، فهو لم

يكن يعتبر نفسه مثقفاً مثل تامبو، أو حتى سيسولو، ولكنه كان يقرأ بنهم وبتركيز أدهش أصدقاءه، فيؤشر على مقاطع، ويدون ملاحظات، ويجري مقارنات. وقد تفوق في شهادة الـ بي أيه (إجازة في الفنون) في مواد السياسة والإدارة الأهلية. وقرأ لكثير من الفلاسفة الغربيين ومنهم هاورلد لاسكي Harold Laski وبرتراند راسل Betrand Russel وبرنارد شو Bernard shaw، بالإضافة إلى ليبراليين جنوب إفريقيين مثل إدغار بروكس Edgar Brookes وجوليوس ليوين Julius Lewin كما قرأ مطبوعات معهد العلاقات العرقية في جوهانسبورغ التي رآها بالغة الأهمية، وبحث عن روايات عملية أكثر لنضالات التحرر، فقرأ أعمال وطنيين سود مثل نامدي أزيكيوي Namdi Azikiwe من نيجيرية، وكوام نكروما Kwamw Nkrumah من غانة، وجورج بادمور George Padmore من جامايكا، وبعد حملة المقاومة السلبية الهندية قرأ غاندي ونهرو.

وجد مانديلا أن الكتابات الماركسية تعطيه إدراكاً أوسع. ولم يمض شوطاً بعيداً مع /رأس المال/ أو / الأعمال المختارة لماركس وأنغلز/ ، لكنه تأثر بالبيان الشيوعي The Communist Manifesto وبالسير الذاتية لماركسيين جنوب إفريقيين مثل بول بانتينغ Paul Bunting وبيل أندروز Bill Andrews. وصدمه دعم الاتحاد السوفياتي لحركات التحرر في كافة أرجاء العالم، وبالمنطق الحثيث للمادية الجدلية الذي شعر أنه يكتسح الخرافات والمعتقدات الموروثة الراسخة في طفولته. مثل «منارة قوية في ليلة مظلمة، تسمح للمسافر أن يرى كل ما حوله، وأن يحدد النقاط الخطرة والطريق إلى الأمام». وأحس بغصة لاذعة إذ تخلى عن المعتقدات المسيحية التي غذت طفولته مثل قصة القديس بطرس إذ أنكر المسيح ثلاث مرات. ولكنه سيفكر فيما بعد وهو في سجنه بأن القديسين الحقيقيين في القتال ضد القسوة والحرب ليسوا بالضرورة أولئك الذي حفظوا الكتاب المقدس، أو الذين يلبسون ثياب الكهنوت.[37]

ما من شك في أن مانديلا لم يكن قديساً، ولن يكون لديه في يوم من

الأيام معتقد ديني قوي. ولكنه كان قد بدأ يظهر نفسه كسياسي أبعد نظرا من جميع معاصريه. فقد تعلم كيف يكبح غرائزه الوطنية الفجة، ليسمع نداء عقله قبل قلبه، وليوسع رؤيته للنضال، وأدرك أن المؤتمر الوطني الإفريقي بحاجة إلى حلفاء، وأن الهنود والشيوعيين هم الحلفاء الوحيدون المتاحون. فانتهز الآن فرصة الانضمام إليهم في أول حملة مقاومة رئيسة في تاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي.

6

التحدي

1952

في كانون الأول (يناير) 1951 عقد حزب المؤتمر الوطني الإفريقي مؤتمره السنوي الخامس والثلاثين في الضاحية السوداء خارج بلومفونتين Bloemfontein معقل الأفارقة الحار الذي يغلبه النعاس. سيثبت هذا الحدث أنه نقطة انعطاف تاريخية، ولكنه لم يلق أي اهتمام من البيض أو من العالم في حينه.

بدأ المؤتمر متأخراً ساعتين عن وقت انعقاده بثلاثمائة وفد يزحفون على القاعة الحارة كالتنور. جهزت طاولة صحافة من أجل الصحافيين الخمسة الحاضرين، وكان بينهم روث فيرست من صحيفة نيوايدج Neweage اليسارية، ومحررين محليين من جريدة فريند البلومفونتية وهنري كزومالو Henry Nxumalo وأنا من مجلة درام Drum. رفض معظم الوفود أن تؤخذ صورهم. وعلى المنصة كان رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي الدكتور موروكا Moroka المحافظ اللبق، وقربه جلس شخص متنسك صغير الحجم له وجه ذاو. كان ذاك مانيلال غاندي Manilal Gandhi، ابن المهاتما Mahatma الذي يعيش في مستوطنة أبيه القديمة في ناتال وكان يعتبر نفسه راعياً للروح النقية للمقاومة السلبية.

بدا كل من موروكا وغاندي بعيدين جداً عن مهيجي رابطة الشباب، وبينهم نلسون مانديلا المتكبر في عامه الثالث والثلاثين.

بدأ اجتماع الأيام الثلاثة طويل النَفَس وقليل الأهمية، ثم في اليوم الأخير قدم الأمين العام وولتر سيسولو تقريره حول برنامج مشترك من المقاومة السلبية أو «العصيان المدني». الذي يهدف إلى التحدي المتعمد للقوانين العنصرية للحكومة الوطنية والتحريض على السجن. كانت الخطة مبنية تقريباً على الحملة الهندية في دوربان عام 1946 . سيطلب المؤتمر الوطني الإفريقي من الحكومة إلغاء «ستة قوانين جائرة»، وهي تلك التي تفرض جوازات المرور، وتحدد رأس المال، وقانون مناطق المجموعة Group Areas Act، وقانون سلطات البانتو Bantu Authorities act، وفي حال رفضت الحكومة فإنهم سيمضون في «حملة التحدي». [1]

دعم الدكتور موروكا الخطة بخطاب مفوه بشكل لافت، ضاعفه المفسرون، يؤكد أن المؤتمر الوطني الإفريقي مستعد للعمل مع الأوروبيين والهنود والملونين شريطة الموافقة على شروط متكافئة.[2]

كان مانديلا قد ألزم نفسه نهائياً هنا بالتعاون مع البراغماتية الراسخة. فقد بدأ في المؤتمر بالإلحاح ثانية على أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يمضي بمفرده، دون الهنود، إلا أنه سرعان ما أحس أن الأغلبية تفضل التعاون، وفي حديثه كرئيس لرابطة الشباب التف التفافة كاملة بقناعة ظاهرية، كما لو أنه لم يكن يعتقد عكس ذلك أبداً.[3]. ونادى بجبهة لا أوروبية ضد الفاشية التي قال إنها تهرب إلى جنوب إفريقية من وراء ستار الخوف من الشيوعية. يجب أن يكون الإفريقيون رأس حربة النضال المنظم، لكن الهنود والملونين حلفاؤهم المعتمدون.[4]

تجلى التأثير الهندي في فكرة المقاومة السلبية، لكن كان هناك كثير من النقاش حول طبيعتها. احتج مانيلال غاندي أن قادة المؤتمر لا يتحلون «بروح التضحية الحقيقية»، وأكد أن المقاومة السلبية مسألة صفاء خلقي أكثر مما هي

سلاح سياسي.[5] وشاركه قلقه هنود جنوب إفريقيون أكبر سناً تأثروا بالماهاتما. وكان السياسي القديم الورع نانا سيتا Nana Sita، الذي ساعد في تنظيم حملة دوربان عام 1946، قد التقى غاندي إذ كان طفلاً في بريتورية. وكان يوسف كاتشاليا وشقيقه مولفي Maulvi قد انجذبا إلى طرائق غاندي عندما كانا يعيشان في الهند. لكن معظم القادة الشوعيين كانوا يأخذون على المهاتما قلة اهتمامه بالقضية الإفريقية عندما كان في جنوب إفريقية.. كتب جو سلوفو: إن غاندي لم يظهر ما يدل على أنه «استوعب الدرس الأزلي بأن الحرية لا تجزأ».[6] ورأى الشيوعيون في المقاومة السلبية محض وسيلة لتعبئة الجماهير أكثر مما هي ـ قوة روحية ـ[7] ورأى بعض أعضاء رابطة الشباب أن الحملة برمتها يعوزها العنف. وقال بيتر مدا فيما بعد إن حملة التحدي كانت ضد الثورية. بمعنى أنها كانت مقاومة سلبية: «أي لا يمكنك أن ترد الضربة».[8]

كان مانديلا أكثر براغماتية. كان حتماً دون غاندي زهداً. وقد قالت صديقته فاطمة مير: «قال بعض الهنود إنه مثل غاندي». فقلت لهم: «غاندي خلع عنه ثيابه. أما نيلسون فيهوى ثيابه».[9] أعجب مانديلا بغاندي «كواحد من رواد حركة التحرير الجنوب إفريقية»، وصدم صدمة عميقة عند اغتياله في شباط (فبراير) 1948. إلا أنه لم يكن يشاطره الرأي حول الجانب النقائي من الصراع. وقال فيما بعد: «لم أكن أعتبر اللاعنف على طريقة غاندي مبدأ ثابتاً وإنما هو تكيتك يستخدم حسب مقتضى الحال».[10]

كانت الآمال التي علقها على حملة التحدي كبيرة حتماً، فقد كان يعتقد أنها ستكون ناجعة لدرجة أن تضع المؤتمر الوطني الإفريقي في موقع يجعل الحكومة تذعن أو تلقى خارجاً من قبل الناخبين.[11] لكنه أيضاً، مثل الشيوعيين، كان يرى في التحرك سبيلاً إلى تثقيف الجماهير، وبداية لمواجهة أكثر ضراوة. وقال جو سلوفو: إنه لم تكن لديه أية أوهام حول قلب الطبقة الحاكمة دون نضال ثوري قاس.[12]

مضت المخططات قدماً بسرعة في كانون الثاني(يناير) 1952، بدفق من النشاط مختلف تماماً عن أسلوب المؤتمر الوطني الإفريقي المتمهل عادة، انضم مانديلا إلى لجنة من أربعة أشخاص، مع زد. كي. ماثيوز، إسماعيل مير، وجي. إن. سينغ، وضعت مسودة رسالة إلى رئيس الوزراء الدكتور مالان، تطالب بإلغاء القوانين الستة الجائرة.[13] ذهب مانديلا بالوثيقة إلى الدكتور موروكا في أورانج فري ستيت كي يوقعها. وعندما استلم سكرتير رئيس الوزراء الرسالة أجاب بأن الخلافات بين الأعراق «دائمة وليست من صنع الإنسان»، وأن القوانين الجديدة لا تنم عن قمع أو إذلال، إنما هي للحماية.[14] كرر موروكا وسيسولو مطالبهما وتعهدا «بمتابعة الحملة بطريقة سلمية».[15]

سرعان ما أصبح مانديلا يبدو قائداً قادماً لشعبه. ففي 31 أيار(مايو) 1952 اجتمع المكتب التنفيذي لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي في بورت إليزابيث Port Elizabeth وأعلن أن الحملة ستبدأ يوم 26 حزيران (يونيو). وأقيم حفل لوداع البروفيسور ماثيوز، الذي كان بصدد المغادرة إلى أمريكة لمدة عام، ويذكر جو بن ماثيوز قول مانديلا إنه هو(مانديلا) سيكون أول رئيس أسود لجنوب إفريقية.[16] كان يضع نفسه بوضوح في الصف الأول في منظمة المؤتمر الوطني الإفريقي، عارضاً خدماته كرئيس متطوع للحملة، مسؤول عن تنسيب الوطنيين مما سيركز الأنظار حوله، في دور شبه عسكري، في طول البلاد وعرضها وفي /يوم المتطوعين/ قبل أربعة أيام من بدء الحملة، انطلق مانديلا إلى دوربان ليكون المتحدث الرئيسي أمام جمهور قوامه 101.000 شخص، وكان ذلك أكبر جمهور خاطبه. لم يكن خطاباً شعبياً، فهو لم يملك يوماً ناصية الخطابة العاطفية التي يجيدها بعض معاصريه مثل روبرت سوبوكوي Robert Sobukwe أو غور راديبي – إلا أنه وجد العملية منعشة وتثير البهجة وقوبل بالتصفيق الحاد. قال لمستمعيه إنهم يصنعون التاريخ، وهذا سيكون أقوى عمل تقوم به الجماهير المضطهدة، والآن إذ وحدت الأعراق جهودها «نستطيع

القول إن الوحدة بين الشعب غير الأوروبي في هذا البلد قد أصبحت حقيقة ملموسة». [17]

عندما شنت حملة التحدي يوم 26 حزيران (يونيو) انطلق مانديلا إلى بوكسبورغ Boksburg، وهي بلدة مناجم قرب جوهانسبورغ، بصحبة يوسف كاتشاليا وولتر سيسولو، بعد أن أخره حوار مع القاضي الأبيض المحلي الذي كان يعرفه. حدثه الرجل بلباقة، شك مانديلا بأنها «تعود إلى حقيقة أننا نتحرك من موقع قوة». [18] وفي بوكسبورغ احتشد اثنان وخمسون متطوعاً أمام البوابات الكبيرة للضاحية الإفريقية، ثم دخلوا الضاحية دون الإذن المطلوب للدخول، بقيادة نانا سيتا بردائه الغاندي الأبيض، محاطاً بمئات من الأنصار كانوا يربطون أذرعهم بألوان المؤتمر الوطني الإفريقي الأسود، رمز الشعب. والأخضر، رمز الأرض. والأصفر، رمز ذهب البلاد، ويشخصون بالإبهام تحية الكونغرس، وينشدون بأمل أغنية «افتح الباب يا مالان، فنحن بالباب».

تفرج مانديلا بهدوء، من بعيد، ولكن كان في أسلوبه ما يرمز إلى علاقته بالنضال: المتفرد الفخور الذي كان في الوقت نفسه ملتزماً تماماً. قام رجال الشرطة، الذين كانوا في الانتظار باعتقال المتطوعين، وحملوهم في كومة واحدة على متن حاملة جنود وذهبوا بهم إلى الزنزانات.

سرعان ما سيذوق مانديلا طعم السجن بنفسه لأول مرة. ففي تلك الليلة عقد المؤتمر الوطني الإفريقي اجتماعاً في قاعة غارمنت للعمال Garment Worker's Hall في جوهانسبورغ وفرض منع التجول في الحادية عشرة ليلاً، وعندما خرج جمهور من الإفريقيين في مسيرة إلى الشارع كانت الشرطة بانتظارهم، يقفون متكاتفين يحدقون من تحت خوذهم بالسود الناحلين ويستعدون لشحنهم في شاحنات الشرطة. كان مانديلا وكاتشاليا هناك بصفة مراقبين إلا أن الشرطة أصرت على اعتقالهما أيضاً، وهكذا أمضى مانديلا ليلتين في السجن في ساحة مارشال Marhal square محشوراً مع زملائه المحتجين.

أثارت ظروف الاحتجاز ذعره، ولن ينسى أبداً كيف دُفع أحد السجناء أسفل الدرج وانكسر كاحله، وأمضى الليل يصيح من شدة الألم.[19]

كما سرعان ما أدرك أن اثنين من رفاق السجن كانا مخبرين وضعتهما الشرطة بينهم.

حدد اليوم الأول طبيعة حملة التحدي، ففي خمسة الأشهر التالية أودع 8000 شخص السجن في جميع أرجاء البلاد لمدة أسبوع إلى ثلاثة أسابيع تسيرهم داخل الضواحي أو مداخل السكك الحديدية أو العربات المخصصة للبيض، أو لخروجهم أثناء منع التجول، متوخين السلم دائماً. كان التنظيم إنجاز مانديلا: فقبل وأثناء الحملة سافر عبر الترانسفال وناتال والكيب، يجمع الأنصار ويشرح أحياناً من بيت إلى بيت، دون أن يلقى تغطية إخبارية تذكر من الإذاعة أو الصحف التي يملكها البيض. وتعلم بشكل مباشر صعوبة ترويض الناشطين المحليين المندفعين بما ينسجم مع النظام المركزي. وأدرك أن «لا فائدة من اتخاذ أية خطة تعارضها الجماهير لأن فرضها يصبح مستحيلاً».[20] واللافت أن أكبر نجاح حققته الحملة لم يكن في منطقة جوهانسبورغ حيث كان الشيوعيون الأقوى وإنما في الكيب الشرقية، التي جاءت بنصف المتطوعين. فأوضاع المعامل في بورت إليزابيث فجرت موجة من الاستياء.[21]

لقد بدا مانديلا كتلة تفاؤل، كما أظهر في مقال نشرته مجلة درام في عدد آب (أغسطس) 1952:

> «بالرغم من أننا نحتاج سنوات من العمل، لكننا مستعدون لمتابعة الحملة إلى أن تلغى القوانين الستة الجائرة التي اختيرت للمرحلة الحالية. ولن نتوقف حتى إذا حصل ذلك. فإن النضال من أجل الحرية والاستقلال الوطني للشعب غير الأوروبي سيستمر إلى أن يرى مجلس التخطيط الوطني ذلك مناسباً».[22]

أعطت الحملة السود إحساساً جديداً بالثقة بقوتهم الذاتية. كما كانت

تحقق نجاحاً ـ كما نوه مانديلا ـ في مسح وصمة العار التي تلحق بمن أمضى في السجن حكماً. وكتب فيما بعد: «بعد حملة التحدي أصبح السجن وسام شرف بين الإفريقيين» ولكن الحكومة إذ أخذت على حين غرة، سرعان ما بدأت تستعد للانتقام، بدعم من المعارضة البيضاء الرئيسية. أرسل الحزب الموحد United Party، الذي يمثل معظم الناخبين الناطقين بالإنكليزية، اثنين من أعضاء المجلس النيابي يطلبان من المؤتمر الوطني الإفريقي التخلي عن الحملة ودعمهم في الانتخابات القادمة.[23] فطلب المؤتمر الوطني الإفريقي منهما طي قوانين العبور إذا عاد حزبهم إلى السلطة، وعندما رفضا ذلك انهارت المحادثات.[24] وقام اثنان من القادة الليبراليين، هما السيناتور ويليام بالينجر William Ballinger وجي. دي. رينالت جونز J. D. Rheinallt Jones بتحذير مانديلا وغيره من أن حملة التحدي ستطيح بالدعم الأبيض، كما اشتكى المعهد الليبرالي للعلاقات العرقية؛ ويذكر مانديلا أنهم: «جاءوا إلينا وقالوا: أيها السادة إننا لا نعتقد أن هذه هي الطريقة المثلى للتعبير عن آلامكم. نرجوكم أن ترجعوا عنها، وعندما رفضنا هاجمونا». ولكن مانديلا دهش بعض الشيء للصحافة الليبرالية البيضاء. فنوه أن الراند ديلي ميل أعطت الحملة دعاية بقدر ما أعطتها مجلة نيو إيدج NewAge (العصر الجديد) الأسبوعية اليسارية (الغارديان سابقاً).[25] أعطت حملة التحدي الحكومة ذريعة لفرض قوانين أكثر شدة. وكانت أقل تهيباً من البريطانيين عندما واجهتهم معارضة غاندي السلبية في الهند.

أُخذ مانديلا ورفاقه على حين غرة. وقد حذر أحد السياسيين السود الشباب. وهو نابوث موكغاتيل Naboth Mokgatle اجتماعاً لرابطة الشباب، وضمنهم مانديلا، من أن تصرفاتهم «تشبه إلقاء أشياء في آلة، ثم السماح للمالك بأن يفككها وينظفها ويسنها ويعيد تركيبها ثانية قبل إلقاء شيء آخر فيها. إلا أن نصيحتي كانت عبثاً».[26]

في تموز (يوليو) أغارت الشرطة على منازل ومكاتب القادة الإفريقيين والهنود، وجمعت أكواماً من الوثائق. كانوا ما زالوا هواة نسبياً، وأميل إلى اللطف: فعندما فتشوا مكاتب الكونغرس الهندي في الترانسفال، قدمت لهم أمينة كاتشاليا زوجة يوسف الشاي والشطائر ووجهت اهتمامهم نحو وثائق غير مهمة فيما كان أحمد كاثرادا يزيل الدليل القاطع من رفوف أخرى.[27] وسيتذكر مانديلا بود حديث الشرطة معه باللغة الكزوسية أثناء تناول الشاي. لكن الغارات كانت مقدمة لخطوات أكثر خطورة. فقد تسلم مانديلا يوم 30 تموز (يوليو) مذكرة لتوقيفه بتهمة مخالفة قانون حظر الشيوعية، كما أعتقل عشرون آخرون من قادة حملة التحدي في كافة أرجاء البلاد.[28]

أخلي سبيل القادة الواحد والعشرين بكفالة، وقدموا للمحاكمة في أيلول (سبتمبر) في المحكمة العليا في جوهانسبورغ، أمام القاضي فرانز رامبف Franz Rumpff. تجمع حشد متعدد الأعراق في قاعة المحكمة. لكن تضامن المتهمين أضعف بشكل ملفت من قبل الدكتور موروكا، الذي ذعر من التهم الموجهة إليه واستأجر محامياً منفصلاً (خاصاً) ليطالب ببراءته. حاول مانديلا أن يقنعه بتغيير رأيه قبل أن تبدأ المحاكمة بيوم واحد، لكن موروكا تذمر من أنه لم يستشر حول الارتباط بالشيوعيين، برغم عدم احتجاجه على ذلك في الماضي. وعندما مثل أمام القاضي رامبف قال إنه لا يؤمن بالمساواة بين الأسود والأبيض ثم بدأ يشير إلى الشيوعيين بين المتهمين الآخرين، ومن ضمنهم سيسولو ودادو، إلى أن أوقفه القاضي.[29]

رأى مانديلا في انشقاق موروكا «ضربة قاصمة يصعب نسيانها» لقد ارتكب الخطيئة التي لا تغتفر؛ بأن قدم مصالحه الخاصة على مصلحة المنظمة والشعب، إلا أنه كان يعرف أيضاً شجاعة موروكا السابقة وأنه، كرجل غني، لديه الكثير ليخسره، أكثر مما لدى القائمين على الحملة، الأكثر فقراً، كما كان لديه كثير من الأصدقاء الأفارقة. سامحه مانديلا فيما بعد، كما سامح كثيرين

ممن خانوه. وكتب بشكل دافئ عن موروكا في السيرة الذاتية التي كتبت في السجن، وطلب منه فيما بعد أن يكون عراباً لابنته الأولى زيني Zeni.[30] لكن الآخرين كانوا أقل تسامحاً.

أُعجب مانديلا برجاحة عقل القاضي رامبف، وكما هو متوقع فقد وجد القادة مذنبين، لكن الحكم، بالسجن تسعة أشهر مع الأشغال الشاقة علق لسنتين، كان مخففاً نسبياً. وأكد أنهم مذنبون «بالشيوعية المثالية» التي قال إنها: «مختلفة تماماً عن الشيوعية المعروفة».[31]

كان تعريف الحكومة للشيوعية معكوساً تماماً إلا أنه ساعد في الحصول على دعم غير الشيوعيين في أماكن أخرى، خاصة في أمريكة، حيث كانت الحرب الباردة تكتسب حرارة.

وعام 1952 ألقى مانديلا لمحة خاطفة على حماسة مقاتلي الحرب البادرة عندما اجتمع بالدكتور ماكس ييرغان Dr. Max Yerygan الشخصية السياسية الأمريكية السوداء الذي زار جنوب إفريقية في حمأة حملة التحدي. كان ييرغان قد أمضى في السابق العديد من السنوات في الكيب الشرقية، حيث أدخل عدداً من الشباب السود، ومنهم غوفان مبيكي Govan Mbeki في الشيوعية.[32] ولكن لدى عودته إلى أمريكة أصبح معادياً شرساً للشيوعية! كما يكشف الآن. وقد تحدث في جوهانسبورغ في اجتماع للمركز الاجتماعي لرجال بانتو، حضره سياسيون ومثقفون سود من ضمنهم مانديلا، وختم ييرغان حديثه ـ فيما يذكر مانديلا فيما بعد ـ «بهجوم مركز على الشيوعية، قوبل بحماسة عارمة من ذلك الجمهور النخبي». لكن عندها قام بارني نغاكاني، Barney Ngakane، صديق مانديلا وجاره في أورولاندو بصد الهجوم منوهاً بصمت ييرغان المدوي حول حملة التحدي وحول النفوذ الخبيث (المستشري) للمصالح التجارية الأمريكية، وقال مانديلا إنه «تحدى المتحدث الضيف للحديث عن اتحادات

المنتجين والودائع والشركات المتعددة الجنسيات في أمريكة التي تسبب كل هذه التعاسة والشقاء في كافة أرجاء العالم، وأحبط محاولة بيرغان لجرنا إلى الحرب الباردة». [33]

عند اعتقال مانديلا وسواه من القادة في أواخر تموز (يوليو)، كانت الحكومة مصممة على إخماد حملة التحدي التي وصلت إلى مرحلة اعتقد مانديلا أنها «لا بد أن تقمع من قبل الحكومة أو أن تفرض سياستها على البلاد». [34] كان سلاح الحكومة الرئيسي هو منع قادة الحملة من تبوء مناصب في المؤتمر الوطني الإفريقي أو حضور اجتماعات. وفي أيار (مايو) منع الشيوعي جي. بي. ماركس أن يكون رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي في الترانسفال، فأوصى أن يخلفه مانديلا. كان مانديلا يلقى معارضة من (ديماغوجي) وطني اسمه سيبربير ماروبينغ Seprepere Marupeng، قائد جماعة مناهضة تدعى بافابجيا Bafabegiya (أولئك الذين ماتوا وهم يرفضون) فوجئ مانديلا بما له من سمعة كزير نساء! عندما سألت إحدى المناهضات، وكانت شابة جميلة: «كيف يمكنني أن أنتقد مانديلا وقد نسي قبعته في منزلي»[35]! إلا أنه انتخب في كانون الأول (ديسمبر)، بإجماع كبير ليشغل المنصب القيادي. كان نصره قصير الأمد. ففي كانون الأول(ديسمبر) منع، هو وواحد وخمسون من قادة المؤتمر الوطني الإفريقي، من حضور أي اجتماع، أو من التحدث إلى أكثر من شخص واحد على حدة، لمدة ستة أشهر، ومنع من مغادرة جوهانسبورغ بلا إذن. أصبح موقعه المعلن في التركيبة الهرمية للمؤتمر الوطني الإفريقي غير قانوني، إلا أن مركزه رسخ كقائد فرد ورجل تصرف.

كانت حملة التحدي قد بدأت تتلاشى الآن. وفي تشرين الأول (أكتوبر) تلقت نكسة أخرى عندما أدى اندلاع التظاهرات في بورت اليزابيث وإيست لندن (ثم بعد ذلك في كيمبرلي) إلى وفاة العديد من الأبرياء، بينهم راهبة، وسارع المؤتمر الوطني الإفريقي لتقديم التعازي لعلائلات البيض والسود على

حد سواء، الذين عانوا من هذه «العودة السيئة الطالع والمتهورة والقصيرة النظر لقانون الغاب»، واتهم الحكومة بتعمد إرسال محرضين عملاء (الأمر الذي لا يمكن إثباته). لكن أعمال الشغب أساءت لصورة المحتجين غير العنيفة، وأعطت الحكومة مسوغاً جديداً للحظر.[36]

بحلول كانون الأول (ديسمبر) كان قانون السلامة العامة وقانون تعديل القوانين الجنائية قد نصا على عقوبات أشد لأجل الخرق المتعمد للقانون، مع التلويح بعقوبة تصل إلى ثلاث سنوات في السجن مع الجلد. ومرة ثانية أخذ المؤتمر الوطني الإفريقي على حين غرة. واعترف مانديلا فيما بعد[37] «لم نكن أبداً لنتصور عقوبات قاسية كهذه، وأصبح انحسار مد التحدي أمراً لا مناص منه» كما قال في العام التالي: «وأجبرنا على التريث والاستعداد للوضع الجديد».[38]

لفترة قصيرة بدا الأمر كأن الحملة تستقطب دعماً أوسع. وفي أوائل كانون الأول (ديسمبر) دخل الأتون ضابط شاب برتبة كولونيل سابق، هو باتريك دانكان Patrick Dancan ابن حاكم عام سابق لجنوب إفريقية. كان دانكان مثالياً شجاعاً، بحماسة صبيانية للبطل جون بوتشان John Buchan، وكان معادياً شرساً للشيوعية، إلا أنه كان معجباً بغاندي. أقنعه مانديلا ويوسف كاتشاليا بالانضمام إلى الحملة ليشق الطريق لبيض آخرين. قال كاتشاليا «أتى مصادفة، عطاء من السماء، فحال دون أن تصبح الحملة عرقية».[39]

دخل دانكان بصحبة مانيلال غاندي ـ الذي أقنعه بالانضمام إليه ـ وبضعة أشخاص بيض أخرين ناحية جيرميستون Germistan قرب جوهانسبورغ دون أذونات، وأوقفوا جميعاً. مع بريق الدعاية التي تلت ذلك تحمس كثير من السود لشجاعة دانكان، وعندما أودع السجن أتى كل من مانديلا وكاتشاليا ودادو ليتمنوا له حظاً طيباً. لكن لم ينضم بيض آخرون إلى دانكان، كما أملوا، وأثبت أنه حليف مربك. وقال في قاعة المحكمة إنه غير مذنب، ثم فشل في دفع الاتهام عن نفسه، لكنه لم ينفذ فترة الأسابيع الستة التي حكم بها كاملة. وبعد

إخلاء سبيله أصبح قلقاً حيال النفوذ الشيوعي داخل المؤتمر الوطني الإفريقي. وانضم فيما بعد إلى الحزب الليبرالي الجديد، ثم إلى الكونغرس الإفريقي العام، الذي أصبح المنافس الأكثر خطورة للمؤتمر الوطني الإفريقي.[40] إلا أن مانديلا سيذكر دائماً شجاعته باحترام.

بحلول نهاية 1952 كانت حملة التحدي قد انتهت. بعد أن كانت أعجوبة دامت ستة أشهر. ومازال السياسيون والمؤرخون في خلاف حول نجاحها أو فشلها. أقر مانديلا بأنها لم تنتشر كثيراً وراء المدن والقرى الكبيرة، ما عدا في الكيب الشرقي.[41] إلا أنه ادعى أنها كانت نجاحاً خارقاً، فقد زاد الإقبال على عضوية حزب المؤتمر الوطني الإفريقي من 4000 إلى 16000 في الترانسفال، فيما وصل في الكيب إلى 100000.[42]

وقد أظهر المؤتمر الوطني الإفريقي مقدرة في التنظيم الوطني، قليل من المراقبين من شك فيها، ويعود جل الفضل في هذه المقدرة لمانديلا. مما أعطاه ذخراً معنوياً وحرره، وقد كتب فيما بعد: «ربما كنت أشعر ببعض الشك يسكنني أو الشعور بالنقص.. لكنني كنت أستطيع السير منتصب القامة، أحدق نظري في الجميع بكبرياء وكرامة أستمدها من أني لم أنحن للاضطهاد والخوف».[43]

كما غيرت حملة التحدي شخصية المؤتمر الوطني الإفريقي أيما تغيير، فأبعدت القادة المحافظين والأكثر اعتدالاً مثل الدكتور موروكا الذي طرد. وبحث «صناع الملوك» الشباب. ومنهم مانديلا، عن رئيس أكثر صموداً، ووجدوه في شخصية ألبرت لوثولي Albert Luthuli، وهو من زعماء الزولو في الثالثة والخمسين من العمر، كان لوثولي شخصاً ضخماً يتحدث ببطء ويبتسم بكثرة. وهو أستاذ سابق وخطيب ميثودي في مركز البعثة في غروتفيل Groutville في ناتال، بدا محافظاً تماماً. إلا أنه تقدم، كما قال «على خط اللين إلى الصلابة».[44] اصبح لوثولي رئيسا للمؤتمر الوطني الإفريقي في ناتال عام

1951، ودعم حملة التحدي بالرغم من ضغط الحكومة، التي طردته من موقع الزعامة (القبلية) فرد بتصريح مسيحي مؤثر سماه «الطريق إلى الحرية يمر عبر الصليب». [45]

كان لوثولي يكن احتراماً بالغاً لغاندي، ويعجب باعتدال حزب العمل البريطاني، لكنه لم يكن يخشى العمل مع الشيوعيين. إذ قال لي لدى انتخابه رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي في كانون الأول (ديسمبر) 1952 «إن الوطنية المتطرفة أشد خطراً من الشيوعية، وهي خطر حقيقي». [46]

وخلال السنين الخمس عشرة التالية ـ وهي أطول فترة رئاسة في تاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي ـ كثيراً ما كان يمنع ويلزم بالبقاء في منزله في ناتال وكان أحياناً يعتبر مجرد رئيس صوري لكن مانديلا كان دائماً يعتبره قائده، وبطلاً في النضال.

أتت حملة التحدي وذهبت دون أثر عميق في مواقف الجنوب إفريقيين البيض أو في الرأي العام الخارجي، ما عدا بعض المحتجين اليساريين. وراقب الدبلوماسيون البريطانيون في بريتورية الأحداث بشيء من الشك، وصوروا الإفريقيين كمخالب للهنود والشيوعيين. حيث جاء في برقية أرسلت إلى لندن في أيار (مايو) 1952 أن السكان المحليين ليس لديهم سوى «تنظيم سياسي بدائي بلا قادة فاعلين». كان خوف الدبلوماسيين الأساسي هو اندلاع «حرب أهلية بين العرقين الأبيضين»، قد تدخل فيهما العناصر الأهلية[47] وانزعج المندوب السامي السير جون لو روجتيل SirJohn Rouetel، من «حدة وبذاءة» الانتقاد الأمريكي، لحكومة الابارثيد، ومن قرار اتخذه حزب العمل، الذي كان في المعارضة إذ ذاك، بإدانتها. وأصر أن على البريطانيين أن «يتركوا الجنوب إفريقيين يخوضون معاركهم»، وبخاصة وأن الحزب المتحد الأكثر ليبرالية كان «يشد عوده». قبل السير جون آراء رئيس الفرع الخاص في جنوب إفريقية الكولونيل دو بلوي Colonel du plooy، بأن المؤتمر الوطني الإفريقي يموله

الكونغرس الهندي وأن «قيادته برمتها من القادة الشيوعيين» وأرسل هذه «المعلومة الاستخباراتية» في برقية رديئة المعلومات بشكل ملحوظ إلى لندن في تشرين الثاني (نوفمبر). وألقى باللائمة جزئياً في الاضطرابات التي شهدتها بورت إليزابيث على الشيوعيين الهنود الذين كانوا بحاجة إلى حدث استعراضي ينعش اهتمام الأمم المتحدة بجنوب إفريقية.[48]

ونستون تشرشل، الذي عاد مؤخراً إلى السلطة في بريطانية رئيساً للوزراء من المحافظين، كانت له وجهة نظره الواثقة الخاصة، التي عبر عنها يوم 16 تشرين الأول (أكتوبر). وهي أن «لا شيء يمكنه أن يعين الدكتور مالان في انتخاباته الوشيكة أكثر من الهنود والكافيريين Kaffirs الذين يشقون طريقهم عنوة إلى الحجرات وغرف الانتظار المخصصة للبيض. وستعارض الأغلبية العظمى من السكان البيض في جنوب إفريقية هذا التدخل. وهكذا فإن ما يفعله المتآمرون الشيوعيون والهنود هو في الحقيقة مساعدة مالان. وسيكونون على درجة عالية من الغباء إذا لم يدركوا هذا الأمر».[49]

قلة من الدبلوماسيين الغربيين كانوا أكثر تبصراً. فقد أخبر المندوب السامي الكندي ماك ديرموت T. W. L. Mac Dermot أوتوا في شباط (فبراير) 1953 أن «المؤتمر الوطني الإفريقي أكبر بكثير من حزب سياسي. إنه يمثل الأغلبية العظمى للإفريقيين الأقحاح في الاتحاد، إنه بمثابة مجلس نيابي يمثل أمة. أمة بلا دولة ربما. ولكن الإفريقيين يزداد تفكيرهم بأنهم أمة يوماً بعد يوم».[50]

7

محام وثوري

1952 ـ 1954

في الظاهر كان نيلسون مانديلا وهو في أوائل عقد الثلاثين من عمره يعيش حياة أسرية مستقرة في بيت من بيوت علب الكبريت في أورلاندو. وكانت زوجه إيفيلين تدير المسكن بالتزام أعجب كثيراً من أصدقائه. حيث كتب فيليس نتانتالا فيما بعد: «لولا تشجيع إيفيلين وتأكيدها أنها ستكون دائماً موجودة لتبقى النار متقدة في المسكن، لما استطاع مانديلا النجاح».[1] كانت دائماً وراء الستار تطبخ وتعنى بالمنزل النظيف وتبقي على نمط الحياة البسيط. وعندما قام كانون جون كولينز canon John Collins نصير مانديلا الإنكليزي بزيارته عام 1954 أحضر له مانديلا حوضاً من الماء ليغسل يديه ودله على دورة المياه خارج المنزل وهي عبارة عن سقيفة متداعية تحتوي على دلو. صدم كولينز لأن إيفيلين لم تشاركهما وجبة الغداء![2]

إلا أنه لم يكن بيتاً سعيداً، وكان أقل استقراراً من منزلي سيسولو وتامبو. فقد كانت إيفيلن غير راضية عن عمل مانديلا السياسي. وأدرك أن دينها «لا يدعم النشاط السياسي».[3] وقالت إنها عندما تزوجته اعتقدت أنه طالب وليس بسياسي. وبالرغم من أنها أحياناً ترتدي زي المؤتمر الوطني الإفريقي الموحد، إلا أنها قالت: «كنت أحاول أن أرضيه فحسب»[4]، وكانت تتعمق في الدين بقدر تعمق زوجها في السياسية. كانت من شهود يهوه الملتزمين. تمضي معظم وقتها في قراءة الإنجيل. وقد قال صديقهما الكاتب إيزكيا مفاهيليل Es'kia

Mphahelel إن تدين إيفيلين كان هرباً من الضغط السياسي، وشعر بأن آل مانديلا زوجين غير متوافقين «ليس لزواجهما أن يفلح»[5]، وما من شك في أن التوتر كان ينعكس على جو البيت، وأول من شعر به كان ليبي أخت مانديلا الصغرى، التي كانت تلزم البيت أحياناً وتعتبر أخاها أباً لها. وتذكر أن إيفيلين «لم تكن تحب حديث السياسة». ولم تكن ليبي تفهم لماذا يختبئ الناس دائماً، أو يخرجون ليعودوا في الصباح الباكر: «كنت أشعر بالمرارة لفقدان السعادة».[6]

خارج المنزل كان مانديلا يشد في اتجاهات مختلفة، لكل منها صفة مناقضة. فهو من جهة كان يتدرب كمحام، معني كل يوم بالآلة القانونية المنظمة للدولة. ومن جهة أخرى كان عالقاً في السياسات الثورية، وكان قد بدأ يرى العنف نتاجاً صحياً للمجابهة. وثبت أن احترامه للقانون كان مفتاح بقائه، إلا أنه كان مر الطعم. قال جورج بيزوس George Bizos صديق مانديلا المحامي الأبيض: «لم يكن يفكر أبداً في أنه سيمضي مواجهاً اتهامات بجرائم كبيرة وأخرى سواها، أطول مما يمضيه في تمثيل الآخرين».[7]

تقدمت مهنة مانديلا القانونية فيما كان يقوم بكل نشاطاته السياسية. وبعد أن ترك ويتكين وسايدلسكاي وايديلمان witkin, sidelsky & Eidelman، عمل مع ثلاث شركات بيضاء: أولاً مع تير بلانش وبريفيش Ter blanche & Briggish، ثم لدى هيلمان ومايكل Helman & Michel، ثم لدى هـ.م.باسنر H. M. Basner وهو سيناتور سابق يساري أصبح في إمرته محامياً كامل المواصفات. وعام 1952 أسس أول شركة محاماة إفريقية في البلاد مع أوليفر تامبو رفيق رابطة الشباب الذي عرفه مذ كانا طالبين زميلين في فورت هير.

ستثبت الأيام أن هذه الشركة تاريخية، تثير الدهشة أكثر من علاقة مانديلا السياسية مع سيسولو. كان تامبو أيضاً من منطقة الترانسكي الريفية، وله وشوم قبلية على خديه. وكان والده، كوالد مانديلا، مزواجاً، ومثل مانديلا طرد هو

أيضاً من فورت هير. في الأشياء الأخرى كان نقيض مانديلا؛ فقد كان هادئاً ورجل علم ودين، من أسرة فلاحية لم تكن تتوقع الخدمة من الآخرين. لكن تامبو كان يتمتع بذهن متفتح أثار إعجاب أساتذته ورفاقه الطلاب. أتى تامبو إلى جوهانسبورغ مدرساً للرياضيات في مدرسة سانت بيتر، حيث سيس كثيراً من الفتيان، إلى أن أقنعه وولتر سيسولو بأن يصبح محامياً. كان مانديلا يحترم في تامبو نضجه وذهنه المتقد، وكثيراً ما كان يستمع إلى نصحه.

افتتحت شركة مانديلا وتامبو في آب (أغسطس) 1952 في بناء قديم ملفت للنظر اسمه بيت المستشار Chancellor House، مقابل محاكم القضاة في قلب جوهانسبورغ ولا يبعد سوى مسافة بسيطة عن الحصن الكبير للشركة الأنغلو أمريكية، مركز الرأسمالية في جنوب إفريقية، كتبت كلمتا مانديلا وتامبو بأحرف كبيرة على النوافذ، مما أثار حفيظة المحامين البيض المحافظين. وكانت المكاتب في البناء نفسه حيث قيادة المؤتمر الوطني الإفريقي التي يديرها سيسولو، وكان ذلك البناء جزءاً من معقل منشقين في أبنية يملكها هنود بينها مطعم كابيتان Kapetan وبيت كولفاد Kholvad House مكان تجمع الهنود الراديكاليين. وسرعان ما أصبح شاغلو منزل المستشار السود تحت تهديد قانون مناطق المجموعات The Group Areas Act الذي يخص مراكز مدن جنوب إفريقية بالبيض فقط. إلا أن مانديلا وتامبو بقيا هناك خلافاً للأنظمة حتى عام 1961، عندما أصبحا تحت المراقبة الدائمة.[8]

أصبحت الشركة مكتب المحاماة الرسمي للمؤتمر الوطني الإفريقي، وكثر الطلب عليها لتمثل عملاء سوداً آخرين ينوؤون بالشكاوى والمطالب. يقول جو موغوتسي Joe Mogotsi الذي كان يغني مع الأخوة مانهاتان «كنا نعتمد على مانديلا وتامبو إذا اعتقلنا لأداء حفلة في المدينة، دون أن نحمل إذناً».[9] كان لهما كثير من العملاء الريفيين. يذكر تامبو «كي نصل إلى مكاتبنا كل صباح كنا، نيلسون وأنا، نجتاز محنة اختراق صفوف الناس الصابرين الذين لا تتسع لهم

المقاعد في غرفة الانتظار فيفيضون إلى الممرات.. وكنا نقابل أسبوعياً وفود الفلاحين الشيب الذين لوحهم طقس الريف وأتوا يخبروننا عن عدد الأجيال التي تعاقبت على العمل في قطعة أرض صغيرة يطردون منها الآن.. وكانت كل قضية في المحكمة، وكل زيارة إلى السجون لاستجواب الموكلين تذكرنا بالذل والمعاناة اللذين يحرقان شعبنا».[10] وسرعان ما أتى لمساعدتهما ميندي مسيمانغ Mendi Msimang، وهو زولي شاب ناشط كان يساعد سيسولو، كما أتى غودفري بيتجي Godfery Pitji من رابطة الشباب الذي كان شاهداً على زواج تامبو.[11] ولما كان بيتجي فتى قروياً متواضعاً فقد شعر بأنه عامي مقارنة بمانديلا. وقال فيما بعد: «لم يكن الإذعان صعباً. وإنما كان الأمر الطبيعي بالنسبة لابن الزعيم».[12] كان مانديلا يحب أن يظهر بمظهر الآمر، إلا أنه كان قادراً أيضاً على الاستماع لمن يعمل بإمرته. وعندما كان يملي رسائل على سكرتيرته الماهرة روث مومباتي Ruth Mompati ـ التي أصبحت صديقة حميمة، ثم سفيرة إلى سويسرة فيما بعد ـ كانت أحياناً تقترح تصحيحاً كان في البداية يتجاهله إلا أنه سرعان ما يقبل به بعد حين.[13]

كانت مواهب الشريكين تكمل بعضها؛ فقد كان مانديلا يمضي معظم وقته في المحكمة، وهو يناقش بأسلوب حماسي، أو يكتب خطابات سياسية طويلة حتى فترات متأخرة من الليل. فيما كان تامبو المفكر الهادئ يلزم المكتب ويقوم بمعظم الأعمال الورقية، متلهياً بامتصاص غليونه المطفأ. في قاعة المحكمة كان تامبو يتصرف بهدوء وبلا مقاطعة، معتمداً على معلوماته الحقوقية. إلا أن مانديلا اكتسب أسلوباً مسرحياً جازماً يتميز بإيماءات شاملة. كان يشعر الآخرين بحضوره بمجرد دخوله إلى المحكمة، مما جعل القضاة والمدعين العامين يتذمرون من أنه معتز بنفسه لدرجة الغرور.[14] قال غودفري بيتجي «كل ما كان يحتاجه هو أن يتلفت حوله ويرفع بصره ليبدأ ما يشبه البريق حوله»، لكن بيتجي كان يهتز طرباً إذ يسمع مانديلا يعامل القضاة العنصريين

باحتقار، ويراه يتجاوز قيود الأبارثيد. ومرة عندما اندفع مانديلا بجرأة عبر بوابة «للبيض فقط» تؤدي إلى قاعة المحكمة قال له موظف أبيض داكن الوجه: «هذه البوابة للبيض». فأجاب مانديلا: «ماذا تفعل أنت هنا إذاً؟». [15]

كثيراً ما كان مانديلا يدافع عن موكلين في الترانسفال، حيث كانت الحشود تتجمهر لترى هذا المحامي الأسود الأسطوري، دون أن يفهموا القانون بالضرورة. وعندما حقق إخلاء سبيل أول موكل كان متهماً بالسحر، اعتقد أن بعض المشاهدين أرجعوا نجاحه إلى قوة السحر، أكثر مما هي قوة القانون. [16] وكثيراً ما كان يعطي تعليمات أساسية لمحامين بيض ليبراليين مثل جورج بيزوس George Bizos للترافع في قضايا مهمة. وكانوا يثيرون استغراب ضابط القضاء المحلي إذ يخاطبون الشهود السود بلقب «سيد» أو «سيدة» بدل «جيم» أو «مارثا».

كثيراً ما كان مانديلا وتامبو يجدان نفسيهما في خضم معركة خاسرة أمام «السلطات القبلية» الجديدة، التي كانت تقوم بالتدريج ببسط سلطات الحكومة وفرض أدلة الاتهام والغرامات. لكن مع زيادة الوعي السياسي بين أوساط السود الريفيين والتقائهم بمزيد من العمال في المدن. أصبحوا أكثر وعياً بحقوقهم القانونية. فحظرت الحكومة الاجتماع لأكثر من عشرة أشخاص، وعندما كانت الشرطة تفرق أو تعتقل المتفرجين كانوا يهيبون بأقاربهم أن «اتصلوا بمانديلا وتامبو». [17]

أصبح مانديلا متهماً بين العديد من المحامين البيض بعد تلقيه مذكرة توقيف لمساعدته في تنظيم حملة التحدي. وعام 1954 طالبت جمعية المحامين برفع اسمه من قائمة المحامين. وفي قضية تاريخية دافع عنه محاميان محترمان أبيضان هما وولتر بولاك Walter Pollak Qc وبلين فرانكلين Blen Franklin، اللذين قالا: إن القانون يعطي مانديلا الحق في القتال من أجل معتقداته السياسية. دعم القاضي رامسبوتوم Ramsbottom وجهة نظرهما وأمر جمعية

المحامين أن تدفع التكاليف. اغتبط مانديلا لعدد المحامين - وبينهم وطنيون أفارقة - الذين هبوا لدعمه: «حتى في جنوب إفريقية العنصرية يستطيع التضامن المهني أحياناً أن يتخطى حاجز اللون». [18]

وبعد أربعين سنة؛ عندما خاطب جمعية المحامين ذكرهم: «ها أنا هنا ومازال اسمي في اللائحة»[19]، إلا أن مداه المهني سرعان ما حد منه بالحظر الذي فرض عليه لنشاطه السياسي. وعندما طلب السماح له بالظهور في قضية في بريتورية عام 1955، قال رئيس الشرطة لوزير العدل: «مانديلا ليس أهلاً للثقة، ويجب التعامل مع زياراته لبريتورية وفيرنيا ينيغ Vereeniging بمنتهى الحذر». [20]

ومع بزوغ نجم مانديلا السياسي أصبح يستقطب مزيداً من التحفظ. ففي تشرين الثاني (نوفمبر) 1955 كان يدافع عن موكل أسود أمام قاض أفريقاني سريع الغضب اسمه ويليام دورميهل William Dormehl، الذي طلب من مانديلا فوراً إبراز شهادة المحاماة، فلم يستطع فأجل دورميهل الدعوى. وعندما أحضر مانديلا الشهادة فيما بعد وبدأ دفاعه، أخذ دورميهل يقاطع «أسئلته التي لا صلة لها» مرفقاً مقاطعاته بصيحات «هيه.. أنت»، وأخيراً قال: «هيه.. أنت.. اجلس». وأصر مانديلا أن تسجل جميع ملاحظات القاضي، وأخيراً صرح بأنه لا يستطيع الدفاع عن موكله في هذه الظروف، وأعيدت القضية إلى محكمة دنيا، وذهب مانديلا غاضباً لرؤية جورج بيزوس الذي نصحه بتقديم التماس لدى المحكمة العليا. عرضت القضية أمام القاضي كوارتوس دو ويت Quartusde wet الذي استشاط غضباً لتصرف دورميهل، قائلاً: «الجميع يعرفون أن مانديلا محامي»، وأمر دو ويت القاضي بأن يعزل نفسه عن القضية، قائلاً: «هذا النوع من التصرفات هو الذي يسيء إلى سمعة إدارة العدل في بلدنا». [21]

بعد أربعين سنة عندما أصبح مانديلا رئيساً قال: «كان القانون يستخدم في

جنوب إفريقية لا كأداة لتوفير الحماية للمواطن، وإنما كوسيلة رئيسية لإخضاعه. وعندما كنت طالباً شاباً في الحقوق كان أحد طموحاتي أن أسخر تدريبي المهني لأرجح كفة العدل ولو قليلاً لصالح المواطن».[22] كان يفاجأ بين وقت و آخر بعدالة القضاة، ولكنه في الوقت نفسه كان يدرك محدودية المحاكم في رعاية الحريات المدنية. كما كتب فيما بعد: «في بلدنا حيث هناك قوانين عنصرية، حيث جميع القضاة والحكام من البيض تفوح منهم روائح التفرقة العنصرية الكريهة، فإن تطبيق هذه القوانين محدود جداً. ورأى الحكومة تملأ المحاكم بأنصارها، لكنه أدرك أن جنوب إفريقية ما تزال تنتج قضاة كباراً. قد يكونون مواطنين أفارقة أيضاً، ولكن يملكون من الشجاعة ما يكفي ليقفوا في وجه الحكومة. وفي السجن سيذكر بمتعة كيف قال القاضي بلاكويل المحترم Judge Blackwell لرئيس الشرطة السرية في الراند: «هذا البلد لم يصبح دولة بوليسية بعد!».[23]

وسيبقى مانديلا مشتتاً بين احترامه لحكم القانون وتصميمه على الإطاحة بالنظام العنصري. ووجد نفسه يوماً بعد يوم على الجانب المتلقي من الآلة القانونية، وقد صنف سياسياً خطيراً مضطراً لأن يعمل في الظل. ولمدة عشر سنوات، منذ عام 1925 إلى أن سجن. كان محظوراً عليه شغل أي منصب منتخب، كما كان ممنوعاً من إلقاء خطابات عامة لم يكن له أي منصب رسمي في المؤتمر الوطني الإفريقي. وكان عليه الاعتماد على شخصيته وصورته، لكنها كانت صورة قد بدأت تلتمع بشدة.

تمتع مانديلا بفترة قصيرة من الحرية عندما انتهت فترة الأشهر الستة التي منع فيها من حضور الاجتماعات أو مغادرة جوهانسبورغ وذلك في حزيران (يونيو) 1953، وذهب في رحلة إلى أورانج فري ستيت ليظهر كمحام في المحكمة في قرية فيلبير الصغيرة Villiers. أعطاه المنظر الطبيعي الريفي الفسيح إحساساً بالحرية، حتى أنه شعر بصلة قوية تربطه بالجنرال دو ويت بطل حرب

البوار الأفريقانية، الذي حارب البريطانيين في تلك البلاد.[24] إلا أنه كان فجراً كاذباً. ففي فيلبير حكم عليه بمنع آخر قيد حركته ضمن حدود جوهانسبورغ ثانية، وطلب منه الاستقالة من جميع المنظمات، بما فيها المؤتمر الوطني الإفريقي، لمدة سنتين. كانت تلك بداية مرحلة الملاحقة في حياته، حيث يذكر بعد تسع سنوات: «وجدت نفسي محدوداً ومعزولاً عن جميع رفاقي الرجال، عن الناس الذين يفكرون مثلي ويحملون معتقداتي. وجدت نفسي ملاحقاً من قبل ضباط في فرع أمن الشرطة أنّى ذهبت. أي بتعبير آخر وجدت نفسي أعامل معاملة مجرم، مجرم غير مدان».[25]

عرف مانديلا أن كثرة الممنوعات ستضعف المؤتمر الوطني الإفريقي إذ تحد من اتصالات القادة ونشاطاتهم، وتشجع «زحف شرور الطائفية والإقليمية»[26]، ولدى توقعه أن يمنع المؤتمر الوطني الإفريقي برمته، وضع خطة تمكن القادة من الاتصال السري والسريع ببعضهم وبالاتباع بواسطة شبكة سرية من الخلايا.[27] وسميت الخطة «خطة ـ M» بدل أن تسمى خطة مانديلا، كي لا يعرف أنه يشارك في أعمال المؤتمر الوطني الإفريقي بشكل مخالف للقانون. كان الهدف الرئيسي للخطة هو إعلام وتعبئة وتنسيب الأعضاء، ولكن يمكن أيضاً استخدامها لتكوين نقابات عمالية دون اجتماعات عامة.[28] وكما حث مانديلا كونغرس الترانسفال في أيلول (سبتمبر) 1953: «إذا كان محظوراً عليكم الاجتماع علناً، عليكم بالاجتماع فوق آلاتكم في المعامل، وفي القطارات والحافلات في طريقكم إلى البيت. يجب أن تكون اجتماعاتكم في قراكم وأكواخكم، يجب أن تجعلوا كل بيت، كل كوخ وكل بناء من الطين يعيش فيه شعبكم فرعاً من حركة النقابات العمالية، ويجب ألا تستسلموا أبداً».[29]

طبقت الخطة M في الكيب الشرقية، حيث كانت روح التحدي الأقوى. هذا أثلج صدر مانديلا، طالما أن الخطة قد نظمت من قبل الإفريقيين.

وبمساعدة قليلة من الهنود أو البيض.[30] لكن طرأ كثير من المشاكل في مناطق أخرى. إذ رفض القادة المحليون الأقوياء السيطرة المركزية، ولم يكن لديهم منظمين يتلقون أجوراً لتطبيق الخطة، وغالباً ما كانوا لا يؤمنون بأن المؤتمر الوطني الإفريقي سيحظر فعلاً. في كانون الأول (ديسمبر) 1955 أفاد التنفيذي الوطني National Executive أنهم «لم ينجحوا بعد في الخروج من نطاق الاجتماعات الجماهيرية وهذا النوع من الهياج».[31] ولم تطبق النسخة المعدلة من الخطة قبل عام 1961 بعد أن حظر المؤتمر الوطني الإفريقي.[32]

أتى تحدي مانديلا السياسي المفتوح التالي في عام 1953 في بلدة صوفيا تاون المتعددة الأعراق، قرب جوهانسبورغ مركز البيض. كانت «نقطة سوداء» صممت الحكومة على نقلها من حافة سويتو. كانت صوفيا تاون منطقة فقيرة مزدحمة تضم خمسين باحة خلفية تفوح منها رائحة الجعة التفهة، لكنها كانت إحدى مناطق جنوب إفريقية الأكثر تحرراً من الأحقاد القومية، ذات حيوية طاغية، وجمال وحشي، خلدها الشعراء والمصورون والرسام الاسود جيرارد سيكوتو Gerard sekoto والأكثر أهمية من الناحية السياسية هي أنها كانت الجزء الوحيد من جوهانسبورغ حيث يستطيع السود حيازة الأملاك الحرة، الأمر الذي لم تكن الحكومة تقبل به. وعندما كان السكان السود يجبرون على مغادرة بيوتهم مقابل تعويض تافه، كان مانديلا يشجب الإخلاء القسري لكونه «احتيالاً محسوباً ومتعمداً».[33] كان للمؤتمر الوطني الإفريقي أنصار أقوياء في صوفيا تاون، يتزعمهم اثنان من المهيجين هما روبرت ريشا Robert Resha وبيتر ثايت Peter Nthite، كما كان بينهم تسوتسيز tsotsis أو قطاع طرق، بين وقت وآخر. وشعر التنفيذي الوطني أنه مجبر على مقاومة عمليات الإخلاء، في الوقت الذي يبقي على سياسة اللاعنف التي ينتهجها. وكان التحدي قاسياً.

بعد انتهاء الحظر المفروض على مانديلا في حزيران (يونيو) 1953 ترأس اجتماعاً في سينما أودين Odin Cinema في صوفيا تاون، برفقة القائد الهندي

يوسف كاتشاليا، الذي اعتقلته الشرطة من على المنبر. ونجح مانديلا في تهدئة الجمهور بمساعدة أناشيد المؤتمر الوطني الإفريقي. لكن بدأ يفقد صبره حيال أساليب اللاعنف. وإذ خطب في جمهور غاضب في ساحة الحرية بعد ذلك مباشرة، انساق وراء خطاباته وقال للجمهور إن عليه أن يستعد لاستخدام العنف قريباً. وأشار إلى رجال الشرطة الذين يطوقونهم وأنشد أحد أناشيد المؤتمر الوطني الإفريقي التي جاء فيها: «هاك عدونا!»، فتلقى تأنيباً قاسياً من قبل التنفيذي الوطني في حزب المؤتمر الوطني الإفريقي، وقبل التأنيب لكنه شعر في أعماقه بأن «اللاعنف ليس الجواب».[34]

رغم ذلك تابع محتجو صوفيا تاون احتجاجهم بطريقة سلمية، وألقيت مئات الخطابات من قبل قادة محليين تحاشوا بحذر الخطابة العنيفة. وفيما بعد خلص تقرير للمؤتمر الوطني الإفريقي إلى أن «إلقاء حجر صغير واحد على الشرطة كان سيؤدي إلى مذبحة في صوفيا تاون».[35] وكانوا يلقون الدعم من راهب إنكليزي بارز هو الأب تريفور هادلستون Trevor Haddleston الذي كان يدير كنيسة المسيح الملك Christ the King، التي تسيطر على صوفيا تاون، ومدرسة سانت بيتر القريبة التابعة للبعثة في روزنتفيل. كان هادلستون الصديق والمعلم الخاص لأوليفر تامبو، وقد تأثر بحملة التحدي لدرجة جعلته ينضم إلى المؤتمر الوطني الإفريقي في نضاله. وقد قال لجمهور أسود مأخوذ في قاعة التجارة Trade Hall في شباط (فبراير) 1953: «على مدى قرون عديدة والكنيسة تأمرنا بأنه إذا انساقت الحكومة وراء الطغيان فإن القوانين تفقد سلطتها على الأفراد». لم يقلق هادلستون حيال العمل مع الشيوعيين. وقال لي: «أنا أعتقد بأن الشيوعية لا تشكل خطراً كبيراً في جنوب إفريقية».[36] ورأى من واجبه كمسيحي أن يحمي أبرشيته في صوفيا تاون بكل إنسانيتها التي أحبها.[37]

أدرك مانديلا أن هادلستون، مثل أصدقائه الشيوعيين البيض، كان يشعر بشعور الشعب وأنه سيصبح صديقه وسنده مدى العمر. وقال هادلستون فيما بعد

إنه لم يجد أية صعوبة في مناقشة الدين مع مانديلا، الذي كان يعتبره ممن يعتقدون أن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها، لم يكن ملحداً: «كان يعتقد أن الله سر غامض، ويقبل أولئك الذين يبنون حياتهم على الإيمان بالله. ويؤمن بنعمة الإرادة الحرة وحرية الاختيار، وكان ذلك الإيمان أرسخ في نفسه من أي معتقد سياسي». [38]

واصل المؤتمر الوطني الإفريقي غليانه ضد دمار صوفيا تاون بشعارات مثل «لن نتزحزح» و«من فوق جثثنا» وسرعان ما تبين مانديلا أن ذلك كان خطأ فادحاً. فكتب في سجنه فيما بعد: «الشعار مثل الرصاصة. يعتمد تأثيرها على ملاءمتها لفوهة البندقية»[39]، إلا أن تلك الرصاصات لم تكن لتنفذ. أعطت صحافة العالم تغطية واسعة لاحداث الناحية الفقيرة بتوقعات عالية لحدوث حمام من الدم أو حتى ثورة. حيث كتب دون ماتيرا Don Mattera، وهو شاعر وزعيم عصابة يعيش في صوفيا تاون. «كنا جميعاً نعتقد أن الثورة قادمة حتماً». [40] كان مانديلا وتامبو يأتيان يومياً إلى الناحية لينسقا القيادة ويمثلا المالكين المشردين. لكن مانديلا لم يستطع تقديم وسائل سلمية للحيلولة دون الإخلاء. وقد كتب فيما بعد «لم نعتقد في أي وقت خلال هذه الحملة أن بإمكاننا التغلب على الحكومة». [41]

كان الجو العام ما زال مشحوناً بالتوقعات عندما زرت صوفيا تاون يوم 9 شباط (فبراير) 1954، اليوم المحدد للإخلاء. وفي الفجر كانت الناحية تردد صدى صوت التسوتسيس (قطاع الطرق) الذين يضربون أعمدة البرق، صيحة المعركة في صوفيا تاون.. لكن الحكومة فرضت منعاً كليا للاجتماعات، وكان 200 من عناصر الشرطة يجوبون الشوارع بسيارات وشاحنات ثقيلة. وسرعان ما بدأت الشاحنات تحمل المفروشات وأولئك الساكنين الذين كان يسعدهم الرحيل. كان قادة المؤتمر الوطني الإفريقي يتطلعون بقلوب مفعمة بالغم، فيما

اكتفت الجماهير بالتحديق. وبحلول المساء كانت الشرطة تبدو بحالة من الملل والثقة.[42]

تعلم مانديلا درساً قاتماً، ألا ينعش الآمال بالثورة قبل الأوان «فصوفيا تاون لم تمت على وقع أصوات إطلاق النار وإنما على قعقعة الشاحنات والمطارق الثقيلة» واقتنع أنه في المستقبل «لا بديل لنا عن المقاومة المسلحة العنيفة». وبدا أحياناً يتحرق شوقاً لمجابهة يستطيع أن يثبت نفسه من خلالها[43]، لكن كان يكبحه سيسولو الأكثر تماساً مع الشباب المناهض ويذكر بأنهم «كانوا يأتون إلى اجتماعاتنا تستحوذ عليهم فكرة واحدة هي أن أعلن الثورة».

سيسولو لم يعلنها، كما أنه نصح من جهة غير متوقعة بعدم اللجوء إلى العنف. ففي عام 1935 تلقى دعوة هو والناشط الشاب في المؤتمر الوطني الإفريقي دوما نوكوي Duma Nokwe إلى مهرجان للشباب الشيوعي في بوخارست Bucharest في رومانيا، بمبادرة من أحمد كاثرادا، فشقا طريقهما بالرشوة على طائرة العال الإسرائيلية وقاما بأول اتصال لهما مع الشيوعيين الأوروبيين. أقنع مانديلا سيسولو بأن عليه ان يقوم سراً بزيارة الصين، ليناقش إن كان بإمكانها تزويد المؤتمر الوطني الإفريقي بالسلاح. فاجأ المضيفون الصينيون سيسولو بتحذيره من مغبة النضال المسلح. وقالوا له: «انظر هذا طريق خطر. لا تقدموا على هذا الحل قبل أن تكونوا مستعدين له. لأنكم إذا هزمتم مرة لن تقوم لكم قائمة».[44] عاد سيسولو مقتنعاً بالنصيحة، التي قبلها مانديلا، إلا أن زيارته بلا تفويض للصين صدمت قادة المؤتمر الوطني الإفريقي مثل لوثولي وماتثيوز، اللذين طالبا باعتذار. كان مانديلا محتفظاً بقناعته بأن «النضال المسلح ضروري جداً»، ولكنه سيدرك فيما بعد أنه كان مندفعاً يفكر مثل ثوري متهور.[45]

كان مانديلا حتى ذلك الحين فيه شيء من الجموح، كقنبلة طائشة بلا

المؤتمر الوطني الإفريقي، وكانت لخطاباته لمسات تضرم الحماسة، ستجلب المتاعب من قبل الحكومة. وفي عام1935 كتب أول خطاب رئيسي له بصفته رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي في الترانسفال. وتلي بالنيابة عنه في المؤتمر السنوي في أيلول (سبتمبر) لأنه كان ممنوعاً من الحضور. جاء في الخطاب: «الشعب اليوم يتحدث بلغة العمل. وهناك استفاقة جبارة بين الرجال والنساء في بلدنا». وتذكر أمجاد حملة التحدي، عندما تحول البلد كله إلى ساحات معارك، انهمكت قوى التحرير في نزاع خالد الذكر ضد القوى الرجعية والشر.

ورفرف علمنا في كل ساحة معركة: «واضطر مانديلا فيما بعد إلى أن يبيّن للقضاة أنه كان يكتب بشكل مجازي».[46]

وانطلق الخطاب ليربط نضال جنوب إفريقية بسواه في إفريقية، حيث كان المعادون للإمبريالية يكتسبون قوة: «القارة برمتها تغلي استياء وقد اندلعت الثورات في ساحل الذهب ونيجيرية وتونس وكينية، وروديسية وجنوب إفريقية». وشرح كيف «أثارت المذبحة التي ارتكبتها بريطانية بحق الشعب الكيني احتجاجاً عالمياً. حيث يحرق الأطفال أحياء، وتغتصب النساء، ويعذبن، ويجلدن ويسكب الماء الغالي على أثدائهن لانتزاع الاعترافات منهن». وأنهى خطابه بمقولة لنهرو، أصبحت عنوان الخطاب: «السير نحو الحرية ليس سهلاً»: «بإمكانكم أن تروا أن الطريق إلى الحرية ليست سهلة في أي مكان، ولا بد لكثير منا أن يعبر وادي أطياف الموت مراراً قبل الوصول إلى القمم التي نتطلع إليها».[47]

كان مانديلا أكثر تأثراً بنهرو مما كان يحب أن يعترف، وقال بعد أربع وأربعين سنة: «لقد اقتبست كثيراً من كتابات نهرو دون أن أنسبها إليه، وكان ذلك عملاً سخيفاً. لكن عندما يكون داخلك نقص في الآراء، فإنك تميل لأن تفعل ذلك»[48]، كما كان قد بدأ يميل إلى الخطابة الماركسية المعادية للاستعمار.

وبعد بضعة أشهر، عندما رفع الحظر عنه ثانية لفترة بسيطة ألقى خطاباً في مجلس السلم اليساري تهجم فيه بشكل مروع على الجشع الإمبريالي. «في توقها المجنون إلى الأسواق والأرباح لن تتوانى هذه القوى الإمبرالية عن قطع أعناق بعضها، وتخريب السلام، وإغراق ملايين الأشخاص الأبرياء بالدم وجلب الشقاء والمعاناة الهائلة للبشرية». وقال إنه لا يشاطر البرجوازيين إيمانهم بالتنمية المستمرة وإنما يتكهن بانقطاع في الاستمرارية «قفزة من مرحلة إلى أخرى»

في 13 كانون الأول(ديسمبر) 1953 تحدث مانديلا ساعة ونصف ساعة في اجتماع كبير في سوويتو. وقام أحد رجال الشرطة هو السيرجنت التحري هيلبرغ Helberg بتسجيل خطابه (بشكل غير دقيق لحسن الحظ) واستخدمه فيما بعد دليلاً على الخيانة. حذر مانديلا الحشد الهائل قائلاً: «علينا أن نلجأ إلى طرق جديدة في نضالنا. لم يعد الكلام من على المنابر كافياً. يجب القيام بمزيد من العمل وراء الستار أو حتى تحت الأرض». ومضى يقول لهم: «لن تريقوا الدماء هدراً. سنقيم صرحاً لكم قرب شاكا Shaka». [49]

ما من شك في أن خطاباته أصبحت أشبه بالخطابات الحربية، وأصبح التنافس الآن علنياً بين مانديلا الثوري ومانديلا المحامي. لكن وراء هذه الاستعراضية في المحاكم ومن فوق المنابر، مازالت هناك شكوك حول جديته كقائد. ومثل سواه من السياسيين المولعين بالقتال وهم خارج المنصب، مثل ثيودور روزفلت في عقد التسعين من القرن التاسع عشر ووينستون تشرشل في عقد الثلاثين من القرن العشرين، كثيراً ما كان يبدو مفسداً يريد القتال دون أن يكون وراءه تنظيم حقيقي أو خطة.

8

معنـى الحريـة

1953 ـ 1956

برغم تطور مانديلا السياسي إلا أنه احتفظ بقوميته الإفريقية الأساسية، وفخره بشعبه وتاريخه، وتصميمه على استعادة حقوقهم. ولكنه كان يبحث عن الحلفاء أنى ثقفهم: بين أوساط الليبراليين البيض، والغانديين الهنود، ورجال الدين المسيحي. وكان أكثر أصدقائه فعالية والتزاماً هم الشيوعيون الذين أعادوا تنظيم أنفسهم عام 1953 في الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي، اسم يؤكد انتماءهم المحلي وقاعدتهم الوطنية. كان الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي فريداً في تعدده العرقي، وبقي مختلفاً تماماً عن أحزاب البيض الأخرى، وعن الأحزاب الشيوعية في أمكنة أخرى، وكان يضم بعض الأعضاء غير الثوريين إطلاقاً، لكن بسبب تعريف بريتورية الخاص «للشيوعية المثالية»، التي ابتكرت على خلفية تصعيد الحرب البادرة، يمكن أن يوصف الجميع بأنهم ثوريون خطرون يستولون على المؤتمر الوطني الإفريقي، مما يبعد الأنصار المحتملين الآخرين.

سيصور (بعبع) الشيوعية بصورة أكثر تهديداً في المرحلة التالية من حملة المؤتمر الوطني الإفريقي، في التحضير لما سيسمى «ميثاق الحرية» سيجد ليبراليو جنوب إفريقية، وكثير من الغربيين المتعاطفين معهم، في الميثاق مؤامرة شيوعية صرفة تهدف إلى تحقيق نفوذ خفي من خلال جبهة شعبيه تقوم بتظاهرات مدروسة بحذر، وتستخدم قادة المؤتمر الوطني الإفريقي مخالب

ساذجة لتمرير دعاية الشيوعيين. لكن ذلك الرأي شوهته مرآة الحرب الباردة المبكرة. لم يكن فحوى الميثاق موجهاً ضد الرأسماليين أو الديموقراطيات الغربية، وإنما ضد الوطنيين ذوي الأفق الضيق، أفارقة كانوا أم إفريقيين. وقد كان الميثاق خرقاً تاريخياً بالنسبة لمانديلا ومعظم رفاقه. إذ ألزم المؤتمر الوطني الإفريقي بنبذ العنصرية وتوسيع قاعدة النضال، وسيصبح ذلك الميثاق بيانه الأساسي على مدى السنوات الأربعين التالية.

لم يكن صاحب ميثاق الحرية شيوعياً ولا مناهضاً يحب القتال، وإنما كان رجل الدولة المسن المحافظ من حزب المؤتمر الوطني الإفريقي زد. كي. ماثيوز معلم مانديلا في فورت هير. أجبر ماثيوز على العودة إلى جنوب إفريقية بعد سنة أمضاها في الولايات المتحدة في أيار (مايو) 1953، عندما رفضت الحكومة تجديد جواز سفره عاد بشعور أكثر راديكالية. فقد أصبح الآن أقل إعجاباً بالبطل الأمريكي الأسود العتيد بوكر تي.واشنغتون من مناوئه الراديكالي الدكتور دبليو ي. ب. دوبوا، مؤسس الرابطة الوطنية لتطوير الملونين.[1] وعندما وصل ماثيوز المطار صادر الفرع الخاص Special Branch كتباً لمؤلفين منهم أرنولد توينبي، وصورة فوتوغرافية لصديق زد. كي المغني والممثل الشيوعي بول روبسون Paul Robeson[2] وجد ماثيوز آمال شعبه قد تداعت كثيراً. وقد كان فوز الوطنيين الانتخابي الثاني في العام السابق أكبر مما بدا، ونوه بأن ذلك لأن «أحزاب المعارضة هي مجرد صور باهتة من حزب الحكومة فيما يتعلق بسياستها تجاه اللون».[3]

أول ما ناقش ماثيوز فكرة جمع جميع الأعراق لمناقشة إمكانية وضع دستور متعدد الأعراق كان على الغداء مع أولاده في بيته.[4] التقطت الفكرة جماعات أخرى، وفي آب (أغسطس) 1953 قام ماثيوز بصفته رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي في الكيب بطرح الفكرة رسمياً أمام المؤتمر السنوي: «ألم يحن الوقت بعد كي يفكر المؤتمر الوطني الإفريقي بمسألة الدعوة إلى عقد

مؤتمر وطني، مجلس للشعب، يمثل الشعب كله في هذا البلد بغض النظر عن العرق أو اللون، لوضع ميثاق الحرية من أجل جنوب إفريقية ديموقراطية في المستقبل؟». [5]

وتذكر فيما بعد: «لم أكن أدرك تماماً عندما تفوهت بهذه الكلمات أنني أرسي حجر الأساس لتهمة الخيانة» [6] علق مانديلا في سجنه بعد عشرين عاماً: إن الأمر كان يدعو إلى السخرية فماثيوز الذي كان ينتقد لموقف المتفرج هو الذي عبر عن الفكرة الحيوية التي أصبحت «الفلك الذي تدور فيه آمالنا». [7] رحب مانديلا بالمؤتمر المقترح كونه استعراضاً علنياً للقوة وقارنه بتأسيس المؤتمر الوطني الإفريقي عام 1912. واكتسب الاقتراح أهمية كبيرة، وبخاصة في ضوء الشك في أن المؤتمر الوطني الإفريقي سرعان ما يحظر جملة وتفصيلاً. [8]

أقرت الفكرة في المؤتمر السنوي التالي للمؤتمر الوطني الإفريقي في كوينزتاون في كانون الأول (ديسمبر)1953. كان أكثر ثقة وإعداداً من مؤتمر بلومفونتين قبل ذلك بسنتين الذي شن حملة التحدي. كان التوتر واضحاً بين الخطباء الماركسيين، الذين نظروا إلى النضال من منطلق طبقي، وبين الطرح المسيحي للرئيس ألبرت لوثولي الذي أصر عل أن «الدافع والتوق إلى الحرية يعودان إلى ـ استياء مقدس ـ » وهو بالتالي من منبت مقدس، لا يمكن أبداً أن يسكت إنسانياً على الدوام. [9] أراد بعض الوطنيين طرد سيسولو لتواطئه مع أعراق أخرى، لكن أغلبية الوفود كانت مقتنعة بالحاجة إلى التعاون: وأشار لوثولي إلى المثال الخطير للقومية الأفريقانية الضيقة وأصر على أن تكون القومية الإفريقية ديموقراطية تقدمية أوسع. وتمت الموافقة على الحاجة إلى ميثاق الحرية، وكلف المؤتمر التنفيذيين باتخاذ التحضيرات الفورية لمجلس للشعب يضم فيلق متطوعي الحرية الوطنية.

في آذار (مارس) 1954 ساعد سيسولو ومانديلا في تنظيم اجتماع مع

بعض حلفاء المؤتمر الوطني الإفريقي في تونغات Tongaat، قرب منطقة بيت لوثولي، التي حصرت حركته ضمنها الآن.[10] وأُلِّف مجلس عمل قومي من ثمانية أعضاء للتحضير لمؤتمر الشعب.

اثنان فقط من أعضاء المجلس (لوثولي وسيسولو) كانا من المؤتمر الوطني الإفريقي. الذي سارع الوطنيون إلى تأطيره كمؤشر للهيمنة الخارجية. كان بين الستة الآخرين اثنان من الكونغرس الهندي الجنوب إفريقي واثنان من منظمة الشعب الملون الجنوب إفريقية المؤسسة حديثاً، واثنان من الهيئة الجديدة من أنصار المؤتمر الوطني الإفريقي البيض، كونغرس الديموقراطيين الذي كان جله من الشيوعيين، الذين أدى إشراكهم إلى إثارة شكوك وتناقضات جديدة.

انكبت اللجنة المركزية لمنظمة الشعب الملون في جنوب إفريقية، والتي ضمت جو سلوفو وراستي بيرنشتاين، على تنظيم مؤتمر الشعب، فعقدت كثيراً من الاجتماعات السرية.[11] ذعر أعضاء المؤتمر الوطني الإفريقي الأكثر وطنية، والمتعمقون بالشؤون الإفريقية من النفوذ الشيوعي، لكن مانديلا قدر الجهد الكبير والالتزام التام الذي أبداه أصدقاء مثل برام فيشر Bram Ficher ومايكل هارميل Michael Harmel اللذين طوردا واضطهدا بقدر ما طورد واضطهد السود، واللذين تطلعا إلى ما كان يتوق هو إلى تحقيقه بالإطاحة بالهيمنة البيضاء.[12] ولم يعد يعتقد أن الشيوعيين مناوئين بالضرورة للكنيسة، كما لاحظ أن كثيراً من الشيوعيين السود كانوا مسيحيين قلباً وقالباً.[13] وعندما أتى كانون كولينز Canon Colline إلى جوهانسبورغ من لندن عام 1954، أكد له مانديلا أن المؤتمر الوطني الإفريقي ليس شيوعياً، بالرغم من أن الحكومة كانت تدفعه في ذلك الاتجاه «لم يكن في الوقت متسع لأن يكون هناك إمكانية تعاون حقيقي بين السود والبيض».[14]

دعا المؤتمر الوطني الإفريقي منظمة بيضاء أخرى شكلت حديثاً إضافة

إلى كونغرس الديموقراطيين للمشاركة في رعاية مؤتمر الشعب، وكان الحزب الليبرالي قد أسس عشية الانتخابات العامة في نيسان (أبريل) 1953 عندما زاد الوطنيون أغلبيتهم، لمواجهة قوى العنصرية. وكان بين قادتها مثقفون أكاديميون محترمون بينهم الروائي آلان باتون Alan Paton، وكانت ممولة جزئياً من قبل هاري أوبنهايمر Harry Opnerheimer رئيس الشركة الأنغلو أمريكية العملاقة.. كان الليبراليون معارضين تماماً للأبارثيد إلا أنهم لم يطالبوا بحق الانتخاب للجميع، وكانوا يناصبون الشيوعيين العداء. وقد كتب باتون فيما بعد: «بين الشيوعيين والليبراليين تنافر جذري». (15)

ابتعد معظم الليبراليين عن المؤتمر الوطني الإفريقي وأصدقائه الشيوعيين، إلا أن بعض قادة المؤتمر الوطني الإفريقي كانوا يصادقون أعضاء أفراداً في الحزب الجديد. حيث كان الرئيس لوثولي على اتصال، كما نوه مانديلا، بأكثر الليبراليين ليبرالية، ورحب بالحزب كحليف في وجه غلبة تفوق البيض. مانديلا أيضاً كان له أصدقاء ليبراليون، خاصة باتريك دانكان Patrick Dancan الذي انضم إلى حملة التحدي. إلا أنه كان ينتقد الحزب الليبرالي. وكان قد بدأ يستشعر الحاجة إلى العنف، واعتقد بأن الليبراليين سيقفون في وجهه. كما أنه كان يضيق ذرعاً برفض الليبراليين دعم حق الاقتراع للجميع.

في حزيران (يونيو) 1953 كتب مانديلا مقالاً بعنوان «ضوء كاشف للحزب الليبرالي»، نشر في الدورية الشهرية الجديدة (التحرير) «ليبريشين» التي كان مايكل هارميل رئيس تحريرها، ومانديلا نفسه في هيئة التحرير. هاجم مانديلا إصرار الليبراليين على «الوسائل الديموقراطية والدستورية» ورفضهم دعم «صوت واحد لكل راشد». ورآهم جزءاً من الطبقة الحاكمة الأوروبية التي قال إنها «تكره وتخشى فكرة الديموقراطية الثورية في جنوب إفريقية بقدر ما يخشاها ويكرهها المالانيون والأوبنهايمريون»(16)، وتوقع فراقاً واضحاً في السبل بين أولئك الذين ألزموا أنفسهم بالبرنامج الثوري وأولئك الذين لم يفعلوا، بين

أصدقاء وأعداء الكونغرس. وسأل؛ كما سيسأل مراراً أخر «على أي جانب أنتم أيها السادة؟». [17]

أجاب الليبراليون عن طريق البروفيسور توم برايس Tom Price الذي صب احتقاره على «عبارات مانديلا الوردية التي ولدت مع ثورة أوكتوبر»، فكان ذلك هجوماً أسف مؤرخ الحزب الليبرالي راندولف فيغن Randolph Vigne لأنه «لم يفد في شيء سوى أ نه رسم خطوط المعركة بين الليبراليين والكونغرسيين الجدد بالأسود والأبيض». رحب الليبراليون في البداية بفرصة المساهمة في رعاية مؤتمر الشعب إلا أنهم سرعان ما اقتعنوا بأنهم يدفعون إلى شرك «جبهة شعبية» تتخذ قراراتها مسبقاً عناصر شيوعية. كما اعتقدوا أن الكونغرس (المؤتمر) سيكون «شأناً صغيراً جداً»، وقرروا الانسحاب قبل أن يعقد، مما أشعر كثيراً من الأعضاء بالندم فيما بعد. فقد خلص المؤرخ دافيد إيفيرات David Everatt إلى «أن ذلك القرار كان واحداً من أكثر القرارات إساءة للحزب». [18]

واستمرت التحضيرات دون الليبراليين، ولكن بكثير من الشحن من قبل الشيوعيين البيض في كونغرس الديمقراطيين وعقدت جماعات في طول البلاد وعرضها مئات الاجتماعات، وقدمت مسوداتها ومقترحاتها التي ستجمع في ميثاق حرية كبير ليطرح أمام الكونغرس. ما من شك في أن الاستجابة كانت حيوية، تلحظ مفاهيم متفاوتة للحرية؛ من ضمنها حرية أن يكون للرجل عشر زوجات! وفيما بعد قال جو سلوفو إن «عشرات الآلاف من القصاصات الورقية أتت كالفيضان: مزيج من أوراق الكتابة الناعمة، وصفحات مزقت من كتب التمارين المدرسية ملطخة بالحبر، وقطع من الورق المقوى وقصاصات من أكياس الورق البنية والبيضاء، وحتى الهوامش غير المطبوعة من الصحف»[19]! شك بعضهم بأن هذا الفيض من الديمقراطية لم يكن غنياً بقدر ما بدا. ولاحظ سيدني كينتريدج Sydney Kentridge الذي سيصبح فيما بعد مستشار مانديلا، أن كثيراً من الطلبات كتبت بالخط نفسه، وشك بأن تدبيراً (تكنيكاً) شيوعياً سرياً

ينشط وراء ذلك بغرض إبعاد الجماهير عن قادتهم السابقين.[20] إلا أن ميثاق الحرية الذي انبثق أخيراً كان بعيداً كل البعد عن كونه بياناً شيوعياً. وبعد مضي فترة طويلة بقي مانديلا على قناعته بأنها «وثيقة ولدت من قلب الشعب. ولم تكن شيئاً فرض من الأعلى. ولهذا فهي مازالت سارية حتى اليوم».[21] ودهش بمدى تقدم الجماهير على السياسيين في مجالات عديدة. «تبين الناس أن القوة السياسية ضرورية ولكنهم أدركوا أيضاً أنها ستكون بلا معنى دون قوة اقتصادية. كما صدم أيضاً بعزوهم إلى الوطنية الفائقة، وقبولهم بمبدأ أن جنوب إفريقية ملك لكل شعبها».[22]

وراء الكواليس عمل مانديلا وثيقاً جداً مع وولتر سيسولو، الذي كان الآن ملاحقاً من قبل الشرطة. وقال زد. كي. ماثيوز للمؤتمر الوطني الإفريقي في الكيب في حزيران (يونيو) إن سيسولو يعمل وراء / الستار الحديدي/ في الترانسكي مثل كزبرة الثعلب القرمزية(*) ـ وذلك قبل أن يرث مانديلا ذلك اللقب ـ: «إنهم يبحثون عنه هنا، ويبحثون عنه هناك، يبحثون عنه في كل مكان».[23] وسرعان ما أمسكته الشرطة في منزله في أورلاندو في تموز (يوليو) 1954. كنت معه بالمصادفة، كان يتحدث بلهجته التحليلية المعهودة عن المنع والاعتقال عندما دخل إثنان إفرقانيان من الشرطة السرية. كانا لطيفين بشكل غير متوقع: «ها قد وجدناك أخيراً. لدينا رسالتين من وزير العدل لك». أجاب سيسولو «كنت أترقب وصولكم.. اثنان فقط؟ هذا لن يؤثر في شيء كما تعلمان فالنضال سيستمر!». ابتسم التحريان وقالا: «لتحيا إذاً إفريقية».[24]

في اليوم التالي اعتقل سيسولو وصدر بحقه فيما بعد حكم بالسجن لمدة ثلاثة أشهر لحضوره اجتماعاً ضم خمسة أشخاص. لكنه بقي القوة المحركة وراء المؤتمر الوطني الإفريقي. وفي آب (أغسطس) 1954 ذكر أنه قبل خمس سنوات وعد كأمين عام لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي «سأكون تحت

(*) عشبه ذات أزهار قرمزية تنطبق حين تسوء الأحوال الجوية (المترجمة).

تصرفكم بشكل كامل». وشرح كيف أدى الحظر المربك إلى إبعاد معظم أعضاء التنفيذي الوطني، ومنهم مانديلا، لكنه أكد أن الحركة تزداد قوة: «إن الحكومة قد اهتزت، لقد انقضى الزمن الذي كان بإمكانها حكم البلد وكأننا، نحن الشعب، ليس لنا وجود».[25] والواقع أن سيسولو كان ما يزال بنظر زملائه أميناً عاماً للمؤتمر الوطني الإفريقي، ومانديلا شريكه الحميم.

وضع المسودة الأولى لميثاق الحرية المهندس الشيوعي راستي بيرنشتاين، الذي أضاف مقدمة وخاتمة بلهجة خطابيه اعتبرها فيما بعد مفرطة في التفتح.[26] وفي أوائل حزيران (يونيو) عرضت المسودة على مجموعة تخطيط صغيرة، من ضمنها مانديلا، الذي أجرى بعض التعديلات. كان معنى الميثاق سيصبح ساحة معركة على مدى الخمس والثلاثين سنة القادمة، في حين بقي مخللاً في التاريخ، وقد سجن واضعوه أو نفوا إلى الخارج. وكان يدان أحياناً كوثيقة ماركسية، أبرز ما تعد به هو أن «الثروة المعدنية تحت الأرض، وصناعة المصارف والاحتكارات، ستؤول ملكيتها إلى الشعب كله». لكن الحقيقة هي أن الميثاق كان مصمماً ليعطي كل شيء للجميع: رأى مانديلا أنه جبل من طلبات العامة، المنبثقة من حياتهم اليومية.[27] وكان ينادي بمبادئ أكثر مما ينادي بسياسات، بأسلوب حماسي كأنه مزمار سياسي. قال مايكل هارمل، المؤرخ الماركسي لمنظمة الشعب الملون في جنوب إفريقية، وله بعض الحق، إن الميثاق يتبع ما درجت عليه العادة من إعلان حقوق الثورة، الفرنسية والأمريكية، كما يعكس شيئاً من إعلان حقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة.[28]

استهل ميثاق الحرية بالكلمات التالية:

نحن، شعب جنوب إفريقية، نعلن لبلدنا ولكل العالم:

أن جنوب إفريقية ملك لكل من يعيش فيها، أسود كان أم أبيض، وأن ليس لأية حكومة أن تدعي السلطة بحق، ما لم تعتمد على إرادة الشعب.[29]

حدد مؤتمر الشعب يوم 26 حزيران (يونيو) 1955 (وقد رسخ الآن احتفالاً سنوياً بعيد الحرية) وعقد المؤتمر في ملعب رياضي خاص في كليبتاون KlipTown قرب سويتو. احتشد ثلاثة آلاف من وفود جميع أرجاء البلاد في المشهد المبهج، الذي بدا أشبه بعيد ديربي Derby Day (يوم سباق الخيل) من تظاهرة مناهضة. وكان بين الوفود قرويون سود متعبون وعمال مكاتب بربطات عنق زاهية، ومحامون هنود ناعمون مع زوجاتهم اللاتي يرتدين الساري، وجدات سود يترنحن في تنانير واسعة بألوان المؤتمر الوطني الإفريقي.[30] كان التأثير الشيوعي واضحاً بدلالة الأكشاك التي توزع كتيبات يسارية ورسالة أخوية من تشو إن لاي في بيكين، لكن الاجتماع بحد ذاته كانت له طبيعة مرتاحة وحميمة تميز اجتماعات الكونغرس التقليدية، بحضور عناصر مسيحية بينها الأب هادلستون، الذي منح وسام شرف خاص من المؤتمر الوطني الإفريقي.

وقد منع مانديلا، مثل معظم المنظمين، من الحضور واستطاع أن يرقبه من بعيد فقط، وكان قد توجه بسيارته إلى كليبتاون برفقه سيسولو، وتجول حول الجمع متنكراً، ووقف بعض الوقت قرب رجل ملتح من الترانسكي، معجباً بالتزام الناس.[31] بدا مثيراً للدهشة أن اجتماع كليبتاون نفسه لم يمنع، وسرعان ما اتضح السبب في ذلك. . .

راقب مانديلا المؤتمر وتابع سيره البطيء، في اليوم الأول تلي ميثاق الحرية بثلاث لغات، وتمت الموافقة عليه بصيحات /إفريقية/ من الجماهير. وفي اليوم الثاني قوبلت كل فقرة من الميثاق بالهتاف والتصفيق، إلى أن وصلوا إلى كلمات «سيعم السلام والصداقة». عند تلك النقطة قوطع الاجتماع فجأة باندفاع رجال الشرطة وعناصر الأمن بين الحشود مسلحين بالبنادق. وأمسك ضابط أفريقاني مكبر الصوت وأعلن أنهم يحققون في قضية خيانة عظمى، ويبحثون عن وثائق مخربة. سجلت الشرطة أسماء جميع الحضور قبل أن تسمح لهم بالمغادرة، حيث انسحبوا بسلام فيما كانت فرقة موسيقية تعزف بأبواق

مبعوجة وطبول مكسرة أغاني إفريقية، شعر مانديلا برغبة شديدة في الانضمام إليهم، إلا أنه راجع نفسه، وعاد أدراجه إلى جوهانسبورغ ليحضر اجتماعاً طارئاً لقيادة المؤتمر الوطني الإفريقي. كان مرضياً أن تدرك الشرطة أهمية المؤتمر. لكن مانديلا عرف أن الغارة كانت «مؤشراً بانعطاف حاد جديد.»[32]

سرعان ما اكتسب ميثاق الحرية زخماً مستقلاً. ولما لم يكن قد أقر بشكل كامل في مؤتمر الشعب، كان وضعه مقلقلاً. حيث رأى راستي بيرنشتاين أن الميثاق قد «خرج عن سيطرة المؤتمر وبسبب قلة التبصر فقد اتخذ منحى حراً خاصاً به».[33] أسهبت الصحف البيضاء في تغطية أخبار الاجتماع وتدخل الشرطة فيه إلا أنها لم تنشر الميثاق نفسه. لكن نص الميثاق سرعان ما تردد صداه داخل المؤتمر الوطني الإفريقي وتحداه نقاد أقوياء.[34]

ناقش المؤتمر السنوي لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي في كانون الأول (ديسمبر) 1955 الميثاق في جو عاصف، فيما منع معظم مهندسيه من الحضور. وتشكت التنفيذية الوطنية من أن كثيراً من فروع المؤتمر الوطني الإفريقي «أظهرت تراجعاً تاماً في النشاط، كما لو أن بعضهم ندم على ولادة هذه الفكرة النبيلة والعظيمة».[35] وشعر لوثولي نفسه بعدم الارتياح، كما قال لآرثر ليتيلي Arthur Letele زميله في المؤتمر، لكنه أدان الميثاق وطرح فكرة «القومية الإفريقية الشاملة» التي تضم جميع الجنوب إفريقيين. قاوم كثير من الوطنيين، الذين أطلقوا الآن على أنفسهم اسم «أنصار إفريقية»، التعاون مع الأعراق الأخرى. وكتب رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي السابق ألفريد زوما رسالة تشكى فيها من «ميول معينة» داخل المؤتمر. التي اعتقد أنها «فقدت هويتها كحركة تحرر وطنية ذات سياسة خاصة بها مختلفة عن القيادة الإفريقية»، وأكد أستاذ مانديلا السابق بيتر مدا القومية الأصلية لرابطة الشباب في مقالة في مجلته «الإفريقي» جاء فيها: «لمسنا منذ البداية الحاجة الملحة لتخليص المؤتمر

الوطني الإفريقي من الهيمنة الأجنبية». وقال: «لم يترك أي رجل أبيض بصمته علينا». [36]

وأجّل المؤتمر السنوي عملياً إقرار ميثاق الحرية إلى مؤتمر خاص يعقد في إورلاندو في نيسان (أبريل) 1956. وهناك أثار عاصفة جديدة. تذمر أنصار إفريقية من أن المؤتمر يزخر بـ «الميثاقيين» وهاجموا فكرة أن الأرض ملك للجميع، بشكل واضح في عبارة «جنوب إفريقية ملك لكل من يعيش فيها» التي اقترحت الملكية العامة. وكان لدى لوثولي وفرع ناتال مخاوف خاصة حول التعابير الاقتصادية في الميثاق، إلا أنهم تجاوزوها لصالح الوحدة، إذ لم يشاؤوا شد عضد أنصار إفريقية. [37]

كان لوثولي يقاوم الضغط للابتعاد عن الحلفاء اليساريين وفي ذلك العام اقترحت ماري لويز هوبر صديقته البيضاء الغريبة الأطوار في كاليفورنيا، التي كانت تجمع التبرعات للمؤتمر الوطني الإفريقي في أمريكة، أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يغير محاميه الرسميين، مانديلا وتامبو، لأن سمعتهما كيساريين تنفر المتبرعين. أجاب لوثولي أنه في الوقت الذي لا يحب الشيوعيين «فإنه ليس تصرفاً يخلو من الحكمة فحسب وإنما يعني أن نضيع خدمات أي من محامينا المخلصين والمجربين لمجرد اتجاههم اليساري». [38]

أقر ميثاق الحرية أخيراً من قبل المؤتمر. وكان إنجازاً كبيراً أن يتبنى المؤتمر الوطني الإفريقي بياناً غير عرقي في الوقت الذي كانت فيه الحكومة الأفريقانية تفرض سلطتها العنصرية الشاملة. [39]

كتب مانديلا فيما بعد: «للمرة الأولى في تاريخ بلدنا شجبت القوى الديموقراطية بغض النظر عن العرق والقناعة الإيديولوجية والانتماء الحزبي والمعتقد الديني، ونبذت العنصرية بكل أشكالها». [40] إلا أن الميثاق أقر مقابل انشقاق ضار، سيقسم المؤتمر الوطني الإفريقي إلى قسمين بعد عامين من ذلك.

أعطى نيلسون مانديلا تفسيره الخاص لميثاق الحرية، الذي ستصبح له أهمية كبيرة فيما بعد، في مقال مهم في مجلة التحرير «ليبريشين» في حزيران (يونيو) سنة 1956، في الذكرى السنوية الأولى لمؤتمر الشعب. لم يكن ذلك رأيه وحده: فجميع المقالات في مجلة «ليبريشين» تراجعها هيئة التحرير كلها، وقد طلب من مانديلا أن «يصحح الافتراض بأن ميثاق الحرية كان وليد دولة اشتراكية».[41] رسخ المقال التفسير الماركسي للميثاق، الذي قال مانديلا إنه «وثيقة ثورية لأن التغييرات التي يصورها لا يمكن تحقيقها دون كسر التركيبة الاقتصادية والسياسية لجنوب إفريقية الحالية». وركز على الحاجة إلى الملكية العامة قائلاً: «الميثاق يسدد ضربة قاضية لشركات مناجم الذهب المالية الاحتكارية التي نهبت البلد على مدى قرون واستعبدت شعبه».[42]

لكنه رحب في مقطع حاسم بالفرصة التي ستتاح للتوسع في الاستثمار الحر قائلاً «إن فك هذه الشركات الاحتكارية وإخضاعها للديموقراطية سيفتح مجالات جديدة لظهور طبقة برجوازية غير أوربية غنية. ولأول مرة في تاريخ هذا البلد ستتاح للبرجوازية غير الأوربية فرصة ملكية اسمها الخاص وستزدهر المطاحن والمصانع والتجارة الصحيحة والاستثمار الحر كما لم تزدهر من قبل أبداً».[43]

بقي صدى هاتين الجملتين يتردد في المحاكمات والنقاشات الغاضبة في جزيرة روبن. وقد حذفت ـ كما نوه التروتسكيون بمتعة ـ من مقالة «الليبريشين» عندما ظهرت في كتابات وخطابات مانديلا، التي حررتها روث فيرست في لندن وأعيدت طباعتها مرات عديدة.[44] لكن مانديلا واصل التعبير عن اعتقاده بـن «الاستثمار الخاص سيشهد في ظل المؤتمر الوطني الإفريقي ازدهاراً لم يعرفه من قبل»، سيكون له أهمية عملية جداً بعد أربعين عاماً.

(همشت) النقاشات حول الأنظمة الاقتصادية في المستقبل لصالح النشاطات الأكثر فورية للحكومة الأفريقانية. وفي منتصف الخمسينات كان

الوطنيون يبسطون سياسة الأبارثيد بسرعة أكبر بكثير و أعمق مما توقع مانديلا ورفاقه في البداية عام 1954. تقاعد الدكتور مالان عن عمر يناهز الثمانين، ليخلفه كرئيس للوزارة هانز ستريجدوم، المدافع الضاري عن الهيمنة البيضاء، دون مهارة ثقافية تذكر. إلا أن مفهوماً أكبر طموحاً «للأبارثيد الكبير». كان قيد الإعداد من قبل الدكتور هندريك فيروورد Hendrik Verwoerd وزير الشؤون الأهلية، الذي سيصبح رئيساً للوزراء عام 1958.

كان فيروورد، بوجهه البريء وصوته الرقيق، حالماً ليست لديه أية شكوك حول الصوابية الأخلاقية لمخططه للفصل الكامل بين السود والبيض، مخطط جذب اهتمام المثقفين الأفارقة وسواهم كحل نهائي لمشكلة العلاقات العرقية. لكن لا يمكن تحقيقه إلا ببرنامج هندسة اجتماعية قاس ومتطرف، وترحيلات جماعية أشبه بتصرفات الحكومات الشيوعية في أوروبا الشرقية منها بأي نموذج للمشاريع الحرة في الغرب. وفي الوقت الذي كانت الحكومات الأفريقانية تصور نفسها نصيراً للمشاريع الحرة، كانت تباشر تدخلاً حكومياً لا سابق له يعتدي باستمرار على الحياة اليومية للإفريقيين. وبدت النواحي السوداء الجديدة، بآلاف البيوت المتماثلة التي لا تزينها الدكاكين أو التجارة، كمجسمات ساخرة للسكن الشعبي للبروليتاريا المحتشدة.

أمضى مانديلا وقتاً طويلاً يحلل ويفند مؤامرة فيروورد المقززة ـ على حد تعبيره ـ.[45] ورأى أن فيروورد يتبع الأفكار العريضة لاشتراكية هتلر الوطنية ومبادئه العرقية، التي خطط لأن يحكم بموجبها المستعمرات الألمانية في إفريقية. وفي حزيران (يونيو) 1957 كتب مانديلا: «لقد أصبحت الفاشية حقيقة حية في بلادنا. وأصبح التغلب عليها المهمة الأساسية لكامل الشعب في جنوب إفريقية».[46] ولكن كان لدى فيروورد ما يدعوه إلى الاعتقاد بأنه سيكسب دعم قادة القبائل، وذلك عن طريق تشجيع تنافساتهم وخلافاتهم. وأتيحت له فرصة خاصة ليفعل ذلك في الأماكن البلدية حيث الزعماء يخشون على نفوذهم

الإقليمي ومزاياهم. قلة فقط من الزعماء، مثل ألبرت لوثولي، كانت مستعدة لأن تستقيل من زعامتها على أن تخدم كقوة أجنبية. وكما في أوروبا إبان الحرب، كان لا بد من شجاعة كبيرة لمقاومة إغراء العمالة لنظام بتلك القوة.

رأى مانديلا الآن أنه ينتمي بحزم إلى جوهانسبورغ، التي صاغت خطه السياسي ومواقفه الراشدة. إلا أنه أبقى على علاقاته بالريف، كما أن أصوله الملكية ونشأته قد أعطياه إحساساً أعمق بالتفاعل مع أرض وطنه أكثر من أي من زملائه. إذ كتب فيما بعد: «إن أربع عشرة سنة من الحياة المزدحمة في أكبر مدن جنوب إفريقية لن تقتل روح الفلاح فيَّ». وفي أيلول (سبتمبر) 1955 نفذت فترة منعه من السفر فقرر أن يزور الترانسكي ثانية.

وإذ قاد سيارته عبر ناتال استمتع مرة أخرى بالمشهد الطبيعي الواسع، وبقربه من الطبيعة، وشعر بلذة تنعكس من خلال كتاباته. تذكر ارتباطات الأرض التاريخية، والمعارك القديمة من أجلها أولاً بين الزولو والبريطانيين، ثم بين الأفارقة والبريطانيين. وتساءل: «هل هو الأفريقاني نفسه الذي قاتل بكل تلك الضراوة من أجل حريته، هو الذي أصبح ذلك الطاغية الذي يضطهدنا؟». [47] وفي دوربان أقام عند صديقيه الهنديين إسماعيل وفاطمة مير، وزار لوثولو وهو تحت الحظر في غروتفيل. ولدى وصوله إلى بيت الأسرة في الترانسكي رأى والدته ثانية، بشعور مختلط من الحنين والتقصير. ودعاها لتأتي وتقيم معه في جوهانسبورغ، لكنها اختارت أن توالي حياتها وحيدة، تبعد عشرين ميلاً عن أي طبيب، فلاحة بسيطة ما زالت تحرث الحقول وتتحمل الظروف القاسية. [48] في السجن كان دائماً مشغول البال بها، لكنها شجعته على الدفاع عن معتقداته، وعاد فأكد لنفسه أن نضاله يعطي شعبه معنى جديداً للحياة. [49]

كان هدفه الرئيسي من زيارته الترانسكي سياسياً. فقد كانت الحكومة مصممة الآن على بسط الأبارثيد بواسطة قانون سلطات البانتو الجديد، الذي

يرفع سوية الزعماء محلياً لكنه يتبعهم بحكامهم البيض في بريتوريا. وترانسكي كانت حقل التجربة. رفض البانغا Bunga ـ مجلس زعماء الترانسكي ـ القانون الجديد عام 1952، إلا أن الحكومة أغرتهم بسلطات مالية وقضائية أكبر، وعام 1955 صوت البانغا على القبول به. انزعج مانديلا، لكنه كان واقعياً، فقد فهم بوضوح، بموجب أرضية الزعامة التي عاشها، مدى إغراء التواطؤ. وفي تموز (يوليو) 1955 كتب مقالاً أثار جدلاً كبيراً لمجلة / فايتينغ توك/ Fighting Talk بعنوان / إغواء البانغا لقبول الأبارثيد / Bluffing the Bunga into Apartheid وأشار إلى أن الحكومة ستدفع لكل زعيم أو رئيس، وتطرده إذا لم يستجب، كما طرد الزعيم لوثولي عام 1952. كان ذلك جزءاً من «إغواء متعمد» لخداع القادة القبليين السذج إلى الاعتقاد أن لهم صوتاً في حكومتهم. لكن مانديلا أدرك ضعف دعاية المؤتمر الوطني الإفريقي في مواجهة تأثير الزعماء على الناس، وحث المؤتمر الوطني الإفريقي على إعادة النظر في قراءة مقاطعة الانتخابات الترانسكية القادمة: «ألا يجب أن تستخدم هذه الهيئات كمنابر لفضح سياسات الحكومة الوطنية وجذب الناس نحو حركة التحرير؟». (50)

نظر مانديلا إلى النزاع من زاوية شخصية جداً. فقد كان قيصر ماتانزيما ابن أخته الذي كان بطلاً في فورت هير، قد أصبح الآن الزعيم الأكبر لأراضي تيمبولاند الغربية الشاسعة، وقد ساعد في إقناع البانغا بقبول القانون الجديد. كان بين الرجلين اللذين خلقا للزعامة، وكلاهما محام جدير بالثقة، أمور كثيرة مشتركة، وود عائلي دائم. إلا أن ولاءاتهما الآن كانت مختلفة تماماً، ووجدا نفسيهما على طرفي نقيض في نظار كلاسيكي بين المتواطئ والمقاوم. لم يعد مانديلا يؤمن بمبدأ الوراثة الذي أفاد منه ماتانزيما، فيما كان ماتانزيما يرى مانديلا جوهانسبورغياً «بعيداً عن أهل وطنه».

أثناء زيارته للترانسكي تجادل مانديلا مع ماتانزيما طوال الليل، متحاشياً بحذر التعميمات النظرية. وحذره من أن الحكومة تهدف إلى تفريق السود

للسيادة عليهم، وقال إن المقاومة ستتفادى مذابح قادمة. أجاب ماتانزيما بأن الزعماء سيزدادون قوة في ظل نظام الأبارثيد، وأن سياسة التعددية العرقية ستزيد الانشقاق العرقي، مما يؤدي إلى إراقة الدماء والمرارة. ورأى نفسه كأنه في خضم معركة.

يذكر ماتانزيما بعد أربعين سنة «كان موقفي موقف المصالحة مع الأفارقة. فالأسود والأبيض يجب أن يلتقيا في الترانسكي».[51] حزن مانديلا للجمود. وكتب فيما بعد في السجن: «كنت أتمنى أن أقاتل جنباً إلى جنب معه. وأشاركه أكاليل الغار». لكن ماتانزيما كان وقتها منحازاً بشدة إلى جانب أعداء المؤتمر الوطني الإفريقي.

تابع مانديلا جولته في البلاد. فذهب إلى بورت إليزابيث حيث التقى لأول مرة غوفان مبيكي الناشط الماركسي الذي كان ينظم المؤتمر الوطني الإفريقي في الكيب الشرقية. ثم زار منظم الحملة الإنكليزي كريستوفر جيل Christopher Gell الذي كان يعيش برئة حديدية، كان يوجه منها النصيحة الخالصة للمؤتمر الوطني الإفريقي والانتقادات الحادة للأبارثيد في رسالته الإخبارية ـ تقرير أشعة إكس من إفريقية ـ لم ينس مانديلا أبداً هذا الحليف غير العادي. وعندما مات جيل قام المؤتمر الوطني الإفريقي بتنظيم جنازته، التي كان الندابون السود فيها أكثر من البيض.

تابع مانديلا رحلته إلى كيب تاون، مسحوراً بطريق الحديقة المشهور Garden Route، وتوقف في كلاركسون Clarkson ليستمتع بالمنظر الرائع ويرقب إمكانية اختباء المقاتلين الفدائيين في الغابات: «كان رأسي مليئاً بالأفكار الخطيرة». وفي كيب تاون لم ير التروتسكيين الذين تناقش معهم منذ سبع سنين، ولكنه تحرك بين أوساط الشيوعيين ورجال الدين. وزار مكاتب النيو أيدج New Age ـ العصر الحديث ـ حيث وجد الشرطة تقوم بالتفتيش وتضع يدها على أوراق، وذلك نذير شؤم قادم. بقي مانديلا أسبوعين في ناحية لانغا

Langa السوداء مع ميثوديين ناشطين في المؤتمر الوطني الإفريقي، وتجول بسيارته حول الكيب لينظم الفروع (برغم أنه كان يرتاح أيام الآحاد). وقبل أن يغادر الميثوديين ركع وصلى ليحفظه الله في رحلة العودة.

عاد مانديلا إلى أسرته في أورلاندو وهو يشعر بالنشاط والحيوية، وبأنه ازداد معرفة بحقائق الريف. وحذر رفاقه من أن المؤتمر ضعيف جداً في الترانسكي حيث يجابهه الزعماء المحافظون والشرطة السرية القوية، وحث على «مقاطعة من الداخل». كان النقاش عاجلاً، في الوقت الذي اندفعت الحكومة قدماً بتطبيق «الأبارثيد الكبير». وكانت لجنة حكومية، برئاسة البروفيسور اف.آر. توملينسون F. R. Tomlinson ليس فيها أي أسود قد وضعت مخططاً طموحاً لتأليف سلسلة من الكيانات المنفصلة، (البانتوستان) Bantustans يتطور فيها الإفريقيون وفق خطوطهم الخاصة، بإدارتهم الذاتية وصناعاتهم.

قبلت الحكومة معظم الخطة فيما رفضت مقترحاتها الأكثر ليبرالية، واستعدت لتقسيم جنوب إفريقية إلى (بانتوستانات) منفصلة، أولها الترانسكي. وحذر مانديلا من أن (البانتوستانات) لن يكون لديها تصور حقيقي لتطوير سياساتها، فيما هي تقدم خدمات من اليد العاملة الرخيصة للمخدمين البيض.[52]

كانت خطط الأبارثيد تنتشر في كل مكان، كما كانت الحكومة مصممة على فرض فصل تام في المدارس .وأعطى قانون تعليم البانتو الذي صدر في نيسان (أبريل) 1953 بريتورية سيطرة على جميع مدارس البعثات، وصولاً إلى فرض مبدأ (حسب تعبير فيروورد الشهير) «لا مكان للبانتو بين أوساط مجموعة الأوروبيين خارج مستوى بعض أنواع الخدمة». وكما قال فيروورد للمجلس النيابي «الظروف العرقية لا يمكنها أن تتحسن إذا أعطي نوع خاطئ من التعليم للأهالي. إنهم لا يستطيعون التطور إذا كانت نتيجة تعليم الأهالي هي تخريج

أناس محبطين، لديهم ـ نتيجة للتعليم الذي تلقوه ـ آمال في الحياة لا تسمح العلاقات في جنوب إفريقية بتحقيقها فوراً». [53]

كان مانديلا مجرد واحد من الأهالي المحبطين. فإزاء كل ما كان يتشكى منه في الماضي حول إمبريالية البعثات فإنه كان دائم التقدير لأساتذته، وسيصبح أكثر امتناناً لهم فيما بعد. وحزن عندما وافق الميثوديون على تسليم مدارسهم للحكومة: «لا بد أن فيروورد قد رقص»[54]، كما سلمت معظم المدارس الانغليكانية، لكن الكاثوليك الروم أبقوا على مدارسهم دون مساعدة الدولة. [55] خشي مانديلا أن يؤدي نظام التعليم القبلي الجديد، المبني على الفصل الإقليمي، إلى مزيد من الإساءة للوحدة الوطنية للمؤتمر الوطني الإفريقي: «إن الشعب الإفريقي يجزأ إلى وحدات قبلية صغيرة، معزولة عن بعضها بعضاً، للحيلولة دون نمو الشعور الوطني فيما بينهم، ولترسيخ مستقبل قبلي معزول وضيق». [56]

فجر قانون تعليم البانتو موضوعاً شائكاً هو مدارس الأبارثيد. كان مانديلا واقعياً أكثر من معظم أعضاء المجلس التنفيذي الوطني للمؤتمر الوطني الإفريقي الذي أراد المقاطعة الدائمة. فحذر من أنهم لن يستطيعوا متابعتها، ولن يتمكنوا من تقديم بديل فاعل. ويجب ألا يعدوا بما لا يستطيعون تنفيذه. إلا أن رأيه لم يؤخذ به، وناشد المؤتمر الوطني الإفريقي إبقاء الأطفال بعيداً، وحاول إحداث مدارس تابعة له. إلا أن مدارس المؤتمر الوطني الإفريقي كانت تخضع لانتهاكات الشرطة، وأصبح الأهالي تواقين إلى أي نوع من التعليم. واضطر المؤتمر الوطني الإفريقي إلى التخلي عن المقاطعة. وسيحكم المؤرخون على خطتهم بقسوة؛ إذ كتب فرانك ويلش Frank Welsh عام 1998 «بين جميع الحملات التي قام بها المؤتمر الوطني الإفريقي، كانت الحملة المناهضة لتعليم البانتو الأفقر تخطيطاً، والأكثر فوضى، وقد اعتبرها معظم الإفريقيين الأكثر بلبلة». [57] وبرر تحذير مانديلا. إذ كتب: «كانت مسؤولية كبيرة، أن تختار

أهون الشرين إما أن تقاتل حتى النهاية المرة، حتى إذا انقلب معظم الأطفال إلى الشوارع، وبين حل وسط يستطيع على الأقل أن يبقيهم في غرف الدرس». [58]

سرعان ما اتبع الأبارثيد في المدارس بالأبارثيد في الجامعات. إذ ضغطت الحكومة التعليم العالي في القالب نفسه. وسيؤدي تطبيق قانون التعليم الجامعي لعام 1959 إلى سلب استقلال جامعات مانديلا القديمة فورت هير وويتز، ويفرض فصلاً صارماً ويزيح السلم الذي أوصله ورفاقه إلى عالم أوسع، ويقطع اتصالات الطلاب السود بالأعراق الأخرى. مما هدد نظام الحكومة. وقد كتب مانديلا في «الليبريشين» عام 1957: «إن الصداقة والانسجام العرقي يشكلان خطراً مباشراً على كامل سياسة الأبارثيد والباسكاب (هيمنة البيض)». [59]

راقب مانديلا طرق شبابه الواعد تغلق وراءه. إذ قطعت المدارس والجامعات عن التأثير الواسع للثقافة الليبرالية الإنكليزية التي قولبت مواقفه الخاصة. كانت الحكومة تظهر المدى الكامل لوحشية سياستها، في الوقت الذي يُفرّق الشعب لتحبط معارضته. مازال مانديلا على اعتقاده بأن البنى الجديدة يجب أن تقاوم من الداخل، لكن كان لا بد من انتظار عشرين سنة ليثبت أنه على صواب، على أيدي أطفال المدارس في سويتو. في هذه الأثناء كانت مدارسه القديمة قد خفضت أولاً، ثم دمرت من قبل الأبارثيد. وعندما عاد جاك دوغارد Jack Dugard، المدير السابق لمدرسة إعداد المدرسين في هيلد تاون إلى هناك عام 1967 وجد أن جميع طاقم العاملين من الأفارقة، ما عدا واحد، وكلهم مهووس بسلامته الشخصية، فيما غرف الصف كلها أكلتها النيران. فسأل: «كيف يمكن للتعليم أن يتقدم في جو كهذا ؟». [60] حظي مانديلا برؤية مستقبلية خاصة بفضل وصله جذوره الريفية. ففي شباط (فبراير) 1956 قام برحلة وجيزة إلى الترانسكي بصحبة سيسولو، لشراء قطعة أرض في أمتاتا Umtata، انطلاقاً من مبدئه أن الإنسان يجب أن يملك أرضاً قرب مسقط رأسه. [61]

وبعد عودته إلى جوهانسبورغ منع للمرة الثالثة، مما حرمه من مغادرة

المدينة خمس سنوات أخرى. وخلص إلى أن «الشرطة تعتقد أنها منحتني حبلاً بطول يكفي لتجوالي»، إلا أنه هذه المرة كان أكثر تحدياً، وأكثر احتقاراً للمنع. وقد كتب في السجن: «كنت مصمماً على أن ضلوعي في النضال ومدى نشاطي السياسي لن يقررهما أحد سواي».[62] وأجبره المنع على أن يصبح أكثر اعتماداً على النفس، وأكثر بعداً عن أية آلة حزبية. لكن في الوقت نفسه كان اضطهاد الحكومة يجبر المؤتمر الوطني الإفريقي وحلفائه على مزيد من التقارب.

كان مانديلا يتقدم على مسار تصادمي واضح مع الحكومة التي كانت تراقبه بحذر. وبعد الحكم عليه بالحظر كتب إلى وزير العدل يوم 13 نيسان (أبريل) يسأله عن الأسباب، وبعد ثلاثة أشهر تلقى رداً طويلاً (ما زال محفوظاً في أرشيف الدائرة) يفيد أنه حط من شأن البيض وحرض السود على عصيان القوانين وتأسيس حكومة سوداء، وذكره بخطاباته الحماسية التي ألقاها خلال ست سنوات خلت. وفي 22 حزيران (يونيو) 1950 قال: «لقد مضت قرابة ثلاثمئة سنة منذ أتى الأوربيون إلى هذا البلد. مات أبطال وجميلات إفريقية. لقد سرق بلدنا واستعبد». وعن المؤتمر الوطني الإفريقي قال يوم 12آذار (مارس) 1952: «إنه المنظمة التي ستكون الحكومة المستقبلية في هذا البلد». ويوم 7 تشرين الثاني (نوفمبر) 1952 قال: «إذا وقف الجميع معاً، سيأتي وقت نسدد فيه دم أولئك الذين قتلوا». وقال يوم 7 آذار (مارس) 1953: «إننا في موقع أفضل إزاء الشعب الأفريقاني مما كنا ومما كانوا عندما حاربوا الإمبرياليين البريطانيين». ويوم 7 آذار (مارس) 1954 قال: «أعرف بثقة تعادل ثقتي بأن الشمس ستبزغ من الشرق أن صداماً كبيراً سيأتي غداً وأن جميع قوى الرجعية ستتداعى أمام قوات التحرير».[63]

كان محقاً بالنسبة للصدام، لكنه أخطأ فيما يتعلق بالتداعي.

9

الخيانة ووينى

1956 ـ 1957

بعد مؤتمر الشعب في حزيران (يونيو) 1955 والغارات التي تلته، هددت الحكومة باعتقالات واتهامات جماعية. وفي نيسان (أبريل) 1956 قال وزير العدل سي.آر. سوارت C. R. Swart للمجلس النيابي: إن الشرطة تحقق في قضية خطيرة تتعلق بالخيانة العظمى، وإن حوالي 200 شخص سيعتقلون. لكن مسؤولي المؤتمر الوطني الإفريقي كانوا يميلون إلى استبعاد الفورية. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) 1956 قال رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي في الترانسفال أي بي موراتسيل E. P, Moretsele لمؤتمره: «إن القضية كلها هي مجرد بهلوانيات انتخابية لكسب الأصوات. ومن المحتمل أن ينفذ الوطنيون تهديدهم، إلا أنهم لن يتعجلوا ذلك، لأن الانتخابات ستجري بعد سنتين من الآن».[1]

لم يكن في الأمر عجلة. وبعد شهر، في وقت مبكر من صباح 5 كانون الأول (ديسمبر) 1956 أفاق مانديلا على صوت قرع عال على الباب ووجد ثلاثة رجال شرطة بيض بالباب يحملون أمراً بتفتيش المنزل واعتقاله بتهمة الخيانة العظمى. وفي الأيام العشرة التي تلت ذلك أوقف 155 قائداً آخرين من جميع الأعراق ضمن ائتلاف الكونغرس بالتهمة نفسها.

لم يفاجأ مانديلا تماماً، إلا أنه لم يكن مستعداً لمحاكمة مديدة تشل نشاطه السياسي وممارسته مهنة المحاماة لمدة خمس سنوات. كان معظم المشاركين البارزين في مؤتمر الشعب في السجن الآن، باستثناءات مفاجئة،

منها الدكتور دادو ويوسف كاتشاليا وجي. بي. ماركس وغوفان مبيكي. أما تريفور هادلستون، رجل الدين الذي كرمه الكونغرس والذي كان سيضفي على المتهمين احتراماً مسيحياً خاصاً فقد استدعي إلى بريطانية من قبل رؤسائه، والليبراليون ـ الذي ظلوا بعيداً عن الكونغرس ـ لم يكونوا بين المعتقلين، وبالتالي فإن جميع البيض في المحاكمة كانوا شيوعيين، مما دعم مصداقية ادعاءات الحكومة بوجود مؤامرة ماركسية. كما أعطى الشيوعيين سمعة طيبة جديدة بين الإفريقيين لكونهم رفاقاً في الشهادة شاركوهم تضحياتهم من أجل القضية.

أتت الاعتقالات الجماعية لتحدد نهاية «الحرب الكلامية»، وفي الليلة التي سبقت الاعتقالات كان الكاتب والصحفي الأسود من جوهانسبورغ كان ثيمبي Can Thembe يقوم ـ على حد تعبيره ـ بجولته الاعتيادية على الحانات غير المرخصة يمد أنفه الإخباري. فصادف في إحداها مجموعة سكارى بينهم ثلاثة من كبار الناشطين في المؤتمر الوطني الإفريقي هم روبرت ريشا وتينيسون ماكيواني وليونيل موريسون، كانوا يتهمون سكيراً آخر بأنه يعيش حياة فاسقة. وقرروا إجراء محاكمة صورية يكون ريشا فيها مستشار الدفاع وماكيواني مدعياً عاماً. وانضم إليهما ثيمبي في موقع القاضي، وبعد التماسات حارة وجد المتهم مذنباً. صباح اليوم التالي اعتقل الثلاثة بتهمة الخيانة العظمى. وعندما وصف ثيمبي مشهد الحانة في العدد التالي من مجلة درام الذي نشر فيما كان المتهمون يستعدون للدفاع، استشاط مانديلا غضباً منه لإظهاره رفاقه في الكونغرس على تلك الصورة العابثة.[2]

لم يكن في الاعتقالات أي عبث، وقد لجأ مانديلا إلى المزاح مع الضابط الذي اعتقله وهو الشرطي التحري روسو لكن الشرطي حذره «أنت تلعب بالنار». فأجاب مانديلا: «اللعب بالنار هو لعبتي».[3] كانت الشرطة مصممة على إذلال السجناء الذين حشروا جميعاً في سجن القلعة الأسطوري

على تل يطل على جوهانسبورغ وأمروا جميعاً، بما فيهم شخصيات مرموقة مثل لوثولي وزد. كي ماثيوز وجيمس كالاتا، أن يخلعوا كل ثيابهم في الباحة الخارجية المربعة حيث انتظروا لمدة ساعة ليأتي طبيب أبيض ويستجوبهم، وقفوا خجلين لا ينظر أحدهم إلى الآخر، وقد كشفوا بطونهم وحاولوا تغطية أعضائهم الخاصة. أما مانديلا، الذي يثق بجمال بنيته، فقد تذكر المثل القائل «إن الثياب تصنع الرجل»، وفكر إذا كان الجسم الجميل ضرورياً للقيادة فإن قلة من السجناء سيكونون جديرين بها «حفنة فقط كان لها بنية شاكا أو موشوشو المنتاسقة أيام شبابهما»، لف زميله الناتالي ماساباالا (مارتين) إينغوا Masabalala (Martin) Yengwa نفسه بملاءة وغنى أغنية مديح زولية تقليدية تكريماً لشاكا. واستمع السجناء الآخرون بحبور. وصاح الزعيم لوثولي بالزولية «هذا هو شاكا فعلاً!»، وبدأ ينشد وانضم إلى الرقص مع الآخرون، برغم أن معظمهم لم يكن زولياً في الحقيقة. فكّر مانديلا: «كنا جميعاً وطنيين يربط بعضنا إلى بعض حبنا لتاريخنا».[4]

سرعان ما وجد السجناء تعويضاً لتوقيفهم. ومثل معظم الآخرين كان مانديلا قد منع لفترة طويلة من حضور الاجتماعات والسفر، والآن أتيحت له فرصه نادرة لتبادل وجهات النظر مع أصدقاء من مدن أخرى. وسرعان ما نظم السجناء محاضرات حول الأزمة الراهنة وتاريخ المؤتمر الوطني الإفريقي. وكانوا هم أنفسهم بمثابة تاريخ حي للكونغرس، يجمع محاربين قدماء مثل كاتالا وماثيوز إلى جانب ناشطين شباب من صوفيا تاون مثل روبرت ريشا وبيتر نتيثي Peter Ntithe، وأعضاء من عائلات المؤتمر الوطني الإفريقي القدامى مثل تينيسون ماكيواني.[5]

بعد أسبوعين في السجن، نقل السجناء إلى محكمة مؤقتة جهزت من أجل تلك المحاكمة. كانت دريل هول القديمة the old Drill Hall في وسط جوهانسبورغ أثراً عسكرياً مقيتاً وعراً له سقف من الحديد المموج نصف مغطى

بالخيش وواجهة عتيقة الطراز تشرف على حديقة لاستعراض الجند. نقل مانديلا والسجناء الآخرون إلى هناك في شاحنات للشرطة ترافقها حاملات جنود، وكانت جماهير المتعاطفين تنتظرهم خارج القاعة، فيما راقبهم آخرون في الداخل يدخلون في قاعة المحكمة المقفرة. وصف كان ثيمبا المشهد كما يلي: صعد المتهمون على دفعات كل دفعة تضم عشرين شخصاً، بعضهم كان مشرقاً وبعضهم كان مكفهر الوجه، بعضم مذهول، وبعضهم مذعور، وبعضهم يأكله الحنق والغضب، وعندما صعد نيلسون مانديلا، المحامي، حدّب كتفيه وبدا يجيش بغضب مكبوت.[6]

كان القاضي اف. سي. ايه. ويسيل F.C.A. Wessel إفريقانياً أنيقاً شعره رمادي، من بلومفونتين. بدأ يتحدث، وسرعان ما اتضح أن كلماته لا تسمع بلا مكبرات صوت، فأجلت الجلسة إلى اليوم التالي، وعندما عاد السجناء، وضعوا داخل قفص سلكي ضخم بني في قاعة المحكمة، فاعترض محامو الدفاع فوراً، ففك القفص.

في النهاية بدأ النائب العام بقراءة الاتهام المؤلف من 18.000 كلمة. وقد بنيت تهمة الخيانة العظمى على خطابات وبيانات أدلى بها المتهمون على مدى السنوات الأربع الماضية منذ تشرين الأول (أوكتوبر) 1952، عندما كانت حملة التحدي في أوجها، واستمرت أثناء احتجاجات صوفيا تاون، ومؤتمر الشعب وميثاق الحرية، الذي كان المستند الرئيسي للاتهام. قال الادعاء إن المتهمين تآمروا على الإطاحة بالحكومة بالقوة واستبدالها بدولة شيوعية. ولكن كان عليهم إثبات نوايا العنف.

فكر مانديلا كم من المرات ترددت تهمة الخيانة في التاريخ القصير لجنوب إفريقية. ففي كلا الحربين العالميتين ثار بعض الأفارقة ضد الحرب مع ألمانية، وحملوا السلاح إلى جانب عدو الحكومة، وحوكموا بتهمة الخيانة. تمهل الأفارقة في الحكم بإعدام الأشخاص الذين ينتمون إليهم، وعندما تولت

حكومة الدكتور مالان السلطة أطلقت سراح جميع من اتهم بالخيانة إبان الحرب العالمية الثانية، وخاصة النازي الفاسد روبي ليبراندت Robey Leibbrandt. لكن مانديلا كان يعرف أن الوطنيين سيكونون أشد قسوة تجاه أعدائهم السود. ولم يعتقد أن الحكومة تؤمن فعلاً بأن المتهمين مذنبون بالخيانة. فميثاق الحرية، أولاً وأخيراً، أعلن عن مبادئ مقبولة في جميع أرجاء العالم المتمدن. واعتقد أن المحاكمة كلها كانت مكيدة، وأن الحكومة أرادت أن تجمد عمل قادة الكونغرس بضع سنين.[7]

وسرعان ما أدرك أن المحاكمة ستطول فترة أطول بكثير مما كان يتوقع. ففي اليوم الرابع أخلي سبيل 156 سجيناً بكفالة 25 جنيهاً للسود و250 جنيهاً للبيض (حتى الخيانة لم تكن مصابة بعمى الألوان، حسب تعبير مانديلا). وأن يضمن الأموال الأنصار.[8] وأجلت المحاكمة إلى كانون الثاني (يناير) 1957، وسمح للمتهمين بالعودة إلى بيوتهم. ولكن كان واضحاً أن حياتهم ستبقى مقلقلة لفترة طويلة من الزمن.

الاستجوابات المبدئية، التي بدأت في كانون الثاني (يناير) 1957، كانت تهدف فقط لإثبات ما إذا كان هناك قضية تستحق أن تطرح للمحاكمة أمام القضاء الأعلى. إلا أن هذه العملية ستطول على مدى تسعة أشهر وثلاثة ملايين كلمة، قبل أن يستجوب أي من الشهود أو يستنطق. وبعد دراما الاعتقالات الصاخبة سرعان ما تحولت التحقيقات الأولية إلى مزيج غريب/ مخيف من الضجر والدعابة والتهديد والوعيد. واستمر ذلك الطقس يوماً إثر يوم تحت سقف من الصفيح خلال الصيف القائظ. كل صباح كان ويسيل، القاضي الدمث، يدخل ويلامس بخفة زاوية طاولته إذ يمر، ويتابع المدعي فان نيكيرك Van Niekerk الأشعث الشعر، الذي أطلق عليه جو سلوفو اسم لي آبنر Li Abner، يتابع اتهامه بلهجة رتيبة.[9] وتمكن معظم المتهمين من الحفاظ على حسن الإدراك، وعندما أَمَرَّ كاثرادا رسماً كرتونياً عارياً يمثل آندي كاب Andy

Capp الشوفيني المغطى بثوب الكاهن في صحيفة الديلي ميرور اللندنية إلى أحد الرفاق أجاب بأنه لم يستطع أن يدرك علاقته بالماركسية ـ اللينينية، فقال كاثرادا إنها قد تساعد الناس في فهم أغلبية البروليتاريا Lumpenproletariat.[10]

سرعان ما اختفت أخبار المحاكمة من عناوين الصحف، ونسي الجوهانسبورغيون البيض الخطر المفترض الذي يتهدد بقاءهم الذي كانت تقلب أوجه النظر فيه. وإذ راقبت الأمر يوماً إثر يوم كان علي أن أذكر نفسي دائماً بالأهمية الحقيقية للمحاكمة، فيما كان رجال الشرطة الأفارقة والبيض يكشفون مدى جهلهم وعجزهم. كان محامي الدفاع الرئيسي فيرنون بيرانجيه Vernon Berrange الذي كان في السابق سائق سيارة سباق وطياراً مقاتلاً، كان حاداً واستعراضياً في أسئلته وأسقط معظم الأدلة التي قدمها جواسيس وشرطة تحرٍ يكادون لا يعرفون القراءة. وإذ كتب من سجنه، تذكر مانديلا أن المتهمين كانوا يطلقون على المحامي اسم إيزانغوما Isangoma (العرّاف).[11] وحقق بيرانجيه ضربته الكبرى عندما استجوب الشاهد الخبير لدى الدولة في الشيوعية البروفيسور موراي Murray، واستشهد بمقطع إدانة موراي كونه «شيوعياً من عظام الرقبة» وتبين أن موراي نفسه هو الذي كتبه.

أخفت الطبيعة التهريجية لأدلة الاتهام، الخطر الحقيقي للمحاكمة، فقد حذر القاضي المتهمين المقهقهين في إحدى النقاط: «هذه الإجراءات ليست مضحكة كما قد يبدو».[12] وكان مانديلا قلقاً حيال طيش بعض المتهمين الشباب: عندما رفع ليونيل موريسون Lionel Morrison وآخرون مظلة ليحتموا تحتها من السقف الذي يقطر ماءً، عنفهم بشدة.[13] كان يدرك تماماً مدى الخطورة، ويعرف أن إهانة الشرطة ستزيد الحكومة إصراراً على تجميد المؤتمر الوطني الإفريقي.

استبشر مانديلا خيراً بمقاطعة للحافلات في ألكساندرا، بدأت بعد أسبوع من الاعتقالات بتهمة الخيانة، ـ بعد أربع عشرة سنة على المقاطعة التي تركت أثراً لا ينسى لديه عندما كان يعيش في ألكساندرا عام 1943 ـ مرة أخرى عاد المرتحلون يسيرون اثني عشر ميلاً في اليوم بدل أن يدفعوا قرشاً واحداً زيادة للحافلات. قال لوثولي إن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يكن له يد في تنظيم المقاطعة، ويمكنها فقط القول إنها «ساعدت في خلق جو من المقاومة يمكن خلاله أن يحدث شيء كهذا».[14] إلا أن المقاطعة ألقت منظمين محليين جدداً خارج قاعة المحكمة، بينهم اثنان من الناشطين في المؤتمر الوطني الإفريقي هما توماس نكوبي Thomas Nkobi وألفرد نزو Alfred Nzo، اللذان أصبحا من القادة البارزين فيما بعد. أخيراً اضطرت الحكومة إلى الاستسلام للمقاطعين فأقرت قانوناً خاصاً يفرض على أصحاب العمل دعم أجرة الحافلة. وكان أول قانون يسنّه المجلس النيابي خلال أربعة وسبعين عاماً من عمر الاتحاد، نتيجة لضغط إفريقي. وذكّر مانديلا أن المقاطعة يمكن أن تكون أداة قوية، لكنها حركة تنظيمية «تكتيك» وليست خطة شاملة «استراتيجية». وكتب في «الليبريشين» في العام التالي: «المقاطعة ليست بحال من الأحوال مسألة مبدأ، وإنما هي سلاح تكتيكي».[15]

بقي مانديلا أبعد عن الأضواء، في قاعة المحكمة من لوثولي أو ماتثيوز أو سيسولو. فلم يظهر أبداً في التغطية الصحفية التي نشرتها صحيفة نيو إيدج اليسارية، التي كانت المؤرخ الرئيس لأحداث المحاكمة يوماً بيوم، فقد بدا منعزلاً عن الآخرين، بقامته الطويلة وثيابه النظيفة، يحمل حقيبة أوراق ويتحدث بترو بطيء، كان مايزال يحتفظ بشيء من أسلوب الزعيم المتباهي الذي علق وسط زحام المدينة الجلف. وقد رأت ماري بنسون Mary Benson، كاتبة سيرة مانديلا فيما بعد، التي عملت معه في صندوق الدفاع عن قضية الخيانة، رأت

فيه شاباً بارعاً ماهراً ماكراً مبتذلاً بعض الشيء ولم تعره اهتماماً كبيراً، ولم تحمله على محمل الجد.[16] لكن محامي الدفاع لاحظوا أن له سلطة هادئة على زملائه الذين كانوا كثيراً ما يطلبون رأيه القانوني، كما أن إفادته ستكشف مدى عمق تفكيره بالالتزام بالقضية.[17]

استمع زد .كي. ماثيوز، بذهنه القانوني المتقد إلى المحاكمة بازدراء متنام. وقد كتب لزوجه فريدا Frieda «يبدو أن هؤلاء الأشخاص يعتقدون أني انا العقل المخطط لحملة المؤتمر الوطني الإفريقي، والجميع يفعلون ما أريد. كم هم مخطئون!». راقب رجال الشرطة شبه الأميين يدلون بأدلتهم غير المترابطة بلغة إنكليزية ركيكة، ويقدمون وثائق يفترض أنها دائنة مثل تقويم عام 1956 أو ورقة كتب عليها «حساء باللحم». ورأى كيف ترتبط كراهية الأفارقة للسود باستيائهم من الاحتقار الإنكليزي: «مذهل مدى رفض الأفارقة موقف الإنكليز الفوقي. إنهم يعذبوننا أيضاً لأنهم يعتقدون أننا بعنا أنفسنا للإنكليز». لكنه خشي أن يصبح كره الإفريقي للأوروبي خلال عشر سنوات أسوأ من كره الرجل الأبيض للأسود.[18]

اقتربت محاكمة الخيانة الطويلة ما بين مختلف الفئات العرقية داخل قاعة المحكمة. قال لوثولي «ما كنّا لنبتكر طريقة أكثر فعالية لضمان ترابط المعارضة وتوسيع مداها».[19] وقال بول جوزيف Paul Joseph، وهو هندي كان عاملاً في مصنع من بيئه متواضعة أصبح صديقاً لمانديلا: «لم نكن ندرك كم من الأشياء المشتركة تجمعنا، لقد أوجدت المحاكمة ترابطاً لم يكن موجوداً من قبل».[20] وجد الإفريقيون أنفسهم مضغوطين في مكان واحد مع البيض والهنود والملونين، ممثلين بنسب تقارب نسب توزيع سكان البلاد. وكان كثير منهم يدافع عن نوع من الشركة المتعددة الأعراق. بغض النظر عن الدوافع الدعائية التي أدت بالحكومة إلى محاكمة المتهمين وأصبح بإمكانهم الآن نشر دعايتهم المضادة بأن الحركة كانت حركة متحدة غير عرقية أصلاً.

ويومياً في أثناء ساعة الغداء كان المتهمون يقتسمون شطائرهم ويبتكرون تسال، من ضمنها ـ كورال دريل هول ـ The drill Hall Choir، ويطرحون وجهات نظرهم ويناقشون مشاكلهم. وعندما يذهبون إلى بيوتهم في المساء كان الناس يشعرون أنهم أبطال وليسوا خونة، تقدم إليهم المشاريب بلا مقابل في الحانات، ويقيم البيض والهنود الذين يتمنون لهم الخير الحفلات التي كانت توسع الاتصالات والصداقات بين الأعراق الأخرى. أقام برام فيشر وزوجه عشاء للقادة السود، ومنهم لوثولي ومانديلا، حيث اجتمعا بأصدقاء محامين. وأقام جو سلوفو وروث فيرست حفلات شرب فيها الإفريقيون والهنود والبيض ورقصوا وتعانقوا، خارج قيود اللون، وتضاحكوا حول احتمال أن يشنقوا بتهمة الخيانة، وبدوا غير مبالين بالجواسيس، حتى أنهم رحبوابعميل السي آي أيه. عندما كنت أكتب كتاباً عن المحاكمة / قفص الخيانة/ ضمنته لمحة عن حياة كل من لوثولي وسيسولو وتامبو، لكني لم أتطرق إلى مانديلا، ظناً مني أنه أبعد من أن يصبح قائداً في المستقبل وأنه سيكون أقل ظهوراً.

CIA المحلي ميلارد شيرلي Millard Shirley، وهو أمريكي جذاب واجتماعي كان يؤلف ـ ظاهرياً ـ كتاباً بعنوان (والدتي كانت مبشرة) إلا أنه كان دائم الحضور في أنشطة المؤتمر الوطني الإفريقي.[21] لكن شجاعة ـ الخونة ـ كانت حقيقية. ربما كان بعض المتهمين لامبالين أو متكلفين ـ كالطاووس ـ، على حد تعبير الإفريقيين. لكن الشجاعة والخطر كانا حقيقيين. وفي السجن فيما بعد يذكر مانديلا أن إيلين هيلمان Ellen Hellman، إحدى ممولات المتهمين البيض الليبراليين، وهي رئيسة معهد العلاقات العرقية، وصلت إلى قاعة المحكمة لتناقش موضوع جمع التبرعات. فبدأ يطريها لأناقة ثيابها، إلا أنها قاطعته قائلة: «سيد مانديلا، كل ما أريد هو ان تقول لي ببساطة، ماذا تريد، ماذا تريد؟».[22]

كان هناك بعض الاهتمام أيضاً من رجال أعمال جنوب إفريقية الليبراليين. فدعي لوثولي وقلة أخرون، لم يكن مانديلا بينهم، لمقابلة هاري أوبنهايمر

Harry Oppenheimer من الشركة الأنغلو ـ أمريكية، وقال لهم بأدب إن مطالبتهم بحق الاقتراع للجميع فيها شطط، وإن المقاطعة تذهب بدعم البيض، فأجابوا بأنهم لا يستطيعون إخفاء مطالبهم الحقيقية، مهما بدت غير مستساغة بالنسبة للبيض.[23] وأعطى أوبنهايمر سراً 40.000 جنيه لصندوق الدفاع في قضية الخيانة.[24]

وصلت معونة عملية من الخارج من بريطانيين وسواهم من المتعاطفين عبر صندوق الدفاع، الذي بادر به كانون كولينز في لندن والأسقف ريفز Bishop Reeves في جوهانسبورغ، لتغطية النفقات القانونية وسواها. أشرفت على الصندوق في البداية هيلاري فليغ Hihary Flegg ثم ماري بنسون Mary Benson ثم فريدا ليفسون Freda Levson، اللواتي أصبحت تربطهن أواصر الصداقة مع مانديلا.[25] كما تحمس مانديلا بظهور مراقبين من كثير من المحاكم الغربية، وبينهم جيرالد غاردنير Gerald Gardiner المحامي البريطاني الذي أصبح فيما بعد رئيس مجلس اللوردات والرئيس الأعلى للقضاء في بريطانية، وبالتضامن الأمريكي الذي تضمن زيارة قام بها جورج هوزر George Hauser ممثل اللجنة الأمريكية من أجل إفريقية، وهدايا من سامي ديفز الابن Sammy Daveis Junior.[26]

إلا أن الدبلوماسيين البريطانيين والأمريكيين في بريتورية استمروا في تفادي الاجتماع بالمعارضة السوداء، خشية إزعاج الحكومة الأفريقانية. ودعا السفير بايرود Byroade البيض فقط إلى الاحتفال بعيد الاستقلال في السفارة الأمريكية في تموز (يوليو) 1957، خلاف الضيافة المفتوحة للقنصل العام السوفيتي.[27] كما أن السفراء البريطانيين المتعاقبين لم يدعوا السود إلى حفلات ميلاد ملكتهم، ولم يجروا أي اتصال مباشر مع أي من قادة المؤتمر الوطني الإفريقي. وكان دبلوماسيوهم يعتمدون على أقوال الصحفيين في رسائلهم، التي لم تكن تشير لمانديلا.[28] وفي لندن كانت جنوب إفريقية تابعة لوزارة

الدومينيون (الدول المستقلة عن الكومنويلث ـ المترجمة) التي كانت تربطها علاقة عائلية حميمة مع دول الكومنويلث الأبيض التي كانت حليفة للبريطانيين في الحرب العالمية الثانية، وكانت أكثر اهتماماً بإبقاء الخطوط مفتوحة مع الوطنيين الأفارقة أكثر من المشاغبين الإفريقيين، أما رئيس الوزراء المحافظ هارولد ماكميلان Harold Mackmillan فلم يكن قد تعاطى بعد مع مشاكل إفريقية.[29]

أثناء قضية الخيانة كان مانديلا يعيش حالة انتقالية غريبة، بين الوضع الطبيعي والخطر، إلا أن حياته تعرضت لمزيد من البلبلة بسبب قصة غرام عنيف مثيرة. فعندما بدأت المحاكمة كان يعيش حياة عازب. فقد انفضّ زواجه من إيفيلن باتهامات متبادلة بين الطرفين. حيث تذكر إيفيلن بمرارة كيف كان مانديلا يمضي ليالي بعيداً دون أي تفسير، وادعت أنه مرة كاد يخنقها. وقد أنكر مانديلا بحزم هذه التهمة.[30] وأصبحت هوة الغربة بينهما أوسع إذ أصبح زوجها أكثر ضلوعاً في السياسة. وبعد أن أوقف لاول مرة بتهمة الخيانة وخرج من السجن بكفالة عاد إلى المنزل ليجد إيفيلن قد ذهبت والبيت فارغ، حتى من الستائر! كان على مانديلا أن يحاول طمأنة ولديه ماكغاتو Makgatho وماكازيوي Makaziwe (ماكي) ـ Maki اللذين كانا مضطربين اضطراباً عميقاً.[31]

تساءل أصدقاء مانديلا إن كان سيتزوج ثانية، وكثيراً ما كان يشاهد بصحبة نساء مؤهلات ومرغوبات. كانت إحدى رفيقاته روث موماباتي Ruth Mompati السكرتيرة الكفء لديه في مكتب المحاماة. وكانت لديه صديقة أخرى هي ليليان نغوي Lilian Ngoyi القائدة القومية المرحة لرابطة النساء في المؤتمر الوطني الإفريقي، التي كانت متهمة مثله بقضية الخيانة. وكانت هيلين جوزيف Helen Joseph المقربة من كليهما، تعتقد أنهما سينجحان تماماً كزوجين.[32]

إلا أن التي أوقعت مانديلا لم تكن سياسية محنكة، ولم تكن أياً من النساء اللواتي كانت إيفيلن تخاصمه بسببهن. وإنما كانت قادمة جديدة، باحثة

اجتماعية شابة جميلة في الثانية والعشرين تصغر مانديلا بست عشرة سنة.[33] أتت ويني نومزامو ماديكيزيلا Winnie Nomzamo Madikizela من بوندولاند، وهي جزء من الترانسكي، حيث كان والدها كولومبوس ماديكيزيلا Columbus Madikizela مدير مدرسة (كما كانت المنطقة مسقط رأس بطلها تامبو حيث تقول الآن «أنا في الحقيقة خلقت لأوليفر تامبو»)[34]3. كانت عشيرة ويني، النغوتيانا Ngutyana واحدة من أقوى العشائر في بوندولاند. وقد كان جدها الأكبر ماديكيزيلا زعمياً قبلياً شرساً في ناتال إلى أن هرب من جيش الزولو التابع لشاكا ليستقر قرب بيزانا Bizana أما جدها الزعيم مازينغي Mazingi التاجر الثري المتزوج تسعاً وعشرين زوجاً، فقد اعتنق المثودية. وكانت أمها التي يعتقد أنها تحمل دماً أبيض متدينة جداً وكان لديها تسعة أولاد قبل أن تموت عندما كانت ويني في التاسعة، وبعد ذلك نشأها والدها نشأة ميثودية متشددة، وبقي بعيداً بشكل مربك تاركاً لجدتي ويني القويتين ممارسة التأثير الأكبر عليها. علمتها والدة أبيها ماخولو Makhulu أساليب أجدادها، أما والدة أمها / غراني/ Granny فكانت ميثودية صارمة تخيط ثيابها الغربية الطراز بنفسها، قالت صديقة عمر ويني، فاطمة مير، إنها «أخذت عن ماخولو سطوتها الآمرة، واخذت عن جدتها/ غراني/ حبها للثياب الجميلة وهوسها بالنظافة».[35]

في طفولتها كانت ويني قوية الإرادة، متمردة وأحياناً عنيفة، ومرة صنعت برجمية فيها صفيح ومسمار لتضرب بها أختها على فمها فاصابتها بجرح اضطر الطبيب أن يخيطه ولم تنس ويني أبداً الضرب المبرح الذي نالها من أمها لذلك. وقالت فيما بعد: «كانت مسألة البقاء للأقوى. كنت مضطرة لقتال أخوتي وأخواتي، ولم يكن لي أبداً ثياب خاصة بي. كان هناك كثير من القتال الجسماني. وعندما أصبحت أكبر سناً صرت أخجل عندما أتذكر تلك الأمور».[36] وتفوقت ويني في المدرسة ولم تقرب السياسة وعندما ثار رفاقها

في المدرسة تعاطفاً مع حملة التحدي التزمت هي بدراستها.[37]

في عام 1953 قدمت ويني إلى جوهانسبورغ لتنخرط في العمل الاجتماعي، كانت تعيش في نزل يد المساعدة Helping Hand hostel في شارع جيب Jeppe street وتدرس في مدرسة جان هوفمير Jan Hofmeyr للعمل الاجتماعي، فوق مركز بانتو الاجتماعي للرجال Bantu Men's social centre. كانت تتجول بصحبة طالبتين شابتين جذابتين هما مارشيا بوملا فينكا Marcia Pumla Finca وهاريب خونجيسا Harriet Khongisa، إضافة إلى إيلين كوزوايو Ellen Kuzwayo وهي طالبة أكبر أصبحت كاتبة في ما بعد، حاولت أن تحميهن من الرجال الوحوش.[38] كانت ويني طالبة متفوقة، وبعد سنتين أصبحت أول عاملة اجتماعية في مستشفى باراغوانات Baragwanath Hospital. كانت اجتماعية، ومفعمة بالحيوية، تسحرها الثياب والأحذية (التي لم ترتدها إلى أن أصبحت في المدرسة الثانوية) وقالت فيما بعد: «كان علي أن أصبح ابنة مدينة، وأن اكتسب بريقاً قبل أن أتطور إلى شخصية».[39]

في جوهانسبورغ ذهبت ويني إلى بضعة اجتماعات لحركة الوحدة التروتسكية التي ينتمي شقيقها إليها. لكنها بقيت بعيدة عن السياسة. وفي أحد الأيام عندما زارت إحدى المحاكم مع صديقة لها رأت مانديلا يدخل بقامته الجسيمة لمتابعة قضية، فيما همست الجموع باسمه. وبعد ذلك بمدة بسيطة عرفتها عليه في دكان لبيع الأطعمة المعلبة آديلايد تسوكودو Adelaide Tsukudu، وهي ممرضة في مشفى باراغواناث كان زواجها من أوليفر تامبو وشيكاً. أصرت أديلايد أنها «لم تلعب دور كيوبيد وأن ويني لم تخرب الزواج، وإنما هو كان يتداعى».[40] كان واضحاً أن مانديلا افتتن بويني، وبقي نظره معلقاً بها، وفي اليوم التالي دعاها إلى الغداء، بحجة سؤالها المساعدة في جمع أموال لصندوق الدفاع في قضية الخيانة. مر صديقه جو ماتثيوز بها وتناولوا طعام الغداء في مطعم آزاد الهندي Azad.[41]

أمضى مانديلا أقصى قدر ممكن من الوقت مع ويني بين دريل هول ومكتب المحاماة العائد له «كنت أخطب ودها وأسيسها».[42] واستطاع أن ينتزعها من منافس تبين أنه مناوئه وابن أخته قيصر ماتانزيما، وعرفها على أصدقائه السياسيين، بما فيهم الهنود والبيض. وفي خضم محنة محاكمة الخيانة لم يكونوا متأكدين ما الذي ستأتي به ابنة الاثنين وعشرين ربيعاً بوجهها البريء وحديثها الحيوي، وإعجابها الشديد بالثياب، وعينيها الواسعتين العطوفتين، التي كانت تبدو وكأنها قادمة من عالم آخر. قالت آديلايد زوج بول جوزيف «كانت فاتنة لكنها خجولة جداً»، فيما قالت أمينة زوج يوسف كاتشاليا إنها «كانت بريئة جداً وساذجة». كان مانديلا يصطحب ويني إلى منزل راستي بيرنشتاين أيام الآحاد حيث كانت تجلس في غرفة ابنة بيرنشتاين تقرأ مجلات الأزياء. وقال بيرنشتاين: «كانت بعيدة تماماً عن الدائرة السياسية. لكن نيلسون لم يكن يعبأ بذلك».[43] اتخذت ويني من أصدقاء مانديلا السياسيين أصدقاء لها: فأقامت مع إسماعيل وفاطمة مير في دوربان، وألهت ليليان نغوي Lilian Ngoyi، وعَدَّتْ هيلين جوزيف Helen Joseph أماً، ورأت في تامبو شخص الأب.[44] وروعها حضور مانديلا السلطوي وجو الزعامة الموروثة الذي يحيط به «فلم يكن ليستمع لامرأة.. كما أن طريقة مشيته، وكيف يفرض نفسه تظهره بمظهر الزعيم الحقيقي».

لم يعرض مانديلا الزواج رسمياً، لكن ويني وجدت نفسها مدفوعة نحو الزواج. وقلقت أسرتها من المخاطر. وتقول الآن: «كان والدي معارضاً للزواج جملة وتفصيلاً. كما بكت أخواتي ورجونني ألا أتزوج من رجل مسن كهذا»، وحذرنها من أن مانديلا سينتهي إلى السجن، وأنها ستكون «مجرد أداة تبقي البيت مفتوحاً وتزوره».[45]

لكنهما كانا عاشقين. كان مانديلا قد طلق إيفيلين، وفي حزيران (يونيو) 1958 كان هو وويني زوجين، بعد سنة على لقائهما. سمح لمانديلا برفع الحظر

عن السفر لمدة ستة أيام ليذهب إلى الترانكسي من أجل احتفالات العرس، أولاً في بيت الأجداد ماديكيزيلا، ثم في دار البلدية في بيزانا، بصحبة اصدقاء منهم روث موباتي والشيوعي الأبيض مايكل هارميل. ألقى والد ويني خطاباً حذرها فيه أنها إذا أرادت أن تكون سعيدة مع أهل زوجها فإن عليها أن تفعل ما يفعلون «إذا كان زوجك عرافاً عليك أن تصبحي ساحرة».[46] وكان مانديلا يدعوها بلفظة ساحرة في رسائله، تحبباً.

عاد مانديلا إلى ضغوط قضية الخيانة، وقدمت زوجه الشابة الجميلة نقيضاً غريباً جداً للضجر القاتم والالتزام الذي يميز قاعة المحكمة. وكان ظهوره المؤثر مع ويني، وكلاهما يبتسم ابتسامة كبيرة، يمت إلى عالم الاستعراض استعراض Shwobis، أكثر من كونه سياسياً، واكتسبت صورته بعداً جديداً، ليس المحامي والثوري فحسب وإنما العاشق مع شريك يعبده. كان واضحاً أن كلاً منهماً مفتون بالآخر، ويشعران أن هناك مسرحية يجري التركيز عليها. كما في متعة عاطفية تعود لأيام الحرب. بما فيها من أزمات وأخطار يواجهانها. وخلال سنواته الطويلة في السجن كان مانديلا يترنم لذكر الأوقات التي كانا يخطفانها معاً، ويذكران حياتهما السابقة: «أتذكرين الطعام اللذيذ الذي كنت تحضرينه للعشاء؟ المعكرونة السباغيتي مع اللحم المفروم من لحام متواضع في الناحية! عندما كنت أدخل البيت من قاعة الرياضة في المساء كان لعابي يسيل لتلك الرائحة».[47] إلا أن زواجه من فتاة مشبوبة العاطفة، لها متطلباتها، وجميع التعقيدات الناجمة عن وجود ثلاثة أطفال لزوجها / منفرين / لم تكن مقومات بيت مستقر اعتبره كثير من أصدقائه السياسيين أمراً مسلماً به. والتر سيسولو ما زالت لديه ألبرتينا / كعمود فقري/ تدعم دخله البسيط وتشاركه جميع التزاماته السياسية. «كنت أستطيع الاعتماد عليها، ولم تكن تتذمر... لقد أمسكت زمام الأموربطريقة مذهلة مما أمدني بشجاعة رائعة».[48] كانت حياة مانديلا مع ويني أكثر إثارة، ولكن أكثر تشتتاً، وأقل تبصراً، في حين سرعان ما

أدركت مدى سيطرة السياسية على حياته، وتذكر «أنه لم يبد ما يشير إلى أن لي حقاً خاصاً في وقته. لم يكن هناك أبداً ما يمكنني أن أدعوه حياة أسرية، حياة عروس شابة تجلس مع زوجها. لم يكن لأحد أن ينتزع نيلسون من الناس، فقد كان النضال والأمة يحتلان الموقع الأول». [49]

سرعان ما أفسحت ويني المجال لنمو غريزتها وطموحها السياسي الخاص، «سرعان ما أكتشفت بأية سرعة سأفقد هويتي الخاصة في ظل الشخصية الطاغية، فأنت بكل بساطة تخفق وتجد نفسك ذيلاً له، بلا اسم ولا تفرد ما عدا ما يليق بماندیلا... فنذرت أن أياً من هذا لن ينطبق علي». [50]

ولاحظت صديقتها الأكبر عمراً أيلين كوزوايو Ellen Kuzwayo أنها تنزلق بعيداً عن العمل الاجتماعي الروتيني. [51] وبدأت تحضر اجتماعات كانت فيها صديقتاها البيضاوين هيلين جوزيف وهيلدا بيرنشتاين تعلمان النساء السود كيف يتحدثن أحاديث عامة. إلا أنها سرعان ما انفجرت قائلة: «لا أعتقد أننا بحاجة لمن يعلمنا كيف نتحدث. من معاناتنا نستطيع أن نحدث الناس بما نشعر». وبدأت تجد صوتها الخاص، بفصاحة في التعبير وحماسة أذهلت أساتذتها. وبدأت حملة بغريزتها الشعبية القوية، متجاوزة الأحاديث التقليدية لقادة المؤتمر الوطني الإفريقي. وقالت صديقتها الهندية آديلايد جوزيف: «لم تكن تكترث لكونها في دائرة الضوء. كانت تريد أن تكون هناك مع عامة الناس». [52]

سرعان ما انجرفت ويني في نضال المرأة، الذي كان يزداد أهمية عشية حملة التحدي. وأظهر قوته عندما قررت الحكومة أن تجبر النساء على حمل جواز المرور الكريه الذي يحد من حركة الإفريقيين، والذي كان حتى ذلك الحين وقفاً على الرجال. شكل المؤتمر الوطني الإفريقي اتحاد نساء جنوب إفريقية، الذي اندمج مع رابطة النساء التي نظمت في آب (أغسطس) 1956 مسيرة ضمت 20.000 امرأة اتجهت نحو أبنية الاتحاد في بريتورية لتقديم التماس إلى رئيس الوزراء هانز ستريجدوم Hans Strijdom . وصلت السائرات ينشدن

شعارهن المناهض «ستريجدوم أنت عبثت بالنساء. لقد ضربت صخرة».[53]

انضمت ويني إلى فرع أورلاندو من رابطة النساء وسرعان ما بدأت تثبت وجودها. قال مانديلا لصديقه المحامي جورج بيزوس يوماً: «لقد تزوجت المتاعب!». فقد تكشف أن ويني اتهمت بتحريض النساء الأخريات على عدم حمل الجوازات. وعندما طلب منها إبراز جوازها، صاحت بأنها لن تحمل جوازاً، وعندما أتى شرطي إلى بيتها يحمل استدعاء تهجمت عليه. فسأل بيزوس مانديلا «هل تزوجت امرأة أم زميلاً مشاغباً؟». وفيما بعد قالت ويني إن الشرطي دخل غرفة نومها حيث كانت ترتدي ثيابها لتذهب إلى السجن. لما أمرته بالخروج أمسك بها، فضربته بمرفقها على ذقنه فأوقعته أرضاً، فاتهمها بمهاجمته، تولى بيزوس القضية، وأدلت ويني بإفادتها بثقة ووضوح أثارا دهشة القاضي الأفريقاني الذي اخلى سبيلها.[54]

بعد أربعة أشهر على زواجها، في تشرين الأول (أوكتوبر) 1958، كانت ويني حاملاً، لكنها صدمت مانديلا بإعلانها أنها ستنضم إلى احتجاج جماعي في جوهانسبورغ، وتجاهلت جهوده لثنيها عن عزمها، فاعتقلت وسجنت مع ألف امرأة أخرى، وعملت على رفع معنوياتهن في السجن وصادقت سجانتين أفريقانيتين. ورتب مانديلا أمر كفالة لها، إلى جانب أخريات. كانت ويني قد انطلقت في حملتها السياسية المشبوبة. وفيما بعد، سيلوم مانديلا نفسه لانغماسه بمشاكله بشكل منعه من إعطائها الدعم والنصح في مواجهة جميع إحباطاتها. وقد كتب لها: «كنت وقتها أعيش حياة لم يكن لدي فيها وقت حتى للتفكير».[55]

لم يستطع بعض أصدقاء مانديلا القدامى أن يفهموا لماذا اختار ويني: واعتقدوا بأن منصبه القيادي قد تشتت بهذه «الإمرأة الجديدة» العدوانية، التي أتت من خارج أي عرف من أعراف المؤتمر الوطني الإفريقي، وأنه قد تزوج مشاكل كثيرة.[56] لكن كان واضحاً أن هناك كهربائية سياسية بقدر ما هناك

كهربائية جنسية بينهما، كما بين بيرون وزوجه في الأرجنتين أو ـ فيما بعد ـ بين كلينتون وزوجه الأمريكيين. أتى حسم ويني المندفع بعنف وخطابتها التي تعجب الحشود لتكمل حملات مانديلا الأكثر تحفظاً، مثل لحن أكثر صخباً يرافق طبقة صوته المنخفضة الثابتة. وفي المناسبات الاجتماعية كانا، بما لهما من حضور ساحر وثياب أنيقة، نموذجاً لزوجين في أواخر عقد الخمسين من القرن العشرين، يعطيان طبعاً مميزاً من الألق الأمريكي لسياستهما إذ يدخلان صالة الرقص، ودائرة الضوء تتركز عليهما. سرعان ما بدأت ويني تأخذ طابعها المسرحي الخاص وسرعان ما ستظهر مثل أمازونية الثورة .

10

مناضل متألق

1957 ـ 1959

في الوقت الذي كانت قضية الخيانة تسير ببطء شديد، عاش مانديلا أكبر أزمة سياسية عرفها المؤتمر الوطني الإفريقي خلال خمس وأربعين سنة من وجوده. وستؤدي في النهاية إلى تفكك المنظمة، وإلى تهديد موقف مانديلا بأخطر مما أدرك إذ ذاك. فقد خضع المؤتمر الوطني الإفريقي، منذ مؤتمر الشعب. لهجوم من الوطنيين الإفريقيين المتنفجين (المتكبرين ـ غير المختلطين بمن يحسبونهم دونهم منزلة أو ثروة ـ المترجمة) أو أنصار إفريقية الذين يعارضون ميثاق الحرية، لافتراضه أن الأرض ملك للجميع، والذين يهيبون بالإفريقيين لاتخاذ تصرف مناهض ووقف التعاون مع الشيوعيين أو الأعراق الأخرى. أسبغت قضية الخيانة شهرة على قادة المؤتمر الوطني الإفريقي واعترافاً كاسحاً بهم، إلا أنها أيضاً ركزت الاهتمام على تواطئهم مع الهنود والبيض، مما أثار حفيظة / أنصار إفريقية/ أكثر فأكثر.

كان مانديلا في موقع يخوله فهم نفاد صبر أنصار إفريقية وتحفظهم. إذ كانت هناك أشياء مشتركة بينهم وبين أعضاء رابطة الشباب منذ عقد مضى، وكان بينهم بعض حلفائه. لو كانت الظروف مختلفة لكان قائدهم. لكنه الآن، بالتزامه بقومية أوسع ومتعددة الأعراق متحالفة مع الشيوعيين، فقد عدَّ الثوار خطراً واضحاً يتهدد وحدة المؤتمر الوطني الإفريقي، التي رآها بالغة الأهمية بالنسبة للنضال، وازداد استياء لأنهم كانوا يستغلون قضية الخيانة ليكسبوا دعم الجذور.

كان الجانبان محددين ضمن ألوان أيديولوجية واضحة: الوطنيون ضد الشيوعيين، والمتنفج ضد الشامل. كان هناك في الحقيقة كثير من التداخل والضبابية، لكن وراء المواجهة كان هناك استياء شخصي طويل الأمد وتيارات متعارضة أصبحت أوضح عند استعادتها، جعلت المصالحة مستحيلة.

بقيت قضية الخيانة تشوش مانديلا ورفاقه المتهمين في جدل قانوني لا نهاية له. وبالرغم من أن الحكومة لم تظهر ما يشير إلى أنها تسقط القضية فقد أقدم المدعي العام في كانون الأول (ديسمبر) 1957 ـ بعد مضي حوالي سنة على الاستجوابات الأولى ـ على إسقاط الاتهامات الموجهة ضد واحد وستين من المتهمين، والعجيب أن لوثولي وتامبو كانا بينهم. وبقي مانديلا؛ بسجله الحافل بالخطابات المناهضة، بين الخمسة والتسعين الباقين. طلب الدفاع أن تسقط القضية برمتها. لكن عين مدع عام جديد هو وزير العدل السابق أوزوالد بيرو Oswald Pirow، وهو معاد حاد للشيوعية، وكان من كبار أنصار النازية إبان الحرب، وادعى بأن دليلاً جديداً قد ظهر عن مؤامرة خطيرة، مما يعني بأن البلد كان يعيش على حافة بركان.

وعندما توصل القاضي السيد ويسيل إلى نتيجة مفادها أن هناك أدلة خيانة كافية لنقل القضية إلى محكمة الترانسفال العليا في بريتورية، أدرك مانديلا أنه أصبح أكثر من واثق بأن القضية كلها ستتداعى، وأنه هو ورفاقه المتهمين قد يودعون السجن.[1] لكن وراء كل ما جرى في المحاكمة من عبث: المدعي العام الطويل النفس، والمخبرون العاجزون، والتعريفات المضحكة للشيوعية، مازال هناك هدف الحكومة الأصلي وهو تجميد عمل المتهمين وإدانتهم من خلال التشريع القائم.

أدى انشغال قادة المؤتمر الوطني الإفريقي بمجريات المحاكمة يوماً بيوم إلى فوضى شديدة في تنظيمهم مما أفسح المجال أمام مناوئيهم، الذين لم يكونوا رهن المحاكمة. وقد حاول القادة تجميع الدعم بحملة عنوانها «نقف مع

قادتنا»، لكن لم يتح لهم فرصة إلقاء الخطابات أو جمع الأنصار. وأقدم أنصار إفريقية، الذين كانوا أقرب إلى الأرض، على اتهام القادة بالفوقية واتباع أساليب غير ديموقراطية. ومعاملة مسألة العضوية كما لو أن الأعضاء «قطيع له حق الانتخاب». [2]

كانت أقوى قاعدة لأنصار إفريقية في سويتو موطن مانديلا، حيث كان يقودهم بوتلاكوكيتشينر لوبالو PotlakoKitchener Leballo الشعبي المندفع. كان مانديلا، وهو محاميه، يَعُدُّ لوبالو ورقة متطرفة (متهورة). لا شك في شجاعته، لكنه غير ناضج، مثل كثير من أتباعه. [3] وكان قد عمل لصالح مكتب الخدمات الإعلامية للولايات المتحدة في جوهانسبورغ بإمرة الأمريكي دافيد دوبوا David Dubois حيث كان يسمح له بتصوير أوراقه. [4] وقد ادعى جو سلوفو أن الكونغرس الإفريقي العام Pan African Congress، الذي انبثق عام 1959 حزباً لأنصار إفريقية، قد أسس في اجتماع في مكاتب الخدمات الإعلامية للولايات المتحدة. [5] شجعت علاقات لوبالو الأمريكية الادعاءات القائلة إن السي آي ايه كانت تدعم أنصار إفريقية، الأمر الذي لم يؤكد بأي دليل قاطع.

ومن بيت لوبالو في سويتو صدرت مجلة الإفريقي the Africanist، زاخرة بالنقد الساخر والقدح ضد القيادة اليسارية للمؤتمر الوطني الإفريقي. كان لدى أنصار إفريقية، مثلهم مثل الوطنيين في كل مكان، مدى أوسع لاستخدام لغة عاطفية أكثر مما لدى متعددي الأعراق. وكان ذمهم «للغرباء»، «والموظفين الشرقيين» و«باعة الطريقة الغربية» أكثر حيوية من العبارات الجاهزة المعادية للاستعمار والماركسية التي كان مانديلا ورفاقه يفضلونها، وأصدروا نسخة أفضل للصحفيين البيض الذين فعلوا ما بوسعهم من أجل الدعاية للمجلة. وكان الناطقون باسمهم أكثر بهرجة وتلاعباً بالألفاظ. كما أن جوسياس مادزونيا رئيس مجلس المؤتمر الوطني الإفريقي كان قبلاً بائعاً متجولاً يرتدي معطفاً طويلاً في الطقس الأكثر حرارة وكان موضع ثقة في مقدرته على الخطابات الرنانة. وبيتر

رابوروكو Peter Raboroko الناطق الرسمي باسمهم فيما يتعلق بالتعليم، كان متحدثاً بارعاً أصبح صحفياً جدلياً ذكياً. وزيف موثوبينغ Zeph Mothopeng الذي كان مدرساً ملتزماً قبل أن يطرد لمعارضته تعليم البانتو، كان مثقفاً بدا في البداية نظرياً جافاً، لكنه أثبت أنه مقدام في إدارة الحملات مما سيوصله إلى السجن في جزيرة روبين. هاجم أنصار إفريقية، وبعضهم من رابطة الشباب القدامى، مانديلا وحلفاءه لاقترابهم أكثر من البيض والشيوعيين، وابتعادهم عن أبناء شعبهم. وكان مانديلا حتماً يتحرك الآن في دوائر مختلفة. إذ قال وكيله في مكتب المحاماة غودفري بيتيجي: «إنه لم يكن خجلاً من الاعتراف بأنه قد تغير». وكان مانديلا يقول في المكتب: «اسمعوا يا شباب، ليس لكم أن تلوموني في هذا. فقد بدأت أنظر إلى الأشياء بشكل مختلف». (6)

رأى دعاة إفريقية جماعة مانديلا تقع ضحية إغراء الشيوعيين البيض، أمثال سلوفو، في ضواحيهم المريحة، بينما كانوا هم رجالاً من الشعب يشربون في الحانات الرخيصة في الأحياء. وقد وصف بيتر رابوروكو، الذي كان زميل تامبو في المدرسة، وصف فيما بعد كيف

«قُذِفَ مانديلا وأصدقاؤه من بيئة المجتمع الإفريقي إلى هذا.. ليرفعوا الكلفة مع النساء البيض، وتصرفات من ذلك القبيل، أصبح الوهيج صارخاً بالنسبة إليهم»، وعندما شجب مانديلا رابوروكو لكونه من «مثقفي الحانات الرخصية (الشيبين)» اعتبر شجبه مديحاً وقال: «ستصبح سمعتي السياسية في الحضيض عندما يعرف الناس بأني شوهدت برفقتك». وعندما تحدث رابوروكو عن الجماهير قال مانديلا: «أنت تقصد رواد الشيبين؟». أجاب رابوروكو: «أجل.. بالمناسبة أنا لست محظوظاً مثلك، فأنت تحتسي شرابك في بيوت أنيقة في هيوتون الدنيا Lower Houghton وباركتاون Parktwon. أما أنا فعلي أن أرضى بالشرب مع الناس في الشيبين (الحانات الرخيصة)». (7)

في الحقيقة كان مانديلا يقضي معظم أمسياته وهو يعمل، ولا يقرب

الكحول. وقال فيما بعد: «كنت أذهب بين وقت وآخر إلى الشيبين بدافع الفضول لكني حتى الآن لا أعرف ماذا يحدث في النوادي الليلية».[8]

كان أنصار إفريقية يكتمون غيظهم حيال قيادة المؤتمر الوطني الإفريقي بجوار مانديلا في أورلاندو، لكن وصل التوتر مداه في اجتماع خاص للمؤتمر الوطني الإفريقي في الترانسفال في أورلاندو في شباط (فبراير) 1958. قاد لوبالو الهجوم ضد التنفيذي المحلي الذي أضعفه غياب قادة ممنوعين مثل مانديلا وسيسولو. وانفض الاجتماع بفوضى، واضطر التنفيذي الوطني للمؤتمر الوطني الإفريقي إلى استخدام قوى الطوارئ للاستيلاء على فرع الترانسفال. وبعد شهرين واجه المؤتمر الوطني الإفريقي إذلالاً عندما حاول تنظيم احتجاج / بملازمة المنازل/ رداً على انتخابات عامة للبيض فقط في نيسان (أبريل). كانت الخطوة التي عارضها أنصار إفريقية إخفاقاً تاماً. قال دوما نوكوي Duma Nokwe الأمين العام المساعد للمؤتمر الوطني الإفريقي إنها «مخيبة بحدة، ومذلة وتدعو إلى الكآبة».[9] لم يستطع قادة المؤتمر الوطني الإفريقي تحمل التحدي السافر لأنصار إفريقية، وقاموا في اجتماع سري، بطرد لوبالو من المنظمة.

أتى الانفصام الأخير في تشرين الثاني (نوفمبر) 1958، عندما دعى المؤتمر الوطني الإفريقي في الترانسفال إلى مؤتمر أزمة. افتتح لوثولي، الذي حذر ثانية من الرد على الأفارقة بـ «قومية إفريقية ضيقة بشكل خطير» واعتبر أنصار إفريقية مانديلا وتامبو في مقدمة أعدائهم. وحاول تامبو، الذي مازال أميناً عاماً للمؤتمر الوطني الإفريقي، أن يهدئ الفصائل المتنافسة إذ تشاحنت حول الثبوتيات والوفود، في وقت كان فيه السفاحون من أنصار إفريقية يواجهون السفاحين المخلصين. وتفادياً لهزيمة في التصويت انسحب أنصار إفريقية من القاعة، وأرسلوا رسالة إلى القيادة يعلنون فيها انشقاقهم ليصبحوا «حماة سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي كما صيغت في عام 1912».[10]

هل كان من الممكن تفادي الانشقاق؟ كان هناك وسيط محتمل هو نتاثوموتلانا Ntatho Motlana، طبيب أسرة مانديلا، وهو رجل شيطاني، يتحدث بسرعة، وقد عمل معه في رابطة الشباب وفي حملة التحدي. كان موتلانا ظاهرة نادرة في أورلاندو، إذ كان مقاولاً يؤمن بالرأسمالية، يذكر مانديلا أنه كان «رجل أعمال حاد. كان ماكراً منذ البداية».[11] كان موتلانا لا يثق بالشيوعيين البيض، وكان يحفظ أواصر الود مع روبرت سوبوكوي من أنصار إفريقية، الذي كان أحد مرضاه. وكان يعقد اجتماعات في غرفة عملياته الجراحية. لكنه كان ضد الانشقاق، وكان يعتقد أن المنشقين يعيدون النضال من أجل التحرر أشواطاً إلى الوراء في كافة أرجاء إفريقية: «قلت لهم ألا يهربوا من البيض، وأن يبقوا في المؤتمر الوطني الإفريقي ويحاربوهم من هناك».[12]

حذر موتلانا مانديلا من أن أعضاء رابطة الشباب يتذمرون من النفوذ الشيوعي، ويهددون بمغادرة المجلس الوطني الإفريقي، لكن مانديلا طمأنه قائلاً: «لا تقلق يا نتاثو. فالمؤتمر الوطني الإفريقي سيحكم البلاد».[13]

استرجع مانديلا ذلك فيما بعد، وشعر بأن المؤتمر الوطني الإفريقي تسرع في رفض أنصار إفريقية: «كانت هناك حالات أعتقد أنه كان بإمكاننا فيها أن نتمسك بالصبر والتحمل.. لقد أبعدنا كثيراً من الناس». لكنه ربما رأى الانشقاق حتمياً في أعقاب ميثاق الحرية. «لا أعتقد أن تفاديه كان أمراً في أيدينا».[14] افترق مانديلا الآن عن بعض أصدقائه السياسيين القدامى، ومنهم معلمه الأول غور راديبي، الذي أصبح الآن حاد العداء للشيوعية. وبقي بيتر مدا، مصدر إلهامه في رابطة الشباب، من أنصار إفريقية، الذي كان مقتنعاً بأن مانديلا كان عضواً في الحزب الشيوعي، سراً، لكنه مازال يشعر تجاهه «بصداقة من القلب وليست من العقل».[15] كان مانديلا أقل دفئاً في تذكره مدا، إذ قال: «لم يجر بيني وبينه أي لقاء ذي معنى أبداً كشخصية عامة». وكتب من السجن: «لقد رسمت صورة لرجل حشى عظامه بكثير من النخاع، مفكر بلسان يستطيع أن

يجرح ويداوي في آن». وكان يرى مدا مختلفاً عنه اختلاف الحرب عن السلام: «كان مدا شاباً يركز على الحرب وأنا كنت أشد الاهتمام نحو السلام».[16]

في نيسان (أبريل) 1959 شكل أنصار إفريقية حزبهم الخاص، المؤتمر الإفريقي العام (P.A.C) في مؤتمر وطني في أورلاندو. عقد المؤتمر يوم العطلة الوطنية احتفالاً بأول مستوطنة دائمة بيضاء في جنوب إفريقية على يد جان فان ريبيك Jan Van Riebeck من شركة الهند الشرقية الهولندية في عام 1662 – مما أعطى المؤتمر الإفريقي العام فكرة عما يتعين عليه أن يفعله، بالاحتجاج على «العمل العدواني ضد أبناء وبنات إفريقية الذي حرم الشعب الإفريقي من أرضه وأخضعه للهيمنة البيضاء».[17] أحب المؤتمر الإفريقي العام أن يقارن نفسه بالوطنيين الإفريقيين في أجزاء أخرى من القارة، الذين كانوا الآن يتقدمون بثقة نحو الاستقلال. و«الشخصية الإفريقية» الجديدة التي أعلنها كوامي نكروما Kwame Nkrumak في غانة كانت أكثر انسجاماً مع ما ينادي به المؤتمر الوطني الإفريقي العام مما هي مع التعددية العرقية للمؤتمر الوطني الإفريقي.

لمنصب الرئيس لم يقع اختيار وفود المؤتمر الإفريقي العام على ديماغوجي متحمس مثل مادزونيا Madzunya أو لوبالو Leballo، وإنما على شخص أكثر تبصراً هو روبرت سوبوكوي Robert Sobukwe، المحاضر في اللغات الإفريقية في جامعة ويتووترسراند Witwatersrand. والذي يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر. كان سوبو كوي أصغر من مانديلا بستة أعوام. وكان مثله طويل القامة، وسيماً، قوي البنية، إلا أنه كان من أصل أكثر تواضعاً جمع ثقافته إلى بساطة الفلاح. نشأ سوبوكوي في كارو Karoo، المنطقة نصف الصحراوية في الكيب، ابناً لعامل في أحد المتاجر. وتبناه الميثوديون وذهب إلى مدرسة هيلد تاون Heald twon وفورت هير حيث أحرز نجاحاً أكاديمياً أكبر بكثير مما فعل مانديلا، وأصبح عضواً مناهضاً في رابطة الشباب، يحارب المبشرين بشكل ضارٍ. ويحث على تنامي قوة إفريقية: «فكما اكتسبت الحضارة

الرومانية المتداعية حياة جديدة من البرابرة، كذلك فإن ما يسمى بالحضارة الغربية المتآكلة وجدت حياة أحدث وأكثر نقاء في إفريقية». عام 1949 أصبح سوبوكوي أميناً عاماً لرابطة الشباب، يدعم بحماسة برنامج عمل مانديلا ورفاقه. وقد انشغل عدة سنوات بالتعليم والاهتمامات الثقافية (ومنها ترجمة ماكبث إلى لغة الزولو)، لكن قبل مؤتمر الشعب مباشرة، ولدى صدمته بما رآه نفوذاً متزايداً للشيوعيين وغير الإفريقيين، ارتد على أعقابه نحو سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي.[18] كان يعتقد أن البيض، لا يمكن أبداً أن يشعروا أن قضية السود قضيتهم لأن «جماعة في موقع الحظوة لا تتخلى أبداً عن ذلك الموقع طواعية»[19] وتذمر، مثل سواه من أنصار إفريقية، من النشاطات المتعددة الأعراق لقادة المؤتمر الوطني الإفريقي، الذين اتهمهم «بالرقص مع نساء من البيض في الأحزاب متعددة الأعراق في جوهانسبورغ بدلاً من العمل على تحرير إفريقية من الهيمنة البيضاء».[20]

وقد لقي ظهور المؤتمر الوطني الإفريقي العام بزعامة خطيب مفوه ومثقف معاد للشيوعية الترحاب من قبل المحافظين في أوروبا وأمريكة كونه بشارة نقيض للمؤتمر الوطني الإفريقي.

اعتقد مانديلا أن وزارة الخارجية الأمريكية «رحبت بولادته ليكون خنجراً في قلب اليسار الإفريقي».[21] فيما لم يستطع الدبلوماسيون البريطانيون الحسم حول أي الشرين أهون بالنسبة للغرب، الشيوعية أم العنصرية. فقد امتدح المفوض السامي البريطاني موقف لوثولي المتين (الصامد) والمعتدل نسبياً حول التسامح العرقي.[22] إلا أن البريطانيين أكنوا احتراماً مبالغاً فيه للمؤتمر الوطني الإفريقي العام، وذلك بتأثير من شرطة جنوب إفريقية. حيث قدم مفوض الشرطة يوم 17 آب (أغسطس) تقريراً مطولاً إلى المفوض السامي البريطاني يشرح فيه أن أنصار إفريقية يعتبرون منظمتهم واحدة من منظمات عديدة مماثلة في القارة الإفريقية، وكلها ملتزمة بتحرير إفريقية من «الإمبريالية» و«هيمنة

البيض» مما سيؤدي بالتالي إلى تأسيس ما يسمى «الولايات المتحدة الإفريقية». [23] هذا فيما بقي البريطانيون والأمريكيون يرون في حكومة الأبارثيد حليفاً ضد الشيوعية العالمية. وفي وزارة الخارجية الأمريكية قال جوزيف ساترثويت Joseph Satterthwaite الخبير بالشؤون الإفريقية في تشرين الأول (أوكتوبر) 1958: «عندما تكون الرهانات منخفضة يصبحون أصدقاء خلصاً». [24]

ومازال مانديلا يأمل أن يعود الفصيلان في المؤتمر الوطني الإفريقي ويتحدا. فقد كان محامياً لسوبوكوي، ولوبالو في آن، «وكان يعتبره خطيباً مفوهاً وصاحب فكر نير». [25] لكن مانديلا ضاق ذرعاً بإحساس سوبوكوي الفج بالقومية السوداء ـ التي تخلى هو عنها منذ عقد ـ وبما يتجمع حول نصير إفريقية هذا من سياسيين مطبلين ومزمرين يسوون أحقاداً قديمة. وكان قلقاً بشكل خاص حيال رفض سوبوكوي لحقوق الأقليات، التي لخصت في البيان الإفريقي: «الشعب الإفريقي لن يتحمل وجود جماعات وطنية أخرى ضمن إطار الأمة الواحدة». وكان مانديلا يقول دائماً إن الأقليات القبيلة والعرقية ـ ومن ضمنها البيض ـ يجب ضمان حقوقها. واعتقد أن سوبوكوي يتهرب من الموضوع.» [26]

إلا أن مانديلا لمن يدرك حجم الخطر الذي مثله سوبوكوي بالنسبة للمؤتمر الوطني الإفريقي، ولم يدرك مدى استقطاب الوطنية التي ينادي بها المؤتمر الوطني الإفريقي العام المثقفين السود الشباب. وهاهو الآن يواجه أول تحد سياسي خطير، وعندما يستعيد ذكرى تلك الأيام بعد أربعين عاماً يرى في سوبوكوي أكبر منافس له. [27]

نقلت محاكمة قضية الخيانة، إلى معقل الأفارقة في بريتورية، التي تبعد ساعة بالسيارة عن جوهانسبورغ، حيث كان المؤتمر الوطني الإفريقي يلقى دعماً ضعيفاً جداً، والسكان البيض أكثر عداء. جلس ثلاثة قضاة في قاعة المحكمة المزخرفة ـ التي كانت كنيساً يهودياً قبل أن تحول إلى محكمة ـ برئاسة

جاستيس رامبف Justice Rumpff نفسه الذي حاكم كثيراً من المتهمين إبان حملة التحدي. كان مانديلا يكن الاحترام لرامبف، ولكنه كان يعتقد أنه يريد الإدانة: «كان يريد أن يرسلنا إلى السجن، لكنه كان قاضياً لامعاً لدرجة لا تسمح له بارتكاب عمل مخزٍ». [28]

مازال فريق الدفاع يضم فيرنون بيرانجيه «جهاز كشف الكذب البشري»، لكنه صار الآن مدعماً باثنين من كبار المحامين، إسرائيل ميزلس Israel Maisels وبرام فيشر Bram Fisher، الذي أصبح أحد أوثق أصدقاء مانديلا، وكان بطلاً بالنسبة للمؤتمر الوطني الإفريقي. كان أفريقانياً حقاً، ابن قاض حاكم لأورانج فري ستيت، أحمر الوجه ربيله، له أسلوب منفتح يميز الفلاحين. كان في بداياته وطنياً أفريقانياً، لكن بعد أن تلقى علومه في اكسفورد وقام بزيارة الاتحاد السوفيتي انضم إلى الحزب الشيوعي، وتأثر بـ جي. بي. ماركس، وموسى كوتاني، ويوسف دادو. تأثر مانديلا أيما تأثر بالتزام فيشر الرزين المضحي بنفسه «فتعانقنا عناق الأخوة». [29] وكرس فيشر كل طاقاته لتنظيم دفاع قانوني وسياسي في آن، وشدت مهاراته كثيراً من المتهمين نحو القانون.

توقفت المحاكمة وبدأت، بجدل دقيق، في آب (أغسطس) 1958 انطلق بيرانجيه في نقاش قانوني يفند الصياغة الغامضة للاتهام. وفي تشرين الأول (أوكتوبر) سحب الادعاء فجأة اتهاماته جملة وتفصيلاً، لكن بعد شهر عاد باتهام أكثر دقة، ترك واحداً وستين من المتهمين ليحاكموا لاحقاً، ووجه الاتهام ضد ثلاثين شخصاً فقط ساد الاعتقاد أنهم مذنبون خاصة في التحريض على الثورة أو العنف. وكان مانديلا بين هؤلاء.

حدد موعد لبدء المحاكمة ثانية في بريتورية في شباط (فبراير) 1959. وفي الليلة التي سبقت المحاكمة ذهب مانديلا لحضور الحفلة الأولى للعرض الموسيقي الأسود كينغ كونغ، وهو من تأليف صديقه تود ماتشيكيزا Todd Matshikiza ويروي قصة ملاكم الوزن الثقيل من صوفيا تاون، الذي كان

مانديلا يعرفه، والذي قتل صديقته، كان الافتتاح في القاعة الرئيسية في جامعة ويتز، وهي المدرج الوحيد في جوهانسبورغ الذي يسمح بدخول السود والبيض معاً (بالرغم من فصلهم بعدد من الصفوف). قدم العرض، الذي نقل فيما بعد إلى لندن، الطاقة الإبداعية كلها في الأحياء السوداء، مع حشد ضخم من ضمنه صديق مانديلا ناثان مدليدل Nathan Mdledle وهو من الأخوة مانهاتان، الذي قام بدور كينغ كونغ. طرب مانديلا للأداء، وعانق بعده تود ماتشيكيزا وزوجه إزما Esme وقال إنه تأثر بشكل خاص بأغنية «أوقات تعيسة، أوقات رديئة»Bad Times، sad Times بلازمتها «ماذا فعل هؤلاء الرجال كي يستحقوا الدمار» التي ذكرته بالمحاكمة التي ستبدأ في اليوم التالي.[30]

عقدت المحكمة، وأجلت، ثم بدأت ثانية، وأصبحت حياة مانديلا لاتعرف الاستقرار. وعمله ومهنته في المحاماة أكثر صعوبة. وطوقت نشاطات معظم قادة المؤتمر الوطني الإفريقي، إما بالمحاكمة أو بالحظر. ولم يعد الرئيس لوثولي رهن المحاكمة، ولكن في حزيران (يونيو) 1959حددت حركته لمدة خمس سنوات أخرى في مسقط رأسه ناتال. أصبح لوثولي الآن شخصية عالمية مشهورة. حيث أخبرت الدبلوماسية البريطانية اليانور إيميري لندن بأن الحظر قد أزاح «أكثر قادة المؤتمر الوطني الإفريقي ثباتاً واعتدالاً»، وتوقعت أن يؤدي ذلك إلى مزيد من التطرف، وربما حظراً عاماً على المؤتمر الوطني الإفريقي برمته.[31] فيما نشرت صحيفة النيويورك تايمز عرضاً لشخصية لوثولي، قائلة: إن حكومة جنوب إفريقية قد اختارت «عدواً قيماً» وأن السفير الأمريكي الجديد فيليب كرو Philip Crowe ـ الذي يفوق اسلافه حنكة وثقافة بشكل كبير ـ ذهب لزيارة لوثولي في غروتفيل Groutville بعد فرض الحظر عليه بثلاثة أشهر.[32] إلا أن الدبلوماسيين الغربيين والوا ابتعادهم عن طريق قادة المؤتمر الوطني الإفريقي الأكثر ميلاً إلى القتال، مثل مانديلا.

أخضع مانديلا لضغط أكبر بكثير أثناء المحاكمة، إلا أنه بقي ناشطاً جداً

وراء الستار. كان يستطيع أن يرى تامبو يومياً في مكتب المحاماة الذي يديرانه، كما كان وثيق الصلة بسيسولو سواء في قاعة المحكمة أم في أورلاندو. بقي سيسولو صاحب نفوذ كبير، وقد قال فيما بعد: «كنت في نظر الجميع لم أزل أميناً عاماً، لأني كنت أقوم بالعمل بالرغم من أن أوليفر تامبو أو دوما نوكوي هما اللذان كانا يشغلان المنصب رسمياً. كنت أتحاور مع نيلسون يومياً، فيما أعتقد». (33)

لكن المؤتمر الوطني الإفريقي بقي ضعيف التنظيم كامل عقد الخمسين. كما وصفه أصر / القادة المحظورون/ في صحيفة «لبيريشين» بصراحة مؤلمة عام 1955:

> «هناك عجز وعدم كفاءة كبيرين على مستويات متفاوته في قيادة المؤتمر. عدم المقدرة على فهم الحالات المحلية وعدم الكفاءة في التعامل مع الأمور البسيطة، مثل الشكاوى الصغيرة، والإجابة عن الرسائل، وزيارة الفروع. كما أن الثقة معدومة بالآخر، والعمل الجماعي في اللجان مفقود. إضافة إلى الفردية والتوق إلى السلطة، مما أدى إلى تخريب قرارات المؤتمر وتوجيهاته، والتجريح والنقد غير المبدئي». (34)

كان مانديلا يعي العجز، لكنه كان حساساً حيال نقد المؤتمر الوطني الإفريقي، وبخاصة من قبل البيض. وقد كتب الصحفي مارتن ليتون Martin Leighton مقالاً في الراند ديلي ميل يصف غياب التنظيم الحقيقي في المؤتمر الوطني الإفريقي، حيث لا يوجد سجلات أو قوائم بأسماء الأعضاء، فيما كان مسؤولوه ينكمشون مقارنة بالإفريقيين في البلاد المتاخمة. استشاط مانديلا غضباً، وعندما زاره ليتون شعر وكأنه يمسك بخناقه، وليس مرد ذلك إلى كذب المقالة، ولكن كما قال فيما بعد. إن «النقد الذي يؤذيني هو النقد الصحيح». (35)

كان فرع الترانسفال للمؤتمر الوطني الإفريقي هو الفرع الأكثر أهمية وفي

الوقت نفسه الأكثر عجزاً. حيث تذمر تنفيذيو الترانسفال في تشرين الثاني (نوفمبر) 1956 من «عدم وجود وعي بالحاجة إلى اليقظة والحذر في نشاطات الفرع. وهناك قدر كبير من البلادة وعدم الكفاءة في أسلوبنا في العمل». وكلما ازداد عدد القادة الممنوعين أصبحت المشكلة أكثر إلحاحاً، ففي كانون الأول (ديسمبر) 1958 أفاد التنفيذي الوطني بأن «هدفنا يجب أن يكون جعل المؤتمر هيئة قادرة على البقاء في وجه أي هجوم أو عدوان يشن عليه، مهما كان حاداً»، وطالبوا بحملة كفاءة فورية. لكن بعد سنة كان الأمين العام الجديد دوما نوكوي، الذي خلف تامبو، يتحسر لأن مشاكل التنظيم «قد أصبحت الآن سنوية جريئة لدرجة القحة». وحذر من أن «فكرة أن منظمة ضخمة كمنظمتنا بكل ما تتحمله من مهام ومسؤوليات، يمكن أن تدار بلا تفرغ تام فكرة مضحكة».[36] وأراد أن توضع الخطة M ـ وهي شبكة المقاومة الطارئة التي طرحها مانديلا منذ ثمان سنوات ـ في التنفيذ دون أي تأخير كي «تتحمل الهجوم الشرس وتتغلب عليه». لكن التحسن في دفاعات المؤتمر الوطني الإفريقي كان طفيفاً فيما لم تبد الشرطة الأمنية عدواً لا يرحم. وعندما كان شرطيان أفريقانيان يتقنان الحديث بالكزوسية يقومان بزيارة لمكاتب المؤتمر الوطني الإفريقي، يذكر مانديلا، أن الشاي كان يقدم لهما، ويطلب إليهما الجلوس كي يتمكنا من تدوين ملاحظاتهما، لأنهما كانا مهذبين جداً».[37]

بعد تأسيس المؤتمر الوطني الإفريقي العام في نيسان (أبريل) 1959 اضطر المؤتمر الوطني الإفريقي إلى اتخاذ موقف أكثر ميلاً للقتال. وعلق آمالاً كبيرة على المقاطعة الاقتصادية، التي كان يراها سلاحاً سياسياً رئيسياً، كان لديه احتمالات غير محدودة.[38] وبدا أن مقاطعة منتجات الشركات أو المتاجر المؤيدة للأبارثيد خير جواب عن الحظر المفروض على أشكال الاحتجاج الأخرى. أراد لوثولي أن يمارس الضغط على الشركات الضعيفة فقال: «لا تفعلوا شيئاً، فقط توقفوا عن الشراء»[39] «لتضربوهم على المعدة» على حد

تعبير مانديلا.[40] في أيار (مايو) 1959، وبتشجيع من مقاطعة ناجحة لسجائر رامبرانت، التي كانت خاضعة لسيطرة أنطوان روبرت Anton Rupert ملك التنباك الوطني الأفريقاني، أعلن المؤتمر الوطني الإفريقي عن مقاطعة البطاطا احتجاجاً على المعاملة غير الإنسانية للعمال الزراعيين. في البداية حقق الإضراب نجاحاً مدهشاً، ورأى فيه مانديلا بداية نمط جديد من المقاومة.[41]

كان مانديلا يحذر من بطش الحكومة الجديدة برئاسة الدكتور هندريك فيرورد Dr. Hendrik Verwoerd الذي أصبح رئيساً للوزراء في أيلول (سبتمبر) 1958، عقب وفاة ستريجدوم Strijdom. لكنه كان واثقاً من أن نظام فيرورد «ببرنامجه المقيت من الطرد الجماعي والاضطهاد السياسي وإرهاب الشرطة» لن يدوم طويلاً: «إنها آخر مقامرة يائسة لحكم مستبد فاشستي مكروه ومحكوم عليه بالإخفاق، وسرعان ما سيخرج من على خشبة مسرح التاريخ، لحسن الحظ».[42]

كان المؤتمر الوطني الإفريقي يخضع لضغط متنام ليتخذ تحركاً جماعياً يتحدى قوانين العبور بإضرام النار في تلك الجوازات المكروهة، التي اعتبرت أداة أساسية من أدوات اضطهاد السود. من الناحية النظرية كانت تلك الخطوة ستجعل النظام كله غير قابل للعمل، لكن المؤتمر الوطني الإفريقي كان حذراً جداً حيال فشل الحملات السابقة. وفي المؤتمر السنوي في كانون الأول (ديسمبر) 1958. قال التنفيذي الوطني إن مقاومة الجوازات تتصاعد، إلا أنهم لزموا جانب الحذر: «إذا اعتقدنا أننا بتسديد ضربة واحدة نستطيع أن نلحق هزيمة بالنظام فإن النتيجة ستكون التحرر من الوهم. من ناحية أخرى لا نستطيع أن نجلس وننتظر إلى أن يصبح الجميع مستعدين لدخول ساحة المعركة.. لقد بدأ النضال من أجل إلغاء قوانين / الجوازات. ولا مجال للعودة إنما/ إلى الأمام أبداً/».[43]

كان دوما نوكوي، الأمين العام الجديد للمؤتمر الوطني الإفريقي شخصاً

حيوياً ومكتنزاً من خريجي جامعة ويتز أصبح أول محام أسود في المحاكم العليا في جنوب إفريقية. كان تحت حماية تامبو الذي علمه في مدرسة سانت بيتر، كما كان ملاكماً، له عدوانية المصارع التي كان تامبو دائماً يضطر إلى كبحها.[44] لقد صاغته حملة التحدي وقضايا الخيانة وأصبح شيوعياً ملتزماً في الوقت الذي يتمتع فيه بحياة جيدة وشراب. ومن موقعه كأمين عام صمم على إعادة تنظيم المؤتمر الوطني الإفريقي. وبعمله وثيقاً مع سيسولو ومانديلا وتامبو، حضر خطة مفصلة لتطرح على المؤتمر السنوي للمؤتمر الوطني الإفريقي للموافقة عليها في كانون الأول (ديسمبر) 1959. اقترحت الخطة أولاً تمديد المقاطعة الاقتصادية، ثم شن حملة معادية لجوازات المرور، على أن تبدأ في 31 آذار (مارس) 1960، وهي الذكرى السنوية لأول مظاهرة ذات شأن ضد قوانين الجوازات يوم 26 حزيران (يونيو).

لكن رعد المؤتمر الوطني الإفريقي سرقه المؤتمر الإفريقي العام، الذي كان تواقاً لعمل فوري. فبعد أسبوع من المؤتمر الوطني الإفريقي عام1959 تداعى تنفيذيو المؤتمر الإفريقي العام إلى أول مؤتمر وطني لهم. وكان اقتراحهم الرئيسي معتدلاً بشكل لافت وهو: / حملة وضع/ للإصرار على أن يحصل الإفريقيون على معاملة كريمة في المحال التجارية وأماكن العمل، بشكل يمكنهم من تأكيد شخصيتهم الخاصة والتخلص من عقلية العبيد.[45] سرعان ما لحق ذلك سوبوكوي الذي طرح حملته الخاصة بمحاربة قوانين الجوازات. كان اقتراحاً فجاً، لم يقدر بشكل واقعي المخاطر التي ينطوي عليها، إلا أنه سرعان ما حصل على الموافقة الجماعية. قال سوبوكوي إن المؤتمر الوطني الإفريقي «سيعبر الآن الروبيكون التاريخي الخاص به».[46]

اعتقد قادة المؤتمر الوطني الإفريقي أن المؤتمر الإفريقي العام يلعب دور المفسد. بمحاولته الحط من شأن مبادراتهم وسبقهم إليها. حيث كتب جو

سلوفو: «إن ما بادر المؤتمر الإفريقي العام به كان نسخة سيئة التنظيم وليست بمستوى حملة التحدي عام 1952». [47]

وأُحبط مانديلا لرؤية منافسه سوبوكوي في موقع «الخطيب المفوه والمفكر اللامع» يلعب دور (الديماغوجي) متجاهلاً تحذيرات الفشل التاريخية. إلا أن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يستطع تحمل مغبة تجاهل الحماسة العامة التي أطلقها سوبوكوي. وبعد أربعة أشهر أثبتت خطته المتعجلة أنها الحافز الذي بدل المشهد الجنوب إفريقي برمته. ودفع مانديلا نحو دور ثورة أشد ميلاً للقتال.

11

الثورة التي لم تكن

1960

حمل وعد الاستقلال في دول إفريقية أخرى تفاؤلاً جديداً إلى المؤتمر الوطني الإفريقي كما إلى المؤتمر الإفريقي العام. كتب مانديلا في صحيفة «ليبريشين» في آذار (مارس) 1958 ضمن هجوم شرس على الإمبريالية الأمريكية «إن شعب إفريقية استيقظ، ومستقبل هذه القارة ليس في أيدي أنظمة الحكم الرديئة السمعة التي تحالفت مع الإمبريالية الأمريكية. وإنما هو في أيدي عامة الناس الذين يعملون من خلال حركاتهم الجماعية».[1]

جاء في تقرير المؤتمر الوطني الإفريقي في كانون الأول (ديسمبر) 1959 «شهد العام الماضي، جيشاناً غير مسبوق في إفريقية، وأصبح الحكم الذاتي نداء الجماهير في طول القارة وعرضها».[2] أصبحت كلمة /إفريقية/ نداء موحداً، وصار الأطفال يسمون كوامي Kwame أو جومو Jomo تيمناً بنيكروما Nkrumah وكينياتا Kenyatta. وأصبحت هيمنة البيض في جنوب إفريقية نغمة نشازاً لا تنسجم مع بقية القارة، كما أصبحت أكثر ضعفاً. رأى الصحفيون والدبلوماسيون أن عام 1960 سيكون /عام إفريقية/.

حيث ستستقل سلسلة من المستعمرات البريطانية والفرنسية، وبدأت القوى الإمبريالية السابقة تخطب ود القادة الجدد للحفاظ على العلاقات التجارية والانضمام إلى الحرب الباردة ضد الشيوعية.

في بريطانية بدأ رئيس الوزراء المحافظ هارولد ماكميلان Harold

Macmillan يدرك أهمية إفريقية السوداء، التي كان يشبهها بفرس نهر كسول بدأ فجأة يحث على الحركة.[3] كان معنياً بالمستوطنين البيض المتصلبين في جنوب إفريقية والثمن السياسي لعلاقات بريطانية بحكومة الأبارثيد في جنوب إفريقية. وبعد فوزه في الانتخابات في تشرين الأول (أكتوبر) 1959 خطط للقيام بجولة في إفريقية تتوج بزيارة كيب تاون.

خشي قادة جنوب إفريقية السود والليبراليون أن يصفح ماكميلان عن الأبارثيد فأقدم أربعة منهم، ألبرت لوثولي، وآلان باتون Alan Paton، ومونتي نيكر Monty Naicker وجوردن نغوبان Jordan Ngubane على توقيع رسالة مفتوحة إلى ماكميلان قبل أن ينطلق، نشرت في جريدة «لأوبزرفر» اللندنية، التي كانت تعرف في وقتها باسم صديق الرجل الأسود. حذرت الرسالة ماكميلان من أن الأبارثيد سيء ومجحف، ورجته ألا يقول «كلمة واحدة يمكن ان تفسر مديحاً لذلك النظام».[4] وافق ماكميلان، سراً، على كل كلمة جاءت في الرسالة، وحملها محمل الجد لدرجة أنه سأل المسؤولين لديه فيما إذا كانوا يعتقدون أن موقعي الرسالة سيرضون بالخطاب الذي كان يعده لجنوب إفريقية.[5]

بدأ ماكميلان جولته في غانة، حيث امتدح رئيس الوزراء كوامي نيكروما Kwame Nkrumah وذكر لأول مرة / رياح التغيير/ (برغم أن الصحافة لم تلحظ تلك العبارة).

وتابع جولته عن طريق نيجيرية وروديسية ونياسالاند إلى جنوب إفريقية. وفي كيب تاون أقام لدى الدكتور فيروورد، وسرعان ما شعر بعناده الشديد: «ليس لأي شيء يقوله المرء أو يطرحه أن يترك أصغر أثر في آراء هذا الرجل المصمم».[6] ذعر ماكميلان، كما قال لسكرتيره الصحفي هارولد أيفانز Harold Evans، للجنون الذي «يرفع الفصل العرقي إلى مستوى المبادئ». وقال: «إذا لم يجعلوا من الفصل العرقي إيديولوجيا فإنهم سينجحون حتماً في

الوصول إلى النتائج التي يسعون إليها بالحد الأدنى من التنازل. فالفوارق الاقتصادية بين الأسود والأبيض ستكون كافية بحد ذاتها لتحقيق الفصل العملي. وما من شك في أنهم سيضطرون إلى قبول الإفريقي الموهوب حقاً». [7]

أثناء ترحاله عبر إفريقية كان ماكميلان يراجع الخطاب الذي سيلقيه في كيب تاون، وكان باستمرار يطلب إعادة صياغته من قبل العاملين معه ومنهم اثنان من اللغويين الأكثر تهذيباً وعمقاً في بطانته: الموسوعي دافيد هانت David Hunt من مكتب الكومنويلث، والمندوب السامي النشيط السير جون مود Sir John Maud (وقال أحد أذكياء جنوب إفريقيا «مع مود يجب أن تأخذ اللطف باللطف»). كان ماكميلان متوتر الأعصاب قبل أن يدخل إلى المجلس النيابي في كيب تاون لدرجة أنه اضطر إلى الذهاب إلى الحمام ليتقيأ. وكان خطابه ضربة معلم، بأسلوب المسح التاريخي الذي اعتمده والذي سلب لأول وهلة لب نواب المجلس الأفريقانيين. إذ امتدح وطنيتهم كأوائل القوميين الإفريقيين، قبل أن يفصل القول: «بأن هناك بعض الأوجه في سياستكم تجعل من المستحيل بالنسبة لبريطانية أن تدعم جنوب إفريقية في الكومنويلث». [8] ولم يفهم مضمون حديثه قبل أن تتناوله الصحافة البريطانية بالتحليل. قالت صحيفة دي بيرغر Die Burger، وهي الصحيفة الأفريقانية الرائدة: «لم يعد بإمكان بريطانية أن تتحمل صحبة بلادنا بينما بعض شؤوننا تذروها الرياح». [9]

طلب ماكميلان الاجتماع بكبار السياسيين السود، إلا أن برنامجه كان محبوكاً بشدة من قبل حكومة فيروورد، والمندوب السامي، كما رأينا، لم يكن يعرف عن قادة مثل مانديلا سوى النذر اليسير. وفي حفلة الحديقة المخصصة للبيض فقط، التي أقامها السير جون مود، حث باتريك دانكان Patrick Duncan ماكميلان على رؤية القادة السود، لكنه لم يلق لديه أذناً صاغية. [10]

والواقع أن ماكميلان قرر أن خطابه في كيب تاون ترك أثراً كافياً للتسامح معه إذا لم يلتق بقيادة المؤتمر الوطني الإفريقي. [11] كان ألبرت لوثولي سيقول

لماكميلان ـ كما قال فيما بعد ـ إن الإفريقيين سيكونون أفضل حالاً لو أن جنوب إفريقية كانت خارج الكومنويلث، وإن: «ذلك كان سيعطي بريطانية نفوذاً أكبر، ويجعل الأفارقة أكثر عزلة»، إلا أنه فوجئ مفاجأة حميدة بخطاب ماكميلان وقال: «إنه أعطى الشعب الإفريقي بعض الإلهام والأمل».[12]

مانديلا أيضاً اعتبر الخطاب «رائعاً» برغم عدم ثقته بالإمبريالية البريطانية، ولن ينسى أبداً شجاعة ماكميلان إذ حذر ـ وهو في عرين الأسد ـ حكم القلة البيض العنيد الأعمى عرقياً من مغبة رياح التغيير. وبعد ست وثلاثين سنة في قاعة وسيتمينستر Westminster Hall سيدلي مانديلا بخطاب على نمط خطاب ماكميلان، بالمسح التاريخي نفسه، وسيذكّر برسم كاريكاتوري في صحيفة جنوب إفريقية يصور ماكميلان بعد الخطاب مع تعليق من مسرحية يوليوس قيصر Julius Caesar.

آه ! سامحني أيها القطعة النازفة من التراب

لأني ضعيف ولين مع أولئك الجزارين[13]

سرعان ما أثبتت /رياح تغيير/ ماكميلان أنها دون ما يقتضيه الواقع. فبعد ستة أسابيع فقط اضطر لأن يفسر أنه لم يكن يقصد: «إثارة زوبعة تطيح بالحضارة النامية كلها. يجب أن نتجنب ذلك مهما كلف الأمر».[14] وحتى عندما كان يجوب إفريقية كانت الحكومة البلجيكية تتهيأ، بأقل قدر من التحضير، لإعطاء الاستقلال بعد أربعة أشهر للكونغو، الذي سرعان ما سيغرق في حرب أهلية وفوضى تحمل معها الحرب الباردة إلى قلب القارة وتنشر الرعب في أوصال جنوب إفريقية البيضاء. وقد شجعت سرعة انسحاب الإمبريالية المؤتمر الإفريقي العام على التعهد بالإطاحة بالهيمنة البيضاء على جنوب إفريقية بحلول عام 1963. استاء مانديلا من ادعائهم بأن الأفارقة سيتخلون عن السلطة بالسهولة التي تتخلى بها القوى الاستعمارية، وكتب فيما بعد من سجنه: «لم يبد أن لدى المؤتمر الإفريقي العام أية خطط لتهيئة الناس

لتلك اللحظة التاريخية. التي افترضوا أنها ستتحقق بمجرد الذهاب إلى السجن والانتظار هناك إلى أن يسقط الناتس Nats من تلقاء أنفسهم». [15]

أصبح الكونغرسان المتنافسان الآن في خلاف حاد ـ مثل كثير من حركات التحرر في إفريقية ـ ينتقد بعضهما بعضاً بقدر ما ينتقدان عدوهما المشترك. وفيما كان المؤتمر الوطني الإفريقي يحضر لتظاهرته ضد أذونات المرور يوم 31 آذار (مارس) 1960. كان سوبوكوي والمؤتمر الإفريقي العام يتقدمون بحملتهم الخاصة المناوئة للأذونات بتخطيط أقل بكثير. اعتقد سوبوكوي أن القيادة التلقائية، الجريئة، ستعبئ الجماهير بشكل آلي، وأعلن في 18 آذار (مارس) فجأة أنه خلال ثلاثة أيام، قبل عشرة أيام من الموعد المقرر لمظاهرة المؤتمر الوطني الإفريقي «في كل مدينة وبلدة وقرية، يجب أن يترك الرجال أذوناتهم في البيت، ويسلموا أنفسهم لمخافر الشرطة كي تلقي القبض عليهم، دون أن يطلبوا لأنفسهم كفالة أو دفاعاً أو غرامة». وفي وقت لاحق دعا المؤتمر الوطني الإفريقي للانضمام إليهم، إلا أن نوكوي امتنع متبصراً، لأن الخطة «لم يكن لديها مقومات معقولة للنجاح». [16] وكان مانديلا متشككاً بالقدر نفسه إذ اعتقد أن المؤتمر الإفريقي العام كان مجرد «قيادة تبحث عن أتباع»، وأنه يستبق خطط المؤتمر الوطني الإفريقي بانتهازية سمجة. [17]

في21 آذار (مارس) سلم سوبوكوي و150 شخصاً آخرون أنفسهم بلا أذونات إلى مركز شرطة أورلاندو، حيث لم يكن للمؤتمر الإفريقي العام أتباع كثر، كما كان الأمر في معظم أنحاء جنوب إفريقية. لكنه كان أكثر قوة في الأحياء السوداء من كيب تاون وفي شاربفيل Sharpeville قرب فيرينايغن Vereeniging في الترانسفال، حيث كان المؤتمر الوطني الإفريقي ضعيف التنظيم منذ زمن طويل. [18] وفي كيب تاون قدم 1500 شخص أنفسهم للسلطات، في حين تجمعت حشود هائلة احتجاجاً إلى أن أطلقتهم الشرطة، بعد مقتل اثنين . في شاربفيل أحاطت جمهرة قوامها 10.000 شخص مخفر

الشرطة، مما أفقد الشرطة صوابها فأطلقت النار وألقت سبعة وستين قتيلاً.

هذه المجزرة في شاربفيل، خلاف أية مواجهة سابقة في جنوب إفريقية، تردد صداها فوراً في كافة أرجاء العالم. وفي واشنطن قال الرئيس أيزنهاور Eisenhower، الذي يواجه مشاكله العرقية الخاصة عام الانتخابات؛ إنه لن يجلس في موقع الحكم في «مشكلة سياسية واجتماعية صعبة على بعد ستة آلاف ميل». إلا أن وزارة الخارجية الأمريكية انتقدت بريتورية بشكل غير مسبوق وأعربت عن أملها في أن يتمكن السود في جنوب إفريقية من الحصول على «إنصاف لمظالمهم المشروعة بوسائل سلمية».[19] وفي الأمم المتحدة ألقى مجلس الأمن باللائمة على الحكومة في إطلاق النار، في حين امتنعت بريطانية وفرنسة عن التصويت.[20] وفي جنوب إفريقية تداعى سوق الأوراق النقدية، واصطف البيض في طوابير ليشتروا البنادق أو ليتقدموا بطلبات للهجرة.

انقلب المشهد السياسي للسود بين عشية وضحاها. إذ تلقى سوبوكوي والمؤتمر الإفريقي العام دفعاً عظيماً. وعلّق مانديلا فيما بعد أن ذلك «لم يكن بسبب ما كانوا يقولونه ـ الذي كان فجاً تماماً ـ وإنما بسبب المجزرة».[21] لكن موجة الغضب الجماهيري بدت في البداية إثباتاً لإيمان سوبوكوي بالعمل العفوي. فقد وجدت خطابة المؤتمر الإفريقي العام الوطنية آذاناً صاغية لدى السود حركت أحاسيسهم بشكل أكثر حيوية من بيانات المؤتمر الوطني الإفريقي الأكثر حذراً. وقد قال أحد الصحفيين الإفريقيين «إن لسوبوكوي حيوية، يا رجل، إنه واقعي جداً.. جداً.. جداً». وكان كثير من السود ينشدون علناً نشيد المؤتمر الإفريقي العام:

نحن السود

نطالب بأرضنا

التي أخذت عنوة

ويجب أن يخرجوا منها[22]

قبل مانديلا أن يكون قادة المؤتمر الإفريقي العام قد أظهروا شجاعة، وسرعان ما تبين أن المؤتمر الوطني الإفريقي «يجب أن يقوم بتعديلات سريعة»[23] فأمضى، بعد شاربفيل، ليلة كاملة يناقش سراً سبل الرد مع سيسولو ونوكوي وسلوفو. وقرروا أن على قادة المؤتمر الوطني الإفريقي، بدءاً من رئيسه ألبرت لوثولي، أن يحرقوا بشكل علني أذوناتهم. كما عليهم أن يعلنوا عن يوم حداد، يلزم فيه العمال بيوتهم احتجاجاً على المجزرة. وشكلوا لجنة فرعية تعمل من منزل سلوفو لتحضر للإضراب، فيما ذهب نوكوي إلى بريتورية ليرتب موضوع حرق أذونات لوثولي.[24]

ساورت الشكوك كثيراً من الشيوعيين، ومنهم راستي بيرنشتاين حيال إحراق الأذونات، الذي خافوا أن يؤدي إلى الطرد والإقصاء والنفي، لكن المؤتمر الوطني الإفريقي كان قد اتخذ قراره، وحاول الشيوعيون المساعدة.[25]

بدت البنية الحديدية للأبارثيد تتداعى على مدى عشرة أيام بعد شاربفيل. وفي 26 آذار (مارس) صور لوثولي يحمل البقايا المتفحمة لإذنه. وبعد ذلك بيومين لبت الأغلبية العظمى من العمال السود نداء المؤتمر الوطني الإفريقي للاعتصام بالبيوت، فيما حرق مانديلا ونوكوي تصريحيهما أمام الكاميرات والصحفيين، وتبعهما في ذلك بضع مئات آخرون. وفكر مانديلا أنه لا يمكن سوى «لمنظمة جماهيرية حقيقية أن تنسق مثل هذه النشاطات».[26] وأهم ما في الأمر هو أن الحكومة بدت مشلولة، وأعلن مأمور الشرطة يوم 25 آذار (مارس) أنه سيعلق اعتقال من لا يحمل إذناً.

بدا المؤتمر الوطني الإفريقي الآن وكأنه يسرق الأضواء، وعندما تحدثت مع مانديلا في أورلاندو يوم 29 آذار (مارس) كان يستبعد اعتماد المؤتمر الإفريقي العام على الرد العفوي «لا بد أن يكون لديكم الآلية والتنظيم»، وكان شديد الحساسية حول دور المؤتمر الإفريقي العام في المبادرة بالاحتجاج،

مصراً على أن المقاطعة التي فرضها المؤتمر الوطني الإفريقي على البطاطا كانت مقدمة حاسمة لحرق الأذونات، وبدا واثقاً من أن مبادرة المؤتمر الوطني الإفريقي ستنجح. وكان معه دوما نوكوي، وقد ألقى جسمه القصير مسترخياً في كرسي مريح. وكان مبتهجاً لأن ألف إذن قد أحرقت حتى الآن، وقال: «لم نحلم أبداً أن هذا سيحصل بهذه السرعة. سنشويهم.. ـ إن البلاد الآن في مرحلة ما قبل الثو.. ـ وأوقف نفسه عن قول /الثورة/ ـ وقال: في حالة تسبق حدوث تغيرات أساسية».[27]

هل كانت ثورة؟ كانت واحدة من تلك الفواصل القصيرة في تاريخ أمة بدا فيها أن أي شيء ممكن. في الحانات الرخيصة (الشيبين) كان هناك حماسة مفاجئة: «هناك شرخ في الجدار الأبيض، فالشرطة غاية في التهذيب، وهذا مؤلم: حتى أن شرطياً ناداني بلفظة مينير Meneer (ياسيد): لقد جعلوا جلدنا سميكاً لدرجة أننا لم نعد نشعر بالوخز». وحتى الإذاعة التي تملكها الدولة أذاعت لحناً ثورياً قديماً، هربه إلى داخل «الاستوديو» موظف أسود مناهض: «انهض يا شعبي. واتحد. الخطأ خطأنا. جميع الدول تدوسنا بأقدامها».[28]

بحلول 30 آذار (مارس) كانت المبادرة تعود ثانية إلى المؤتمر الإفريقي العام في كيب تاون، معقلهم حيث شل المدينة إضراب عام. وبدأت الشرطة تهاجم الحارات بضراوة لتخرقه. فرد العمال السود بمسيرة بدت عفوية ضمت حوالي 30.000 شخص في مركز المدينة، بقيادة طالب في الثالثة والعشرين يلبس بنطالاً قصيراً هو فيليب غوسانا Philip Kgosana، الذي اقتدى بنموذج سوبوكوي. وعندما وصلوا إلى المدينة بدا لساعة من الزمن أنه يمسك مستقبل البلد بين يديه لكنه خدع بوعد مقابلة مع وزير العدل ففرق الحشد. لكنه اعتقل بدل ذلك وأوقف تسعة أشهر.[29]

ويتابع المؤرخون جدلهم حول ما إذا كانت المسيرة عجلت الثورة: ما من شك في أنه لولا خداع الحشود لكانت الشرطة قامت بمجزرة أسوأ من

مجزرة شاربفيل، كان حرياً بها أن تحرض انفجاراً أسود أكثر خطراً.[30]

وعلى تلك الحال، سارعت الحكومة إلى استغلال الوضع، فأعلنت حالة الطوارئ في اليوم نفسه وأوقفت ما يربو على 2000 شخص. كان مانديلا قد تلقى سراً معلومات مسبقة من قبل صديق في الشرطة السرية، وحذر رفاقاً له من ضمنهم أحمد كاثرادا، الذي أخبر بدوره بيرنشتاين، الذي حذر أصدقاءه الشيوعيين من مغبة النوم في بيوتهم.[31] واتخذ قرار بأن يختبئ بضعة ناشطين - مثل هارميل وكوتاني ودادو - فيما يستسلم مانديلا والبقية للاعتقال.[32]

اعتقل مانديلا ونقل إلى سجن نيولاندز قرب صوفيا تاون حيث أمضى الليل في وضع مرعب، وصفه في اليوم التالي لهيلين جوزيف التي سجنت إفرادياً «احتجز خمسون معتقلاً لآخر الليل، بعد اعتقالهم في الساعة الواحدة صباحاً، في باحة مكشوفة بلا سقف ينيرها مصباح كهربائي واحد. كانت صغيرة لدرجة أنهم لم يستطيعوا سوى الوقوف. ولم يقدم لهم أي طعام أو بطانيات. وفي الصباح أخذوا إلى زنزانة مساحتها حوالي 8 أقدام مربعة، ليس فيها تمديدات صحية سوى فتحة بالوعة في الأرض تغسل بالماء حسب رغبة الشرطي المسؤول، ولم يأت الطعام، أو حتى مياه الشرب، قبل الساعة الثالثة بعد الظهر، بعد اثنتي عشرة ساعة من إحضار الرجال إلى الزنزانة».[33]

كانت الحكومة الآن تتحرك بسرعة لتمنع مزيداً من الاحتجاج. حيث أقدمت يوم 8 نيسان (أبريل)، بمساعدة الحزب المتحد المعارض، على مرّ قانون المنظمات غير القانونية الجديد وبموجبه أصبح المؤتمر الوطني الإفريقي، بعد ثمانية وأربعين عاماً، حزباً غير قانوني، أسوة بالمؤتمر الإفريقي العام. وسيبقيان كذلك على مدى الثلاثين سنة القادمة.

كانت أحياء السود في فوضى سياسية، إذ لم يكن أحد يعلم من في السجن، ومن نجا، وتركز جو الأزمة يوم 9 نيسان (أبريل)، عندما أطلقت النار على الدكتور فيروورد وجرح من قبل مزارع أبيض اسمه دافيد برات من في

معرض زراعي في جوهانسبورغ بقيت جنوب إفريقية بضعة أيام في سجن سياسي، كان فيها فيروورد خارج ساحة العمل ووزارته مشتتة. وقد ألقى أحد الوزراء، وهو بول سوير Paul Sauer خطاباً يوم 19 نيسان (أبريل) قال فيه إن شاربفيل قد أغلقت كتاب التاريخ القديم لجنوب إفريقية، وإن على البلد أن يعيد النظر في علاقاته العرقية بجدية وأمانة.[34] إلا أن روح المصالحة هذه سرعان ما انقضت واستعاد فيروورد عافيته بالتدريج وملك زمام الأمور، وصار أكثر عناداً من أي وقت مضى. وفرضت الشرطة قوتها بوحشية أكثر. وخبت نار أذونات المرور الأسطورية؛ إذ تذكر الناس أنهم لا يستطيعون الحصول على منحة أو معاش تقاعدي أو أي مدخرات من صندوق توفير البريد أو تقديم طلب بيت للسكن دون إذن مرور. بدؤوا يصطفون أرتالاً للحصول على أذونات بديلة لتلك التي أحرقوها. وبحلول نهاية شهر نيسان (أبريل)، أي بعد شهر من شاربفيل، بدا الحديث عن ثورة وشيكة سابقاً لأوانه. وقد قال الصحفي كان ثيمبا Can themba «هذه ليست ثورة». كان الشباب يتحدثون عن تحول رياح التغيير إلى إعصار. لكن يبدو أنه لم يخطر على بالهم أنه قد يكون مجرد نسمة عابرة.[35] أثبت تخفيف قوانين الأذونات أنه (تكتيكي) بحت، بقصد التحضير لإجراءات صارمة أكثر منهجية. ولم تبد بريتورية أي مؤشر ينبي بالخضوع لضغط ماكميلان أو أي قائد غربي آخر، وسرعان ما بدأت الحكومة تضع خططاً لتدريب الشرطة، بمساعدة من الخارج، على أساليب مراقبة وتعذيب أكثر نجاعة وبطشاً.

كشفت عقابيل شاربفيل غياب الواقعية لدى كل من المؤتمر الوطني الإفريقي والمؤتمر الإفريقي العام. وكانت أوجه الشبه قليلة بين جنوب إفريقية وبقية القارة. حيث كانت الحكومات الاستعمارية عبارة عن حكام راغبين عن الحكم. ولم تلق حركات التحرير صعوبات كبيرة في سبيلها إلى الحرية. وما من شك في أن نضال الجنوب إفريقيين ضد الأفريقانيين سيكون أقسى من الانتصارات في الشمال. في هذا الجو غير العادي تابع القضاة الثلاثة في

بريتورية قضية الخيانة، كانوا يستمعون بهدوء إلى الأدلة حول أحداث خمس سنوات خلت. في كل يوم كان المتهمون الثلاثون ينقلون إلى قاعة المحكمة من السجن. كان يسمح لمانديلا بالخروج أيام العطلة الأسبوعية ليزور مكاتب مانديلا وتامبو، التي تردت أوضاعها بسبب المحاكمات. كان يرافقه شرطي أفريقاني ودود هو السيرجنت كروجر Sergeant Kruger، الذي كان يثق بأنه لن يهرب. ولكن أثناء الأسبوع كان عليه أن يمضي الليل في السجن والنهار في المحكمة، يواجه المرحلة الأكثر حساسية في قضية الخيانة.[36] كانت الحكومة قد أعطت الآن المحاكمة أهمية مضافة، كبديل للتحري عن أسباب مجزرة شاربفيل، الذي كانت المعارضة تطالب به. وكما قال الدكتور فيروورد يوم 20 أيار (مايو): «المحاكمة نفسها تحمل طابع التحري في أسباب الإزعاجات».[37]

كان محامو الدفاع، برئاسة برام فيشر Bram fischer ساخطين بسبب القيود التي فرضتها حالة الطوارئ، وقالوا إن العدالة لا يمكن تحقيقها في ظروف غير طبيعية كتلك، في وقت كان فيه موكلوهم في السجن، وغالباً ما تصعب استشارتهم. فاقترحوا (استراتيجية) جريئة، وافق عليها مانديلا: «وذلك بأن ينسحبوا من القضية إلى أن ترفع حالة الطوارئ، مما يترك المتهمين الثلاثين يدافعون عن أنفسهم. كانت مناورة مثيرة للجدل، إلا أنها كانت كفيلة بإعطاء المتهمين فرصة لاستعراض ذكائهم أمام القضاة، مخاطبتهم مباشرة. كثيراً ما كانت نقاشات السجناء الطويلة في السجن تثير دهشة سجانيهم. فعندما قام مانديلا بزيارة هيلين جوزيف ليناقش معها الإجراءات؛ لاحظ أن بعض السجانات النساء انجذبن إلى النقاش، كما تأثرن بالتزام السجناء السياسي. وضع سحب فريق الدفاع مسؤولية خاصة على كاهل مانديلا ودوما نوكوي، المحاميان الوحيدان بين الثلاثين. فأصبح عليهما الآن مساعدة الآخرين في تحضير قضاياهم. إلا أن بعضهم تشكى من غياب التمثيل اللائق. وأكد لهم مانديلا أنهم يطرحون نقاشاً أخلاقياً قوياً.[38]

في آب (أغسطس)1960، بعد خمسة أشهر من القيود، رفعت حالة الطوارئ وعاد المحامون إلى قاعة المحكمة. جاء الآن دور مانديلا للإدلاء بشهادته ـ الأمر الذي لقي ترحاباً لديه، إذ أنه كان ممنوعاً من الكلام في أي مكان آخر ـ وعين المحامي الشاب سيدني كينتريدج Sydney Kentridge للدفاع عن مانديلا، وتحضيره للإدلاء بشهادته ومتابعة استجوابه، أخفى أسلوب كينتريدج المتواضع عقلانية لا تلين، ستحمله إلى قمة مهنته في جنوب إفريقية وبريطانية على حد سواء، وسيصبح مشهوراً بعد أن استخلص من شهود من الشرطة الأهوال الكاملة لتعذيب ستيف بيكو Steve Biko ووفاته أثناء الاستجواب. في قاعة المحكمة في قضية الخيانة، سرعان ما أصبح كينتريدج شديد الإعجاب بمانديلا. ويذكر أنه «في ذلك الوقت أيقنت لأول مرة أنه قائد طبيعي للرجال. كان حازماً، دمثاً، يعتمد دائماً على الفكر والعقل. وتبدت ثقافته السياسية الحقيقية من إجاباته عن الأسئلة، لم يكن لديه برنامج عمل خفي، الأمر الذي أصبح واضحاً في إفادته، تحت الاستجواب المكثف». [39]

ما من شك في أن شهادة مانديلا كشفت عن سياسي أعمق فكراً مما ظهر من قبل. وتحت ضغط استجوابه والأزمة السياسية العاصفة، واجه التحدي بسيطرة كاملة. وفي تصريحه شرح بدقة تطوره السياسي وفلسفته، فيما كان يؤكد أنها ليست بالضرورة فلسفة الكونغرس. واعتقد أن ذلك كان أقوى خطاب ألقاه. [40] تحدث عن إيمانه المبكر بالقومية الإفريقية ثم تحوله إلى التعددية العرقية. ورسخ تأكيده على اللاعنف، ورفضه مبدأ الثورة بمعنى / قفزات جبارة/ . وشرح تصوره لتوصل المؤتمر الوطني الإفريقي إلى حق الانتخاب العام من خلال تنازلات تدريجية في التصويت المقيد، مما يؤدي في النهاية إلى الديموقراطية الشعبية. وقال إنه شخصياً يفضل مجتمعاً غير طبقي، مثل المجتمعات التي يعتقد أنها موجودة في هنغاريا والصين وروسيا، إلا أنه سلم بأن الإفريقيين سيكون لديهم، لفترة طويلة من الزمن، طبقات مختلفة من عمال

وفلاحين وأصحاب مخازن ومثقفين. وأعرب عن معارضته الحادة للإمبريالية: «من خلال خبرتي الشخصية مع الإمبريالية، يبدو أن هناك القليل القليل الذي يمكن أن يقال عنها.. لقد انطلقت عبر العالم، تخضع الشعوب وتستغلها، تحمل الموت والدمار إلى ملايين الناس». كما قال إنه يعارض الرأسمالية، لكنه ادعى عدم معرفته عن ارتباطها بالإمبريالية. وأصر على أن المؤتمر الوطني الإفريقي ليس له أي توجه حيال الإمبريالية، وأن بنود ميثاق الحرية، بغض النظر عن الإطاحة بالاحتكارات التعدينية، لم تتطرق إلى الرأسمالية وتركتها / سليمة معافاة/ .

أعرب مانديلا عن اعتقاده أن حكومة جنوب إفريقية تتحرك باتجاه الفاشية، وهو ما يمكن أن يعبر عنه بالعبارة الكزوسية / اندلوفو آيباتوا/ indlovu ayipatwa ـ فيل لا يمكن لمسه، وتوقع المؤتمر الوطني الإفريقي ردود فعل أكثر ضراوة: «فالحكومة لن تتردد في تذبيح مئات الإفريقيين». لكن مانديلا مازال يبدو متفائلاً ـ حتى بعد شاربفيل ـ بأن «الحكومة الوطنية أضعف مما كانت عندما بدأنا». وكان يأمل أن تدرك الحكومة أن سياساتها غير مجدية، بالضغط الداخلي والخارجي: «فالبلدان التي كانت تدعم السياسات العرقية في جنوب إفريقية قد انقلبت ضدها».[41]

هيلين جوزيف، التي أدلت بشهادتها بشكل عصبي، استمدت الحماسة من ثقة مانديلا الهادئة. فهو قليلاً ما كان يثار لدرجة الغضب، ولاحظت، مثلاً، عندما اقترح القاضي رامبف أن إعطاء حق التصويت لأشخاص غير متعلمين يشبه إعطاء ذلك الحق للأطفال. وتساءل رامبف: «ما الفرق بين أن يكون لديك أطفال لا يعرفون شيئاً، أو كبار لا يعرفون شيئاً؟». كان مانديلا غاضباً بهدوء، خاصة وأن والده كان أمياً، كما أن اثنين من الرجال المسنين بين المتهمين لم يذهبا أبداً إلى المدرسة.[42] «كما واجه متاعب عندما جوبه ببعض الوثائق والخطابات لزملاء أكثر ميلاً إلى القتال. ماذا عن تصريح روبرت ريشا

للمتطوعين أنهم إذا طلب منهم أن يقتلوا فإن عليهم أن يقتلوا ؟ قال مانديلا إنه كان «مثالاً سيئاً فقد كان يتعلق فقط بموضوع الانضباط». وماذا عن زميله المتهم ثيمبايل نديمبا Thembile Ndimba الذي قال: «إذا أتت التعليمات للمتطوعين بأن يقتلوا فإن عليهم أن يقتلوا؟» قال مانديلا إنها كانت «طريقة غير حميدة لإعطاء مثال عن الانضباط»، لكنها ليست سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي. وعندما أطلعوه على إشارة لـ «الاستيلاء على السلطة» من عام 1951 أجاب «لست أرى أي لجوء للقوة أو العنف في هذه العبارة». ولدى سؤاله عن محاضرات أعدها راستي بيرنشتاين فحواها رسالة ماركسية واضحة، قال: «لسوء الحظ أن الطريقة التي عولجت بها ربما أعطت انطباعاً بأنها تحمل بعض السلطة من المؤتمر الوطني الإفريقي».

لكن مانديلا كان قادراً على إثبات أن لا هو ولا أحد سواه من قادة المؤتمر الوطني الإفريقي نادى بالعنف في أي وقت خلال العقد الماضي، وأنه في الوقت الذي رفض فيه انتقاد الشيوعيين، لم يلتزم بالحزب.

كينتريدج: هل أصبحت شيوعياً؟

> مانديلا: الحقيقة أني لا أعرف إن كنت قد أصبحت شيوعياً. إذا كنت تقصد بكلمة شيوعي عضو في الحزب الشيوعي وشخص يؤمن بنظرية ماركس وانغلز ولينين وستالين، ويلتزم بشكل صارم بنظام الحزب، فأنا لم أصبح شيوعياً.[43]

وعندما سأله كينتريدج على حدة لماذا لم يهاجم ستالين بعد أن شجبه خروتشوف عام 1956، أجاب: «لم يكن ذلك من مهامنا السياسية. إن ما فعله ستالين لم يكن موجهاً ضدنا». ونوه كينتريدج بأن مانديلا رأى في الشيوعيين أعداء أعدائه، وبالتالي فهم أصدقاؤه، ولكن بعد مزيد من الاحتكاك بهم كان متأكداً من أنه ليس ستالينياً ولا عضواً في الحزب الشيوعي.[44]

سيصر بعض زملاء مانديلا فيما بعد على أنه في تلك الفترة لم يكن

يختلف عن الشيوعيين، أو أنه ربما كان عضواً سرياً في الحزب الشيوعي. إذ قال بين توروك Ben Turok، الذي كان عضواً في اللجنة المركزية: «إذا لم يكن في الحزب فإن ذلك كان تكتيكاً»[45]، فيما قال راستي بيرنشتاين ببساطة: «بحلول عيد الستين كان صعباً أن أعرف من في الحزب ومن ليس فيه».[46] وستستمر الحكومة على اتهام مانديلا بعضوية الحزب، الأمر الذي كان أعداء الشيوعية في الخارج سيتبنونه بسرعة. وحتى في عام 1966، بعد أربع سنوات في جزيرة روبين، ستخبره وزارة العدل بأن أسمه يدرج كعضو في الحزب. فيكتب مجيباً «بأنه ينكر بشدة أنه كان عضواً في الحزب الشيوعي في جنوب إفريقية بعد 1960 أو في أي وقت آخر». وطلب أن يرى شهادة خطية بقسم وتفاصيل من أي مؤتمر شيوعي كان قد حضره. بعد أربعة أشهر أخبرته الوزارة بأنه تقرر ألا يوضع اسمه في اللائحة «في هذه المرحلة»[47]، والحقيقة أنه كما قال صديقه الشيوعي إسماعيل مير فيما بعد «إن أدق تفتيش لأي نظام أمني حسن التنظيم لم يجد أن مانديلا كان عضواً في الحزب الشيوعي».[48]

إلا أن التعلق الجنوب إفريقي الخاص بالشيوعية حرَّف السؤال. كان كثير من شيوعيي جنوب إفريقية والمتعاطفين معهم، مثل مانديلا، (براغماتيين) في دعمهم: حتى أن مانديلا سيقول فيما بعد إنه كان يستخدم الشيوعيين أكثر مما كانوا يستخدمونه[49] وستثبت الأحداث التالية ضحالة التزامه بعقيدتهم الأساسية. ولكن في أوائل عقد الستين أظهر الشيوعيون قدراً من الشجاعة تجاوز ما بدر عن حكومة الأبارثيد من بطش، وكانت شجاعتهم محط إعجاب، مثل الشيوعيين الفرنسيين إبان حرب المقاومة ضد النازيين.

وما من شك في أن منع المؤتمر الوطني الإفريقي دفعه بشكل أقوى نحو الحزب الشيوعي، وأجبر الاثنين على العمل السري. وبعد أن رفعت حالة الطوارئ في آب (أغسطس) وأخلي سبيل معظم السجناء تمكن قادة المؤتمر الوطني الإفريقي من الاجتماع سراً ليضعوا خطة للعمل كمنظمة محظورة. أدرك

مانديلا أن الحظر جعل من الضرورة بمكان إعادة تنظيم جدية للمؤتمر الوطني الإفريقي وتشذيب البنية كلها، بحل رابطة الشباب ورابطة المرأة والتركيز على مجموعة داخلية صغيرة.

وكتب من السجن «أصبحت السياسة بالنسبة لأي عضو عامل خطيرة جداً، ونوعاً من النشاط موقوفاً على النواة الأصلية فقط».[50] لدى عمله في مناخ من اللاشرعية، أدرك الحاجة إلى طرح نفسي جديد هادئ.[51] فعندما حظر الحزب الشيوعي عام 1950، حذر بأن الحكومة تستهدف المؤتمر الوطني الإفريقي بقدر ما تستهدف الشيوعيين: «الآن أصبح العدو يستخدم السلاح نفسه».[52]

على الرغم من جميع التحذيرات المبكرة واقتراحات مانديلا بالنسبة للخطة M فقد أخذ الحظر المؤتمر الوطني الإفريقي، والمؤتمر الإفريقي العام، على حين غرة. وقد كتب المؤرخان توم كاريس Tom Karis وغوين كارتر Gwen Carter إن «مجرد البقاء في وجه مجازر الشرطة أصبح إنجازاً كبيراً بالنسبة لكلا المؤتمرين». وبعد رفع حالة الطوارئ مباشرة شكل المؤتمر الوطني الإفريقي لجنة طوارئ كانت قادرة على العمل إلى أن أصبحت المنظمة غير مشروعة ثانية، ونشرت بياناً ترفض فيه الإذعان للحظر.[53] لكن بعد وقف ألفي شخص وتقييد المؤتمر الوطني الإفريقي بشدة.

أما الحزب الشيوعي، الذي سبق أن حظر لمدة عشر سنين، فقد أصبح أكثر انسجاماً مع العمل السري، وقد لجأ بعض كبار الناشطين، ومنهم صديقا مانديلا موسى كوتاني ومايكل هارميل إلى التواري عن الأنظار. وأثناء سريان حالة الطوارئ أعلن كوتاني وقلة آخرون أن الحزب عاد إلى العمل، وكان قادراً على إصدار بعض الدعاية من خلال جريدته السرية «الشيوعي الإفريقي» التي طبعت لأول مرة في تشرين الأول (أكتوبر) 1959. هذا / الظهور/ للحزب انتقد من قبل كثير من الأعضاء الذين لم يؤخذ رأيهم، ولكنه في الحقيقة (كما يقول

بيرنشتاين) جعل العلاقات مع المؤتمر الوطني الإفريقي أكثر بساطة، وأطاح بالمخاوف المتعلقة ببرامج العمل السرية.[54]

كان المؤتمر الوطني الإفريقي يعاني من ضعف في التنظيم لا يخوله العمل في الخفاء، بتطبيق أجزاء بسيطة من الخطة M للإبقاء على التنظيم بين العامة. كان قادته بحاجة إلى الشيوعيين لمساعدتهم على العمل من وراء ستار.

اتخذ التنفيذي في المؤتمر الوطني الإفريقي احتياطاً واحداً أثبت أنه بالغ الأهمية، ففي حزيران (يونيو) 1959 قرروا أنه في حال الأزمة فإن على أوليفر تامبو مغادرة البلاد فوراً عبر بيتشوانا لاند Bechuana land، وتأسيس مكتب غانة. وبعد ستة أيام على شاربفيل، يوم 27 آذار (مارس) 1960 غادر تامبو إحدى ضواحي جوهانسبورغ، وكان في وداعه أصدقاء مثل أحمد كاثرادا، ليعبر به الحدود بالسيارة رونالد سيغال Ronald Segal رئيس تحرير/ إفريقية الجنوب/ . وتابع طريقه عبر دار السلام إلى لندن[55]، وعلى مدى السنوات الثلاثين التالية استطاعت قيادة تامبو والثقة المتبادلة بينه وبين مانديلا في السجن، أن تكون الأساس الذي ارتكز عليه بقاء المؤتمر الوطني الإفريقي. في ذلك الوقت لم يتبين مانديلا المدى الذي ستصله أهمية الجناح الخارجي للمنظمة.[56]

أصبح مانديلا الآن يأخذ الأمور على مسؤوليته أكثر مما سبق، بعد أن فصل عن شريكه الذي كانت حكمته غالية جداً بالنسبة إليه. وترك وحيداً لمتابعة المهمة الشاقة في مكتب محاماة مانديلا وتامبو. وتابع ممارسة المحاماة بمفرده، يعمل من شقة كاثرادا في خولفادهاوس رقم 13، حيث بقي الزبائن يتواردون إلى أن بدأ كاثرادا ـ الذي حدت حركته في المطبخ ـ بالتذمر بعد طول معاناة.[57] بعد ذلك بوقت قصير توارى مانديلا عن الأنظار، واضطر إلى ترك مهنة المحاماة إلى الأبد.

«الروندافيل» البسيط المسقوف بالقش الذي كان منزل مانديلا اليافع منذ عمر تسع سنوات.

الزعيم جونجينتابا داليندیبو الوصي على مانديلا خلال معظم أيام شبابه.

«الروندافيل» البسيط المسقوف بالقش الذي كان منزل مانديلا اليافع منذ عمر تسع سنوات.

الزعيم جونجينتابا داليندييو الوصي على مانديلا خلال معظم أيام شبابه.

مانديلا مستغرق في الاحتجاجات ضد حكومة الأبارثيد، مع سيسولو وجي. بي. ماركس وروث فيرست.

في حملة التحدي سنة 1952 كان مانديلا يعمل جنباً إلى جنب مع المحافظ الدكتور موروكا والشيوعي الدكتور دادو.

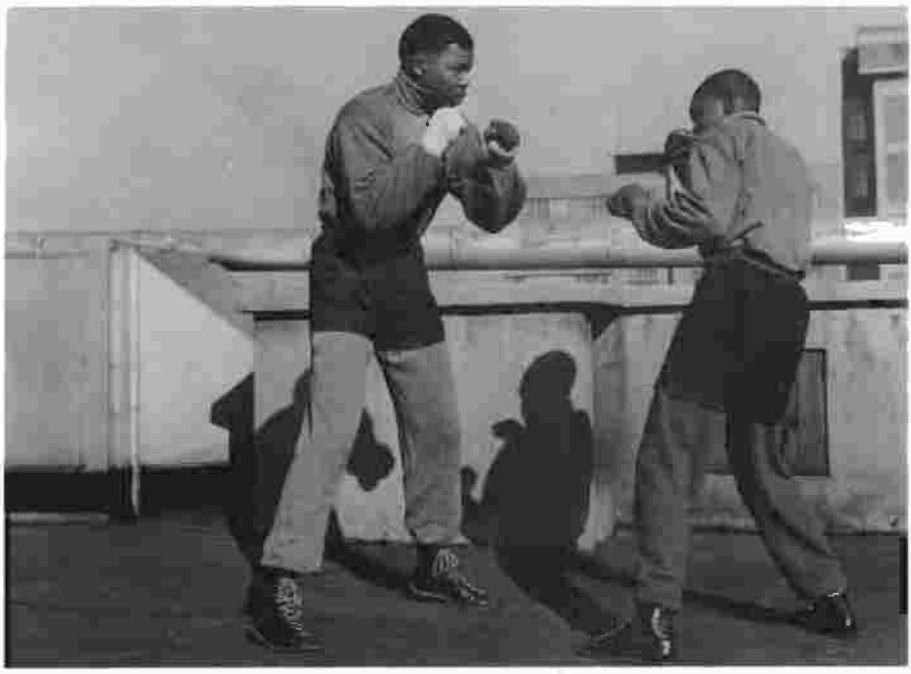

كان مانديلا يمارس الملاكمة بانتظام مع أبطال الملاكمة مثل جيري مولوي.

المتهمون في قضية الخيانة التي بدأت سنة 1957.

زفاف مانديلا لعروسه الثانية ويني في سنة 1958.

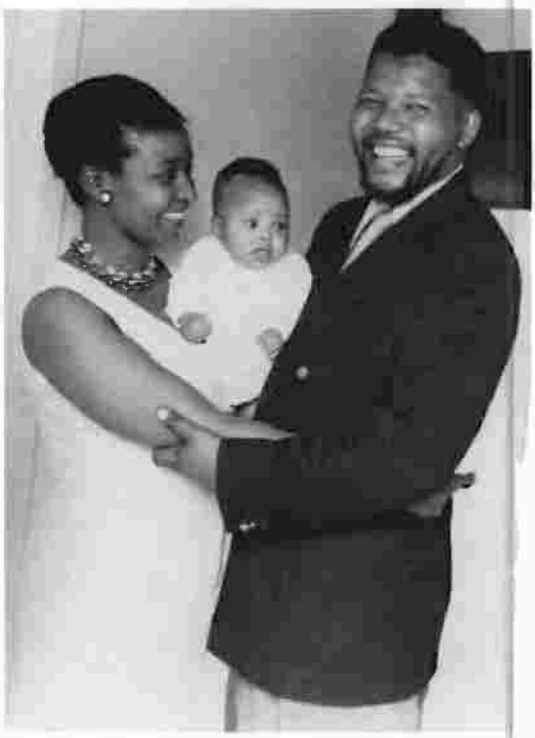

ويني ومانديلا وابنتهما الثانية زيندزي، أُخذت الصورة في سنة 1961.

مانديلا في قضية الخيانة سنة 1958.

مانديلا يحرق جواز مروره في الفوضى التي أعقبت مجزرة شاربفيل سنة 1960.

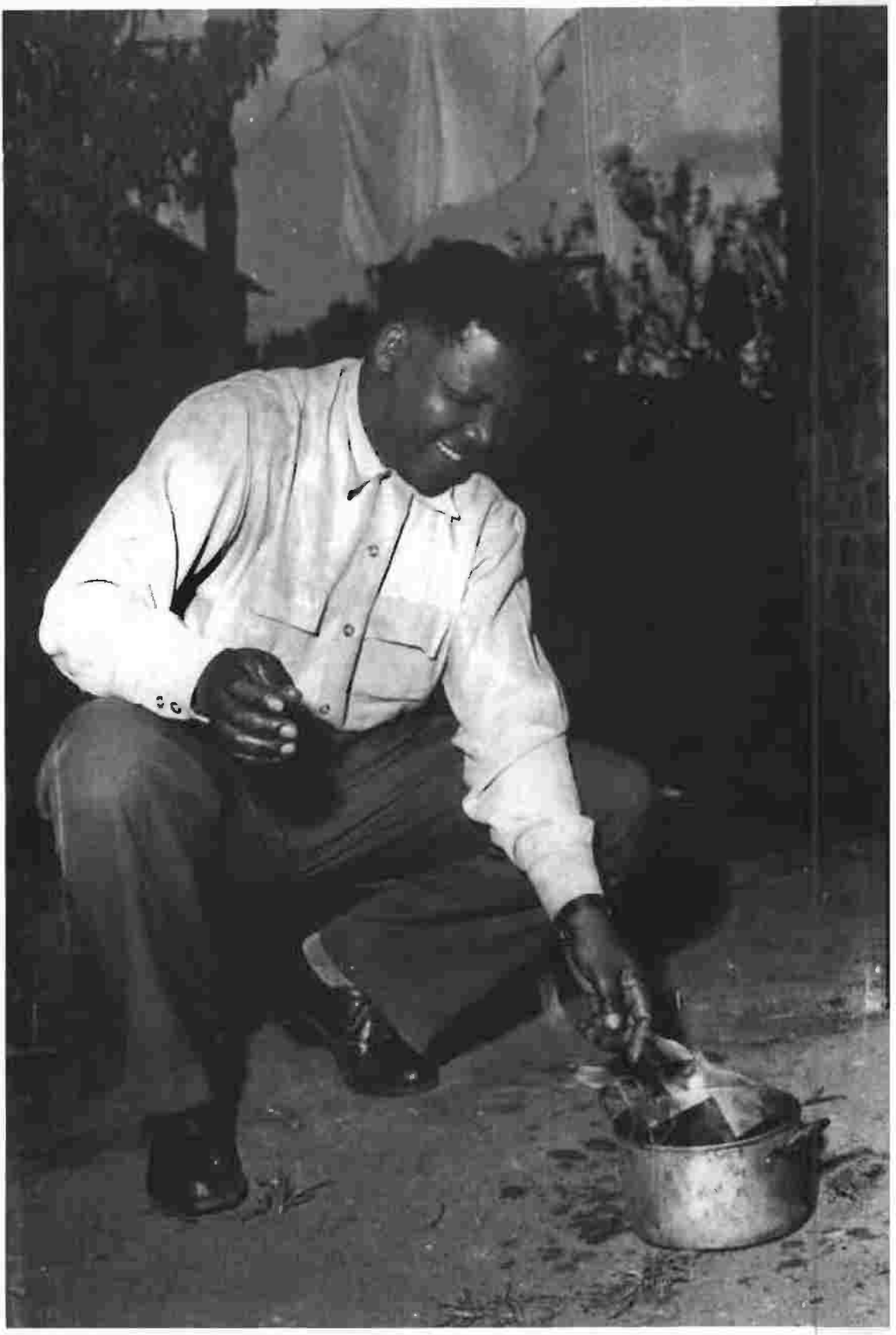

بقي عام 1960 عام أزمة. ففي تشرين الأول (أكتوبر) قامت الحكومة بالاستفتاء الأبيض الذي وعد به فيروورد حول مسألة تحول جنوب إفريقية إلى جمهورية. وتمت الموافقة بأغلبية ضئيلة كانت مدهشة ـ 850.000 صوت مقابل 775.000 ـ إلا أنها كانت بحاجة إلى أغلبية بسيطة فقط. لم يكن مانديلا متحمساً حيال تحول البلاد إلى جمهورية. واعتقد أن ذلك لن يضيف أي وزن لسيادة جنوب إفريقية، ورأى للموضوع بعداً عاطفياً فقط بالنسبة للوطنيين الأفارقة، الذين يتطلعون بحنين إلى جمهورياتهم (شبه الإقطاعية) في القرن التاسع عشر، قبل أن يحط البريطانيون من شأنها. وأمل أن النظام الجمهوري، بإزالته أحزانهم، / سيحل البراغي/ التي تشد المثقفين الأفارقة بعضهم إلى بعض. إلا أنه لم يستطع أن يقبل باستفتاء لا يحق التصويت فيه لغير البيض.

وعلى الرغم من استعراض القوة الذي أظهرته الحكومة بعد شاربفيل، كان مانديلا مصمماً على الانطلاق في احتجاج سلمي آخر، إضراب أو / ملازمة المنازل/. فما زال، مثل معظم قادة المؤتمر الوطني الإفريقي، يحتفظ بتفاؤل مدهش. ربما أنه تحدث عن تقدم جنوب إفريقية باتجاه الفاشية وتحولها إلى دولة بوليسية، إلا أنه هو ورفاقه كانوا غير مستعدين لذلك التحول عندما حصل.[58] حيث كتب كاريس وكارتر «يصعب تقدير مدى إحساس القادة الإفريقيين وسواهم من المناوئين الراديكاليين للحكومة. بأن اتجاه الأحداث يجري لصالحهم».[59]

12

العنف

1961

بنهاية عام 1960 كانت حياة مانديلا المتعددة المجالات في جوهانسبورغ قد بدأت تضيق باضطراد. فقد تداعت مهنته كمحام، وكثير من أصدقائه باتوا في المنفى، والشبكة الاجتماعية في أورلاندو انحلت عملياً. ونوه بأن أسرته كانت مدمرة مادياً.[1] وكانت حياته الأسرية مع ويني تقاطع باستمرار بمهام سياسية. وعندما وضعت ابنتهما الثانية زيندزي، في آخر العام وصل إلى البيت متأخراً ولم يستطع أن يكون معها في الوقت المناسب. والآن تقول ويني: «نادراً ما كنت أجلس معه كزوج. والحق يقال أقسم أني لم أكن أعرفه أبداً».[2]

كانت حياة مانديلا السياسية تتحرك نحو السرية، وكان يقدم صورة أكثر ميلاً إلى الخفاء: فلم يعد الشاب المنفتح للحياة بوجهه الحليق وشعره المفروق من الوسط وإنما أصبح له شارب كث ولحية سوداء قصيرة لدرجة أن عينيه أصبحتا تحملقان من خلال ذقنه الكثيفة وحاجبيه الكثين. إلا أنه كان في الوقت نفسه يقوم بمحاولة أخرى للتنظيم السلمي مع أحزاب أخرى. وفي كانون الأول (ديسمبر) 1960 اجتمعت مجموعة من 36 من القادة الإفريقيين في مؤتمر استشاري في أورلاندو والتزموا برفع شعار / مؤتمر إفريقية للجميع/ الذي بدوره طالب بميثاق وطني لكل الأعراق. بدا غير واقعي بشكل غريب في ضوء رد الحكومة الوحشي في شاربفيل. قال العالم السياسي توم لودج Tom Lodge فيما بعد: «لقد أظهر المؤتمر مدى عدم الاستعداد الثقافي الذي كانت عليه قيادة

ائتلاف الكونغرس عام 1961 كي تنطلق في نضال ثوري».[3] لكن الماركسي مايكل هارميل قال عنه: «كان في الأصل طلباً للثورة».[4]

أغارت الشرطة على الاجتماع في أورلاندو وصادرت جميع الأوراق، لكن الخطط نفذت عبر لجنة كان مانديلا أمين سرها. وسافر مانديلا وسيسولو، بين جلسات المراحل الأخيرة من قضية الخيانة، سراً حول البلاد لإجراء التحضيرات للمؤتمر، حتى إنهما وصلا إلى باسوتولاند Basutoland، حيث لجأ العديد من ناشطي المؤتمر الوطني الإفريقي، ومنهم جو ماتثيوز. في البداية عملوا مع بعض الليبراليين، وأيضاً مع المؤتمر الإفريقي العام إذ شجعهم تأسيس / جبهة موحدة/ للمؤتمر الوطني الإفريقي والمؤتمر الإفريقي العام، في الخارج. لكن التواطؤ سرعان ما تداعى واتهم الليبراليون المؤتمر الوطني الإفريقي والشيوعيين بالسيطرة، فيما قرر المؤتمر الإفريقي العام أن عليهم سحق المؤتمر؛ لأنهم شكوا ـ بين أشياء أخرى ـ أن هناك «مخططات جارية لترسيخ مانديلا بطلاً مقابل سوبوكوي»[5]، وهكذا تابع مانديلا والمؤتمر الوطني الإفريقي بدعم من الشيوعيين فقط. وأصبح تعاونهم أقوى، في مجموعة متماسكة يتبادل أفرادها الثقة فيما بينهم.

كانت الحكومة تراقب بعين حذرة، فقبل خمسة أيام من انعقاد المؤتمر قامت الشرطة باعتقال عشرة من المنظمين وأرسلت في طلب دوما نوكوي. إلا أن اللجنة تمكنت من توزيع منشورات «تطالب الشعب الإفريقي في جنوب إفريقية بالاستعداد» لمؤتمر إفريقية للجميع، ليعقد قرب بيتر ماريتزبورغ Pieter Maritzburg في ناتال يوم 22 آذار (مارس).

كان مانديلا بحاجة إلى تمويل لترتيب النقل إلى المؤتمر، وطلب بجرأة مقابلة هاري أوبنهايمر رئيس الشركة الأنغلو أمريكية. كان أوبنهايمر رجل الأعمال الأول والوحيد الذي قابله مانديلا قبل أن يسجن. لقد تأثر مانديلا بالحركات العمالية، وقال فيما بعد: «في وقت تميز بالعداء السافر لرجال

الأعمال». استقبله أوبنهايمر بأدب شديد، كما كان يستقبل الجميع تقريباً. وتذكر مانديلا: «عندما أتينا إلى مكتبه هب واقفاً وكأننا الرئيس أو رئيس مجلس الوزراء في بلد ما»، طلب مانديلا مبلغاً محدداً «لا يعتبر شيئاً بقيمته اليوم» وقال أوبنهايمر إنه مبلغ كبير من المال. وسأل بأي نفع سيعود عليه. وسأل أسئلة عن المؤتمر الوطني الإفريقي، وبدا كأنه يقلل من شأن قوته. وسأل مانديلا: «أنّى لي أن أعرف أنني متى أعطيتكم مساعدة فإن المؤتمر الإفريقي العام لن يقصيكم؟». [6] يذكر أوبنهايمر فيما بعد: «مانديلا خاطبني بصراحة كما في اجتماع، بعبارات رسمية. كنت جاهلاً بشأن المؤتمر الوطني الإفريقي لكني تأثرت بإحساس مانديلا بالقوة». [7] ولم يحصل مانديلا على المال الذي يريد. وفي 22 آذار (مارس) أظهر مؤتمر ماريتزبورغ دعماً ملحوظاً للمؤتمر الوطني الإفريقي بعد سنة من حظره، كان هناك 1400 وفد من 145 جماعة مختلفة في جميع أرجاء جنوب إفريقية، ومن ضمنها رابطة كرة القدم لجنوبي الترانسفال، وكنيست صهيون لكن المؤتمر الوطني الإفريقي هيمن بشكل واضح، بشعاراته وخطبائه و أغانيه، ومنها «انشر بشارة الخلاص أيها الزعيم لوثولي». قالت النيويورك تايمز عن الحدث: «أكبر اجتماع سياسي للإفريقيين يعقد في جنوب إفريقية». وأفردت له الراند ديلي ميل عنواناً رئيساً «الإفريقيون يصرون على مؤتمر قومي». [8]

وفيما يبدو مصادفة، انتهى الحظر المفروض على مانديلا قبل الاجتماع بقليل ـ الأمر الذي يبدو أن الشرطة لم تلاحظه ـ وأجلت قضية الخيانة لمدة أسبوع. وهكذا تمكن مانديلا من أن يقفز كالجني من القمقم، بلحيته وبذلته ذات القطع الثلاث ليعطي المؤتمر قمة مؤثرة، وليقدم أول خطاب علني له منذ عام 1952. [9] التهب الجمهور حماسة، ولوحوا بقبضاتهم في الهواء كما لو أنها بنادق وهم يرفعون أصواتهم بالشعار الجديد /أماندلا نغاويثو!/ بمعنى /القوة للشعب/ ـ الذي كان مقتبساً من الأغنية الأقل ميلاً إلى القتال /مايبوي/ (عودي

يا إفريقية)[10]ـ. نادى مانديلا ثانية بالوحدة الإفريقية: «يجب أن يشعر الإفريقيون ويتصرفوا ويتحدثوا بلسان واحد.. يجب أن نخرج من هذا المؤتمر بكامل التحضيرات لميثاق وطني كامل التمثيل ومتعدد الأعراق».[11]

أعطى الصحفيون الحاضرون تقديرات مختلفة بشكل كبير لتأثير مانديلا. حيث كتبت (النيو أيدج) العصر الحديث عنه: «كل جملة كانت تقابل إما بالهتاف أو بصيحات / الخزي/ ». وقد كتب أندرو ويلسون Andrew Wilson في الأوبزرفر: «تصفيق صاخب».[12] ويذكر ويلسون فيما بعد: «كنت مدركاً أن هذا هو الشخص الذي تتركز حوله آمال الجميع بالنسبة للمستقبل».[13] ووصف بنجامين بوغراند Benjamin Pogrund مانديلا في صحيفة كونتاكت Contact بأنه: «ملتح بطريقة وطنية جديدة، مثل نجم الاستعراض».[14] وقال فيما بعد «إن الشيوعيين قد بالغوا في تأثير الخطاب وإن مانديلا تحدث بشكل ممل وغير واضح، وكانت لهجته ضعيفة».[15] لكن ألق ظهوره من مخبئه أعطى صورته سحراً جديداً . لقد كان في ماريتزبورغ، فيما يذكر صديقه الشيوعي دينيس غولد برغ Dennis Goldberg قائلاً: «إن الرومانسية المغرقة التي يتسم بها النشاط السري عادة، والتي أبداها في أحد المؤتمرات في ماريتزبورغ هي التي جعلت منه قائداً».[16]

كما شعر مانديلا نفسه بمزيد من الثقة مبعثه بجلد عامة الناس بجلد الناس العاديين. فراقب بزهو شيخاً يلبس سترة قديمة وقميصاً كاكياً وبنطالاً لركوب الخيل يتحدث عن حملته ضد سلطات البانتو ويقول: «سأعود من هنا منتعشاً وكلي ثقة». وكان مانديلا واثقاً بأن الوفود كانت مستعدة «لكفاح عنيد ومديد، يشمل عامة الناس في المدينة والقرية».[17]

طالب المؤتمر الحكومة بأن تدعو إلى ميثاق وطني. وإذا رفضت فإن المؤتمر الوطني الإفريقي سينظم اعتصامات في البيوت متعددة الأعراق. تبدأ يوم 31 أيار (مايو) ـ اليوم الذي ستصبح فيه جنوب إفريقية جمهورية ـ والذي سيكون

مانديلا المنسق الرئيسي فيه (في حين كانت الإضرابات في أماكن العمل خارجة عن القانون، فإن الاعتصام في المنازل لم يكن كذلك). اختفى مانديلا من القاعة التي كانت محشوة برجال الأمن فجأة كما ظهر. ولن يظهر على منبر عام في جنوب إفريقية ثانية قبل تسع وعشرين سنة.

عاد مانديلا إلى بريتورية من أجل قضية الخيانة، التي ما زال أمامها عدة أسابيع قبل إصدار الحكم النهائي. ولكن يوم 29 آذار (مارس) قاطع القاضي رامبف المحاكمة ليعلن أن ثلاثة قضاة قد توصلوا إلى رأي جماعي بالبراءة وقال: «يستحيل على هذه المحاكمة أن تخلص إلى أن المؤتمر الوطني الإفريقي قد اقترف أو تبنى سياسة الإطاحة بالدولة عن طريق العنف». واتفق القضاة على أن الادعاء قد فشل في إثبات أن أياً من المؤتمر الوطني الإفريقي أو ميثاق الحرية كانا شيوعيين، ونوهوا بمقالة مانديلا في حزيران (يونيو) 1956 في مجلة «ليبريشين» التي تكهنت بتقدم برجوازية غير أوروبية في ظل ميثاق الحرية».[18]

احتفل المتهمون الثلاثون بالبراءة ببهجة، والتقطت كاميرا سينمائية هربت إلى داخل قاعة المحكمة مشاهد ضبابية للمتهمين يحملون محاميّ الدفاع على أكتافهم، وصورة لمانديلا مبتسماً يرتدي بزّة أنيقة ويشق طريقه بين الحشد. قال مانديلا فيما بعد إنه كان متأثراً لأن القضاة ترفعوا فوق تحاملهم ليقدموا قراراً عادلاً، وصدم ثانية لأن مفاجأة الناس قد تكشف عن بعض الطيبة. لكن الابتهاج كان فوق الواقعية وسط الحظر والاضطهاد. كان مانديلا يعرف أن الحكومة لن تعترف بآلام المؤتمر الوطني الإفريقي المشروعة، وأنها سرعان ما تصبح أكثر بطشاً، وتبتكر قوانين جديدة تتجاوز المحاكم.[19]

قرر مانديلا أنه سيلجأ إلى الخفاء. وقد لاحظت ويني أنه كان يفكر صامتاً لعدة أسابيع، دون أن يستمع إليها.[20] كما اقتنع وولتر سيسولو بأن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يكون له قائد واحد في الخفاء يمكنه أن يكون أكثر نشاطاً من لوثولي، المحظور الآن في ناتال. وأن ذلك القائد يجب أن يكون

مانديلا. رأى سيسولو بوضوح الحاجة إلى شهيد: «عندما قررنا أنه يجب أن يعمل في الخفاء كنت أعرف أنه الآن يطأ عتبة موقع الرئاسة.. كانت لدينا قيادة في الخارج ولكن كان لا بد أن يكون لنا قائد في السجن». [21]

قبل صدور حكم البراءة في قضية الخيانة وصل مانديلا إلى البيت في أورلاندو برفقة سيسولو ونوكوي وجو موديس، وقال لويني: «حبيبتي جهزي لي بعض الثياب في حقيبة مع بعض الصابون والعطور. سأذهب بعيداً لوقت طويل». رتبت الأشياء وهي تبكي، وطلبت من آلهة إفريقية أن تحفظه، ورجته أن يخص أسرته ببضع دقائق بين وقت وآخر وقالت: «وبخني لأني ذكرته بواجباته». [22]

قرر زملاء مانديلا أن عليه أن يبقى متخفياً لينظم الاحتجاج المخطط يوم 31 أيار (مايو). لكن عليه ألا يعرض نفسه للاعتقال، في الوقت الذي كان يحتاج إلى الترويج للإضراب على أوسع مدى ممكن. والمفارقة أنه، من مخبئه أصبح ناطقاً رسمياً رئيساً باسم شعبه. وسيصبح أكثر شهرة في الظل مما كان في أي وقت مضى في ضوء النهار الساطع.

كان مانديلا بحاجة لإقناع الليبراليين البيض والأنصار بدعم المؤتمر الوطني الإفريقي، ومجابهة دعاية المؤتمر الإفريقي العام، وعلى مدى شهرين كان يظهر فجأة من مخبئه ليتحدث إلى رؤساء التحرير البيض، محاولاً تهدئة مخاوفهم، وبخاصة حيال النفوذ الشيوعي في المؤتمر الوطني الإفريقي. وفي جوهانسبورغ تناقش مع لورانس غاندار Laurence Gandar رئيس تحرير الراند ديلي ميل المتعاطف البعيد عن الأضواء. وفي بورت إليزابيث قام بزيارة لجون سائرلاند John Sutherland رئيس تحرير الأيفينينغ بوست Evening Post الهادئ والليبرالي، الذي كان قلقاً على سلامة مانديلا، لأن مكاتب الجريدة كانت قبالة مخفر الشرطة. شكر مانديلا سائرلاند بحرارة لدعمه السابق قبل أن ينضم بسرعة إلى غوفان مبيكي الذي كان ينتظر خارجاً، وابتهج كثيراً عندما

أبرزت /البوست/ حملة الاعتصام في البيوت. وفي كيب تاون تحدث لمدة ساعتين مع فيكتور نورتون Victor Norton رئيس تحرير كيب تايمز المحنك. ونورتون، الذي التقى بكثير من قادة العالم، قال فيما بعد لمحرره السياسي طوني ديليوس Tony Delius إنه لم يجتمع أبداً برجل يترك انطباعاً أعمق من مانديلا.[23] كما حدث المندوب السامي البريطاني عن زائره المتميز وقال للدبلوماسي البريطاني بيتر فوستر Peter Foster: إن قلة من الجنوب إفريقيين البيض كانت لديهم «أية فكرة عن منزلة الإفريقيين الذين يضطرون إلى التعامل معهم». ويئس نورتون من بقاء المبادرة بأيدي البيض لوقت طويل، ولكن لم يظهر أي شيء عن مانديلا وإضرابه المنتظر في جريدة كيب تايمز.[24]

في جوهانسبورغ رأى مانديلا حليفه القديم إبان حملة التحدي، باتريك دانكان، الذي أصبح الآن رئيس تحرير المجلة نصف الشهرية كونتاكت Contact الذي كان ينتقد بضراوة قادة المؤتمر الوطني الإفريقي لتأثرهم بالشيوعية، ومشاريعهم بالاعتكاف في البيوت. أخيراً قال مانديلا: «أتعتقد أنني غبي لدرجة أني لا أستطيع إدارة منظمة دون أن أتأثر بالناس الذين تعاملنا معهم؟»..[25] ولكن في لقاء ثان في كيب تاون، قال راندولف فيغن Randolph vigne، الذي كان حاضراً: إن الرجلين تحدثا حديث الأصدقاء القدامى الذين لم يختلفوا أبداً. هذه المرة اعترف دانكان بأن قضية الخيانة أظهرت بوضوح أن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يكن شيوعياً، ووعد بتصحيح تقاريره السابقة وبدعم الميثاق الوطني ـ وهذا ما فعله في تحول جريء في العدد التالي من كونتاكت[26]ـ. وفيما بعد قال لبيتر فوستر إنه تأثر بذكاء مانديلا وثقته بنفسه، بالرغم من أنه لم يخف تعاطفه مع اليسار».[27]

التأثير الشيوعي ما زال يربك الدبلوماسيين الأجانب. حيث كتب فوستر إلى لندن في كانون الثاني (يناير) 1961: «يجب أن أعترف بأننا لا نعرف إلا النذر اليسير عما يزمع عليه شيوعيو جنوب إفريقية». وأضاف عن الحكومة: «لا

تمرر معلومات مفصلة إلينا (حتى إذا كانت لديهم)».[28] وفيما بعد ألقى باللائمة على الحكومة لمنعها معتدلين أمثال لوثولي، مما يشجع النشاطات التآمرية / للشيوعيين الجدد/ المناهضين. وقال إن «مانديلا برغم أنه أكثر ميلاً إلى الشيوعية من نوكوي، فهو ينتمي إلى مجموعة القادة الشباب ذوي الثقافة العالية في المؤتمر الوطني الإفريقي الذين بدأوا الآن يسيطرون بشكل فعلي».[29]

كانت الحكومة البريطانية الآن تعيد النظر في علاقاتها مع جنوب إفريقية التي تركت الكومنويلث في آذار (مارس) 1961. وبعد الاقتراع على الجمهورية، تقدم فيروورد بطلب للبقاء داخل الكومنويلث، وبذل ماكميلان قصارى جهده لإقناع الأعضاء السود الجدد وكندا، ـ التي كان رئيس وزرائها جون دايفنبيكر معادياً بشكل خاص للأبارثيد ـ بالسماح لجنوب إفريقية بالبقاء. إلا أن فيروورد استمر في رفضه قبول مندوب سام أسود في بريتورية، وتلك كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، وفي النهاية سحب طلبه. اكتأب ماكميلان، وكتب إلى السير جون مود قائلاً: «رياح التغيير قد عصفت بنا، حالياً، ولكن السلام سيأتي ذات يوم، ربما بعد كثير من الأسى والمحن».[30] لكن أوليفر تامبو في لندن رأى في إقصاء جنوب إفريقية انتصاراً، وسيقول فيما بعد إن جنوب إفريقية السوداء لم تترك الكومنويلث أبداً.[31]

بقي مانديلا يعلق الأمل على ضغط الكومينويلث بتأثير من الأعضاء الإفريقيين والأسيويين الجدد. واستمد الشجاعة من المعارضة للأبارثيد، خاصة من قبل ديفينبيكر. السفارة البريطانية، أصبحت الآن تشعر بأنها غير ملزمة باسترضاء حكومة الأبارثيد حالياً بعد أن أصبحت جنوب إفريقية خارج نطاق أسرة الكومنويلث. وبحلول حزيران (يونيو) كان السفير السير جون مود يقترح أن السفارة يجب أن «تحتاط» لاحتمال قيام جمهورية سوداء في المستقبل بإجراء اتصالات سرية مع سياسيين سود، على الرغم من أن هذه

الاتصالات لم تصل إلى شيء يذكر[32]، كما قررت الحكومة البريطانية استخدام استخباراتها للقيام بكل جهد يلزم لاختراق الحصن الأبيض في بريتورية، الذي كانوا يعرفون أنه صعب ودقيق. وهذا ما ثبت، فبعد أربع سنوات أخضع أحد كبار عملاء (إم 16)، الذي يعمل بصفة مسؤول في السفارة، «لاستجواب قاس» حول اتصالاته بالمعارضة البيضاء، وبعد ذلك بوقت قصير أعلن «شخصاً غير مرغوب فيه». لكن المخابرات البريطانية (إم 16) قررت أن إجراء اتصالات مع قادة المعارضة السوداء سيكون فيه مجازفة كبيرة، وربما يؤدي إلى تعذيبهم أو قتلهم.[33]

كان مانديلا في هذا الوقت يؤكّد إضراب اعتصام في البيوت لثلاثة أيام يبدأ يوم 31 أيار (مايو). وكتبت لجنة العمل التابعة له إلى الدكتور فيروورد تشرح مطالبتها بميثاق وطني، وفيما بعد قال فيروورد للمجلس النيابي: «لقد وصلت رسالة موقعة من قبل ان. آر. مانديلا» بلهجة متعالية، ولم يرسل أي رد عليها.[34] كما كتب مانديلا إلى السير دوفيلير غراف Sir de Villiers Graaff قائد الحزب الموحد، الذي صوت على منع المؤتمر الوطني الإفريقي عام 1960. وحذر غراف من أن الجنوب إفريقيين يجب أن يختاروا بين «معالجة الأمر بالمناقشة أم بالمناوشة» وسأله: «أين يا سيدي يقف الحزب الموحد؟.. إذا فشل كبار رجال الدولة في قيادة هذه اللحظة، فإن ما هو أسوأ قادم لا شك». والأغلب أن غراف لم يعر الرسالة أي اهتمام ولم يتطرق لذكر مانديلا في مذكراته التي نشرت بعد ثلاثين عاماً.[35]

قبل شهر من عيد الجمهورية ذهب مانديلا إلى دوربان ليناقش الاحتجاج مع تنفيذيي المؤتمر الوطني الإفريقي المحظور وحلفائهم. ناقشت بعض الوفود بحدة أن الاعتصام في المنازل لم يعد كافياً في مواجهة غضب الشعب وعنف الدولة، وفضلوا الإضراب العام. وكان واضحاً أن العد العكسي لعيد الجمهورية سيكون فترة اختبار لانضباط المؤتمر الوطني الإفريقي. وحذر لوثولي النيويورك

تايمز من أن العنف يمكن أن يُحَرَض بسهولة: «فالشرطة تتصرف أحياناً بطريقة تعطي انطباعاً بأنها ستطلق النار على الناس».[36]

وكان مانديلا، وهو يجوب البلاد، مدركاً تماماً نفاد صبر أفراد الشعب، ولا سيما بعد أن أثار مشاعرهم المؤتمر الإفريقي العام. وقد سمع كثيراً من الشكاوى ضمن المؤتمر الوطني الإفريقي بدعوى أنه من غير الصحيح سياسياً التأكيد على اللاعنف، في حين «يعتمد العدو على استخدام القوة المطلقة».[37] أما اليسار الأقصى فكان أكثر نقداً. حيث قال المؤرخ الماركسي باروخ هيرسون Baruch Hirson الذي سيسجن فيما بعد تسع سنوات بتهمة التخريب: «اعتقدنا أن هذا كان مطلباً مستحيلاً نفرضه على العمال».[38]

لكن مانديلا واصل توكيد أهمية اللاعنف في رسائل مؤثرة من مخبئه. وقبل عشرة أيام على عيد الجمهورية اتصل هاتفياً بصحيفة صنداي اكسبرس في جوهانسبورغ من هاتف حصالة: «إننا ننفي بشدة أن العنف سيندلع أو أن فترة الاعتكاف ستمدد ثلاثة أيام».[39] كانت حملته تكسبه دعماً محدوداً من قبل المحررين الناطقين بالإنكليزية، الذين كانوا معارضين لجمهورية أفريقانية.[40] يوم 12 أيار (مايو) قدمت صحيفة ستار الصادرة في جوهانسبورغ نبذة عن شخصية مانديلا لأول مرة، إلى جانب صورة فوتوغرافية يبدو فيها باسماً ومشرقاً. «لقد أخذ موقع الناطق الرسمي باسم الأهالي المحليين» بالرغم من تأكيده أن «القيادة الأهلية قيادة جماعية».[41] كما كان قد بدأ يظهر في الصحف البريطانية «محامياً كبيراً، غير متمرس بالأسفار لكنه واسع القراءة. أنيق الثياب ويتحدث ببطء»، كما وصفته المانشستر غارديان الصادرة يوم 27 أيار (مايو)، ثم بعد يومين قالت إنه «رجل ضخم وسيم ملتح صوته عميق مدوٍ».[42]

في هذه الأثناء، كانت الحكومة تحضر لاستعراض مرعب للقوة، إذ أخذت تحشد قواتها المسلحة، وتلغي الإجازات وتقوم باعتقالات جماعية. وصبيحة الإضراب جابت دبابات ساراسن Sarasen الأحياء وحومت طائرات

الهيليكوبتر فوق الرؤوس، وتمركزت القوات عند التقاطعات. قال مانديلا عنها: «أكبر قوة تشهدها جنوب إفريقية وقت السلم». ومما أثار غضب المؤتمر الوطني الإفريقي أن المؤتمر الإفريقي العام كان يساعد الحكومة بأن يناشد الجميع العودة إلى العمل.[43] وكانت الصحافة الناطقة بالإنكليزية أكثر قلقاً الآن. حيث كتبت الستار قبل يومين من الإضراب: «الاثنين القادم سيكون شبه طبيعي في جوهانسبورغ مثل أي اثنين آخر».[44] «اعتقد مانديلا أن الصحافة والإذاعة لعبا دوراً معيباً جداً بإذاعة كل تحذير ضد الإضراب قبل الأوان، والطعن بنجاحه في أول أيامه».[45] سارعت الراند ديلي ميل بنشر طبعة جديدة تحت عنوان رئيسي يقول: «يجب العودة إلى العمل، كل شيء هادئ». وعندما اتصل مانديلا هاتفياً بصديقه في «الميل» بنجامين بوغراند، بدأ بوغراند بالاعتذار لأن المقال اشترك فيه مساعد تحرير، إلى أن قاطعه مانديلا قائلاً: «لا بأس يا بينجي. أعرف أن الخطأ ليس خطأك». والواقع أن بوغراند عندما راجع الموضوع وجد أن «العنوان والتقرير كان فيهما أخطاء مميتة بسبب السرعة والصحافة غير المتقنة».[46]

كان مانديلا ولجنة العمل السري التابعة له في المخبأ، وغير قادرين على مراقبة الأضراب بأنفسهم، مما أرهف إحساسهم حيال عناوين الصحف التي يرونها. واتخذوا قراراً مؤلماً بإنهاء الإضراب بعد اليوم الأول. وقد كتب راستي بيرنشتاين «كان قراراً شجاعاً لكن خلف إحباطاً شديداً داخل الحركة».[47]

في الحقيقة كانت مقاطعة القطارات والحافلات أنجح مما أدرك المؤتمر الوطني الإفريقي. وسيكشف الدليل الرسمي في محاكمة ريفونية بعد ثلاث سنوات مدى فعاليته. وقد نوه توم لودج، المختص بالعلوم السياسية، فيما بعد أن درجة المشاركة كانت «عالية بشكل مدهش».[48] ولكن في ذلك الوقت استطاع الدكتور فيروورد أن يدعي مقنعاً أن رفع الإضراب كان انتصاراً، مما أعطى مانديلا إدراكاً عميقاً لقوة الصحافة. وكان درساً لن ينساه أبداً.

رحب بعض البيض الليبراليين بهزيمة الإضراب لكونها تقدم فرصة للقوميين، وقد كتب آليستر سباركس Allister Sparks في الراند ديلي ميل «إن أفضل طريقة تستغل بها قوى المعارضة فرصة التنفس هذه، هي أن تبدأ بتنظيم ميثاق وطني متعدد الأعراق بلا تأخير».[49] لكن معظم البيض شعروا الآن بأنهم قادرون على تجاهل الخطر الأسود.

كان مانديلا قد اقتنع الآن بأن سياسة الاحتجاج السلمي لم تعد تجدي، وأدرك أن عليه الانتقال إلى مرحلة جديدة من النضال.. وكانت روث فيرست قد رتبت مقابلة يوم الإضراب يجريها مع مانديلا الصحفي البريطاني برايان وايدليك Brian Widlake من أخبار التلفزيون المستقل Independent Televion News وذلك لأول مرة، وتبين فيما بعد أنها الأخيرة لحوالي ثلاثين سنة. اقتيد وايدليك إلى منزل قرب بحيرة زو Zoo Lake للبروفيسور جوليوس ليوين Julius Lewin من جامعة ويتووترسراند Witwatersrand University حيث صوّر مانديلا ـ ووراءه جدار قرميدي اعتبر رمزاً مناسباً ـ لمدة عشرين دقيقة، بث منها ثلاث دقائق.[50] كان الجو متوتراً، ولم يكن ظهور مانديلا التلفزيوني الأول مؤثراً: «فقد بدا كالح الوجه ومتعباً ومكتئباً بشكل واضح» كما نوه راستي بيرنشتاين.[51] لم تترك المقابلة أثراً محركاً في بريطانية، إلا أن ما قاله مانديلا سيكون بالغ الأهمية بالنسبة لمستقبل جنوب إفريقية. إذ صرح: «إذا كان رد الحكومة هو أن تسحق بالقوة المطلقة مظاهراتنا غير العنيفة، فإننا سنضطر إلى إعادة النظر بشكل جدي في (تكتيكنا). وأرى أننا في الفصل النهائي من مسألة سياسية اللاعنف».[52] نقد تنفيذي المؤتمر الوطني الإفريقي، فيما بعد، مانديلا لتحديه سياسة اللاعنف، لكنه كان يعتقد «أن الإنسان في بعض الأحيان يجب أن يطرح علنا فكرة تدفع منظمة متأنية في الاتجاه الذي تريده أنت».[53]

في الأيام القليلة القادمة واصل مانديلا ظهوره المفاجئ من مخبئه ليقوم بمهمة الناطق الرسمي الرئيسي للمؤتمر الوطني الإفريقي. لكن الصحفيين لم

يؤخذوا بأسلوبه الصلب. وقد اصطحبت روث فيرست ـ وسيطه المعتاد ـ ستانلي يوز Stanly uys من جريدة صنداي تايمز الجوهانسبورغية ليرى مانديلا في هيلبراو Hillbrow في مقابلة لمدة نصف ساعة. رأى فيه يوز رجلاً متوتراً جداً، وعندما اجتمعا ثانية بعد ثلاثين سنة ذكره مانديلا: «لم أترك لديك أثراً يذكر». [54]

كما رافقت روث باترك دونوفان Patrick Donovan من الأوبزرفر وروبرت أوكشوت Robert Oakeshott من الفايننشال تايمز، إضافة إلى ماري بنسون Mary Benson، إلى شقة في ضاحية يوفيل Yeoville البيضاء، حيث وجدوا مانديلا يرتدي قميصاً مخططاً وبنطالاً رمادياً. صدمت بنسون بالجو المريح المحيط بمانديلا وبضحكه، لكن أوكشوت اعتبر حديثه الرسمي دون المناسبة. قال مانديلا: إن الضربة حققت نجاحاً هائلاً، وإن اللاعنف هو السياسة الواقعية الوحيدة في وجه دولة صناعية جداً، في حين أنكر أنها سياسة اعتدال: «إن شعورنا تجاه الإمبريالية حاد جداً. أنا أكرهها!». لكن لدى خروجهم عاد ثانية فقال: «إننا نغلق فصلاً حول مسألة سياسة اللاعنف هذه». [55] وكتب دونوفان في الأوبزرفر يوم 4 حزيران (يونيو) أن (تكتيك) المؤتمر الوطني الإفريقي الأخير «لم يفد في أكثر من أن يقدم للحكومة نصراً مجلجلاً». [56] في هذا الوقت فقط ـ يوم 7 حزيران (يونيو) ـ فتحت وزارة الخارجية في لندن ملفاً لمانديلا. [57]

في الحقيقة كان مانديلا يناقش مع رفاقه التخلي عن اللاعنف منذ أوائل 1960، عندما قمعت الحكومة بوحشية حملات إحراق الأذونات. وطالما كانت قضية الخيانة مستمرة، فقد اضطر جميع المتهمين إلى الإصرار علناً على أنهم يدعمون اللاعنف كمبدأ، لكن كثيراً منهم، ومن ضمنهم مانديلا، بدءوا يرون فيها تكتيكاً) آن أوان التخلي عنه. [58] كان مانديلا دائماً أضيق صدراً باللاعنف من سيسولو أو تامبو، كما أظهر في صوفيا تاون عام 1953. لكن الآن أصبح

عامة الناس يتبعونه بنفاد صبر لم يستطع، كسياسي يستجيب للرأي العام، أن يتجاهله.

معظم الساحة السياسة كانت تطالب بإلحاح بأعمال العنف، غالباً بيأس وجموح، مثل الهجمات التي شنها الثوار والقتلة في روسيا أواخر القرن التاسع عشر. وفي بوندولاند Pondoland موطن تامبو في الكيب الشرقي، استولت حركة فلاحية اسمها إنتابا (الجبل) على مناطق كاملة بواسطة أساليب حرب العصابات قبل أن تسحقهم الحكومة. والآن أصر غوفان مبيكي الذي التقى بقادة الحركة في الغابات، على أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يكون له استراتيجية (خطة شاملة) «تعبئ سكان المدن والريف على حد سواء».[59] وسارع المؤتمر الإفريقي العام إلى الخروج بشق إرهابي في الكيب سمي بوكو (وحيد) كان يقوم باغتيال البيض انتقاماً للقمع الوحشي، وقامت جماعة من الليبراليين البيض بتنظيم حركة المقاومة الإفريقية، التي كانت تهدف إلى تفجير الأبنية. كما كان الحزب الشيوعي يشكل وحداته نصف المسلحة لقطع خطوط الطاقة. حتى إن أعضاء في حركة الوحدة في الكيب كانوا يحضرون لحركة التخريب الخاصة بهم، والمسماة نادي يوتشين تشان Yuchin chan تيمناً بتسمية ماو لحرب العصابات. وقد كتب واحد منهم فيما بعد، هو نيفيل ألكساندر Neville Alexander كنا كلنا، على اختلاف منظماتنا السياسية أو اتجاهاتنا، مدفوعين طوعاً أو كرهاً، عبر هذا الخط الفاصل، باتجاه النضال المسلح من خلفية اللاعنف، دون أي تحضير مسبق.[60]

كثيراً ما سينقد مانديلا المؤتمر الوطني الإفريقي للتهور وعدم الخبرة في النضال المسلح، لكنهم كانوا مضطرين إلى التحرك بسرعة، لمسايرة نوبة الغضب الجماهيري وإحباط البديل، الذي هو الأعمال الوحشية التي لا يمكن السيطرة عليها. وقد كتب مانديلا فيما بعد «كان العنف سيبدأ سواء بادرنا به أم

لا. وإذا لم نأخذ بزمام المبادرة الآن، فإننا سنتأخر عن الركب ونصبح تابعين في حركة لم نسيطر عليها». [61]

يذكر راستي بيرنشتاين أن المؤتمر الوطني الإفريقي والحزب الشيوعي كانا يتحدثان عن العنف بطريقة غير منهجية ودون اجتماعات رسمية. [62] وقال جو سلوفو «عندما تفكر في طريق جديد فإنه لا يأتي في لمحة واحدة يدركها الجميع في آن. إنها عملية، ومانديلا يلعب دوراً بالغ الأهمية في هذا السياق». [63] كان الشيوعيون أكثر استعداداً للدفاع عن العنف من المؤتمر الوطني الإفريقي، الذي كان، في ظل رئيسه ألبرت لوثولي، ملتزماً باللاعنف. لكن النقاشات تجاوزت خطوط الحزب، وأبدى كثير من القادة الشيوعيين قلقهم حيال كبح الميول القتالية السوداء. [64]

وبعد شهرين من عيد الجمهورية، قدم مانديلا إلى اللجنة الفاعلة في المؤتمر الوطني الإفريقي اقتراحه التاريخي أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يتخلى عن اللاعنف ويشكل جناحه العسكري الخاص.

كان نقاشه مقنعاً وقد استشهد بالمثل الإفريقي «إن الهجوم الوحشي المفترس لا يرد بالأيدي فقط»، ومما أثار دهشته أن موسى كوتان، الشيوعي القديم الأسود الذي كان مقرباً من لوثولي، عارضه فما زال كوتان يرى مجالاً لأساليب اللاعنف، وحذر من أن العنف سيحرض المجازر. اتفق سيسولو سراً مع مانديلا على أن لا بديل للعنف، لكنهما لزما الصمت، ثم رتبا فيما بعد موعداً لمانديلا كي يتحدث سراً مع كوتان، الذي أقنعه مانديلا بقبول الكفاح المسلح.

ثم نقل النقاش الحاسم إلى ستانغر Stanger في ناتال، في اجتماعين مؤثرين برئاسة لوثولي الذي أعرب فوراً عن مخاوفه المسيحية من مغبة العنف. إلا أنه وافق، بعد تأنٍّ، على أنه يجب أن يكون هناك حملة عسكرية بقيادتها المستقلة الخاصة، وتكون منفصلة عن المؤتمر الوطني الإفريقي، على الرغم

من أنه في النهاية مسؤول عنها. جرى الاجتماع الثاني الذي جمع المؤتمر الوطني الإفريقي إلى حلفائه الهنود والبيض والملونين ليلاً، وقد قوبلت خطة مانديلا بإحداث جناح عسكري بالمعارضة من قبل كثير من الهنود، الذين مازال العديد منهم متأثرين بغاندي. جي إن سينغ أحد أصدقاء مانديلا المقربين كرر اعتقاده بأن اللاعنف يخذلهم. ولكن «نحن خذلنا لم يكن هو الذي خذلهم».[65] فيما حذر أصدقاء آخرون، منهم مونتي نايكر ويوسف كاتشاليا، متكهنين بأن الأساليب العنيفة ستسيء إلى العمل الأكثر إلحاحاً، وهو التنظيم السياسي. وسيعترف مانديلا فيما بعد بأن المؤتمر الوطني الإفريقي ارتكب فعلاً الغلطة عينها: لقد أفرغوا المنظمات السياسية من الرجال المتحمسين وذوي الخبرة، وأكّدوا اهتمامهم بالتنظيم الجديد، وأهملوا «العمل الطبيعي، والمهم هو متابعة التنظيم السياسي الصرف».[66]

كان كثير من الهنود الأصغر سناً قد رفضوا المقاومة السلبية، كما كان مانديلا وسيسولو يحظيان بدعم الشيوعيين البيض، بما فيهم سلوفو وبيرنشتاين. وقال سيسولو فيما بعد: «كان لديهم طرح واقعي يقول بإمكانك أن تعقّل كل شيء، ولم يكن لديهم طرح حزبي آلي وإنما كانوا يعتمدون على الناس».[67] وما من شك في أن الحزب لعب دوراً رئيسياً في إيجاد قوة عسكرية، لكن الفكرة لم تأت من موسكو، إذ قال خبير روسي في الشؤون الإفريقية هو أبولون دافيدسون Apollon Davidson: «لقد طرح الأمر كحقيقة. لقد كانت موسكو أحياناً أكثر اعتدالاً من الجماعات التي تدعمها، في فلسطين، والجزائر وجنوب إفريقية».[68] وكان للمؤتمر الوطني الإفريقي سيطرة متنامية على الجناح العسكري. يقول سلوفو إنه بعد عام 1963 أصبح خاضعاً بشكل كامل تقريباً لقادة المؤتمر الوطني الإفريقي في المنفى، فيما «كان ضلوع الحزب غير ظاهر».

في الصباح الباكر كان الكونغرسان قد اتفقا على أن يشكل مانديلا منظمة عسكرية جديدة أطلق عليها اسم إم خونتو وي سيزوي (M.K) umkhonto we

sizwe أو / سهم الأمة/ كان بإمكانه أن يختار طاقم العاملين معه وستبقى أم. كي بعيدة كل البعد عن المؤتمر الوطني الإفريقي، تفادياً لتهديد الوضع القانوني للمؤتمر الوطني الإفريقي (على الرغم من أنه خلال ثمانية عشر شهراً أصبح الارتباط بين إم كي والمؤتمر الوطني الإفريقي معروفاً للجميع عندما أعلنه مثير الفتن روبرت ريشا).[69] وكان ذلك فجراً أسطوريا لمرحلة جديدة من الكفاح.

بقي لوثولي في موقف محير. فقد كان قلقاً حيال الكفاح العنيف، إلا أنه لم يكن سلمياً. وسيذكر مانديلا دائماً قوله لستانجز «إذا ظن أحد أنني سلمي فليذهب ويأخذ دجاجاتي، عندها سيعرف كم هو مخطئ». وسيتشكى لوثولي فيما بعد من أنه لم يستشر بشكل لائق، لكنه تعمد الفتور.[70] فهو لم يوافق على القرار أبداً، إلا أنه لم يهاجمه. وقد كتب سلوفو «برغم التزامه المسيحي العميق باللاعنف إلا أنه لم يمنع أو يشجب المنحى الجديد، وألقى اللائمة فيه على تعنت النظام أكثر مما ألقاها على عاتق أولئك الذين اوجدوا سهم الأمة (إم.كي)».

لكن مانديلا صار الآن ملتزماً التزاماً تاماً بالكفاح المسلح كقائد عام لـ إم كي. وألقى بنفسه في دوره العسكري الجديد بمنتهى الحماسة. فقد تحول إلى جندي بين عشية وضحاها. كالفدائيين الأفريقانيين في حرب البوار مثل جان سموتز Jan smtus أو دينيس ريتز Deneys Reitz، اللذين قرأ عنهما كثيراً. وكان في ذلك انفصال كامل عن تراث المؤتمر الوطني الإفريقي. وقد كتب سلوفو فيما بعد: «إن القرار بأن على مانديلا أن يصبح هارباً، وبالتالي يعيش حياة الثوري المحترف»، كان خطأً فاصلاً رئيساً في تاريخنا. لقد كان مؤشراً باتخاذ أسلوب ـ مختلف نوعياً ـ من العمل السري هيأ الجو للانكفاء الكامل عن اللاعنف أو / التقيد الحرفي بالقانون/ الذي حدث بعد ذلك مباشرة».[71]

وقال مانديلا في بيان صحفي أصدره من مخبئه يوم 26 حزيران (يونيو)، الذي أصبح الآن / عيد الحرية/ : «إننا ننوي أن نجعل عمل الحكومة

مستحيلاً»، ولم يشرح كيف سيكون ذلك، ولكنه حذر من «أشكال أخرى من الضغط الجماهيري لإجبار المهووسين العرقيين الذين يحكمون بلدنا الحبيب على التنحي وإفساح المجال لحكومة ديمقراطية للشعب ومن الشعب ومن أجل الشعب». وأصدرت مذكرة بالقبض عليه . لكنه ما كان ليسلم نفسه، لأنه في الأوضاع الحالية «يعتبر السعي وراء الاستشهاد الرخيص بتسليم نفسي للشرطة أمراً ساذجاً وإجرامياً» وتابع: «لقد اخترت هذا المسار الأخير، وهو أصعب وينطوي على مخاطر وصعاب أكثر من الجلوس في السجن. لقد اضطررت لأن أفصل نفسي عن زوجتي وأطفالي الأعزاء، وعن أمي وأخواتي لأعيش حياة الخارج على القانون فوق أرضي، كما اضطررت لإغلاق مكتبي، والتخلي عن مهنتي، والعيش بفقر وشقاء». [72] وقال بعد سنة إنه اضطر «إلى وداع الأيام القديمة الجيدة يوم كنت، بعد يوم متعب في المكتب، أستطيع الانضمام إلى أسرتي حول مائدة العشاء، واستبدل تلك الحياة بحياة رجل ملاحق باستمرار من قبل الشرطة». [73]

في الأسابيع القليلة الأولى كان يختبئ في بيوت العديد من الأسر الهندية في جوهانسبورغ، ويخرج لحضور اجتماعات سرية مع تنفيذيي المؤتمر الوطني الإفريقي، بما فيهم كاثرادا ودوما نوكوي وألفرد نزو وهارولد وولب، ومعظمهم كان محظوراً عليه الاجتماع بأكثر من شخصين. وكانت هناك جماعة صغيرة معنية بالبحث عن بيوت آمنة وكان بينهم كاثرادا الذي كان يجد مضيفين هنود، وولفي كوديش Wolfie Kodesh، وهو صحفي أبيض متحمس يكتب في النيو أيدج.

كانت حياة مقلقلة. ففي إحدى الليالي وجد كوديش شقة قرب بيته في يوفيل Yeoville كانت شاغرة مؤقتاً. اجتمع هناك عشرة أعضاء من التنفيذي، بينهم مانديلا، في ثياب التنكر المفضلة لديه كسائق. ولكن عندما وصل سيسولو لاحظ كوديش رجلين مسنين في الممر يمعنان النظر فيه، وسمع أحدهما يقول:

«اذهب واتصل بالهاتف». سارع كوديش إلى تحذير الجميع بأن يتفرقوا، لكنهم لم يعرفوا أين يخبئون مانديلا، فاقترح كوديش أن يخبئه في شقته في الشارع الغربي رقم 53. وقال كوديش: «لن يخطر على بال الشرطة أن رجلاً أسود سيكون في منطقة بيضاء مثل تلك المنطقة. حيث سيظهر كالبرغوث في اللبن». وبقي مانديلا هناك لمدة شهرين، القائد الطويل القامة رياضيها، مع الصحفي القصير القوي الممتلئ الجسم، ثنائي فريد، يذكر كوديش ليلة مانديلا الأولى هناك «أصر على النوم على سرير المعسكر، برغم كل احتجاجاتي. واستيقظت في الرابعة والنصف صباحاً على صوت صرير سرير المعسكر، ووجدت مانديلا يرتدي بذلة الرياضة. وقال إنه سيخرج ليمارس رياضة الجري، ولكني رفضت إعطاءه المفتاح، فركض في مكانه لمدة ساعة. وكان يكرر ذلك كل صباح، وانضممت إليه فيما بعد، وأخذت أتحسن بالتدريج إلى أن أصبحت أجري معه لمدة ساعة كاملة».

كان الخروج خطيراً بالنسبة لمانديلا، لذلك بدأ يقرأ بنهم، من كتب كانت على الرفوف عند كوديش، أو تلك التي يحضرها كاثرادا من المكتبة العامة. قال له كوديش: إن كلوزويتز Clausewitz كان بالنسبة للحرب مثل شكسبير بالنسبة للأدب. فراح مانديلا يلتهم كتاب كلوزويتز / حول الحرب/. قال كوديش: «لم أر شخصاً يركز مثله. كان يسطر، ويسجل ملاحظات كما لو أنه يحضر لامتحان رسمي». [74] قرأ مانديلا قراءة متنوعة، حتى أعمال الشاعر الافريقاني أنغريد جونكر Ingrid Jonker (الذي استشهد بأشعاره في خطاب القسم بعد أربعين سنة).

ولكن اهتمامه الأكبر كان بالكتب التي تعنى بالكفاح من اجل التحرير: ماوتسي تونغ MaoTse-Tung وإدغار سنو Edgar snow عن الصين، ومنياحيم بيغين Menachem Begin عن إسرائيل، وكتاب لويس تاروك Louis Taruc/ ولد من الشعب/ عن ثورة الفدائيين في الفيليبين وكتاب دينيز ريتز Deneys Reitz

عن حرب البوار /كوماندو/ .[75] كان يقرأ بعناية واهتمام، كما اكتشف ماك ماهاراج Mac Maharaj، الذي وجد له بعض الكتب في لندن، عندما كانا مسجونين فيما بعد في جزيرة روبين.

في ذلك الوقت بدا كثير من الثوريين حول العالم منتصرين: ماو في الصين، وبن بيلا في الجزائر، وكاسترو في كوبا. تمعن مانديلا في دراسة الثورات في إفريقية: في إثيوبية، وكينيا والكاميرون، وخاصة في الجزائر، التي اعتبرها المؤتمر الوطني الإفريقي موازية لنضالهم. لكن الثورة الكوبية هي التي أمدته بالأفكار هو وكثير من رفاقه. كانت نموذجاً خطيراً، نصراً استثنائياً، وقد أثار حميتهم أن كاسترو وتشي غيفارا، مع عشرة فقط من الناجين من سفينتهم الغرانما، جندوا جيشاً من العصابات قوامه 10.000 خلال ثمانية عشر شهراً، وساروا نحو هافانا في كانون الثاني (يناير) 1959.[76] أبدى مانديلا اهتماماً خاصاً بالقصة كما سردها بلادس روكا Blas Roca أمين عام الحزب الشيوعي الكوبي، الذي قال: إن كاسترو، وليس الحزب، هو الذي أدرك أن لحظة الثورة قد أتت. وسيبقى مانديلا دائماً معجباً بكاسترو.

وجد مانديلا صعوبة في التكيف مع حياة الوحدة في شقة وولفي كوديش. ويذكر وهو في السجن «فجأة وجدت أن لدي كثيراً من الخصوصية، وافتقدت الأسرة والشركة وصالة الرياضة حيث كنت أسترخي تماماً. كان أسلوب حياتي الجديد يتطلب كثيراً من النظام للحفاظ على وتيرته».[77]

كان يفتقد ويني بخاصة، ولاحظ كوديش أن مانديلا عندما كان يتحدث عنها وعن الأطفال كان يتخلى عن أسلوبه العسكري، وتفيض عيناه بالدموع. فساعد في ترتيب عدة زيارات لويني، كانت دائماً تتطلب حذراً كبيراً لأن بيتها في سويتو كان مراقباً على الدوام من فوق تل قريب. مما يضطره إلى قيادتها عبر طرقات غير مباشرة، وتغيير السيارة على الطريق، وبتوقيت دقيق جداً: فإذا تأخرت السيارة ألغيت الزيارة. أحياناً كانت تلتقي بمانديلا في بيت آمن في

مكان آخر. كانا دائماً يجدان أصدقاء للحركة يقدمون على تلك المخاطرة، ولكنهما اتفقا على ألا يسببا لهم القلق. وقد اجتمعا مرة في بيت في بارك تاون يملكه ناشر أبيض متعاطف لكنه عصبي. وعندما دخل إلى الغرفة بعصبية اهتزت لها كؤوس الشراب على الصينية، سارع كوديش إلى ذكر ارتباط بموعد آخر، وأخذ مانديلا بعيداً.

ازداد قلق كوديش على سلامة مانديلا إذ بدأت الصحف تتحدث عن اختفائه، وتطلق عليه اسم /كزبرة الثعلب السوداء/ ، وحذره من أن «كل الشرطة يحملون صور كزبرة الثعلب السوداء، ألا تخشى أن يمسكوا بك؟». أجاب مانديلا: «أنا لا أفكر في الأمر، وإنما أهتم لعملي».[78] لكن أمرين أثارا ذعرهما. فقد سمع مانديلا بعض الخدم يتحدثون عن لبن رائب تركه على حافة النافذة. وهذا طعام يحبه الإفريقيون، مما يعني أن هناك رجلاً أسود يعيش في بناء البيض.[79] وأخيراً، ذهب كوديش ليرى مسؤول النظافة الزولي الذي يقطن في أعلى البناء، والذي قيل له إن الغريب الأسود كان طالباً ينتظر منحة مالية ليسافر إلى ما وراء البحار. ولحظ على سرير الرجل قصاصة من صحيفة. كانت «مقالاً عن كزبرة الثعلب السوداء» مرفقاً بصورة لنيلسون، برغم أنه بلا لحية. «فقلت لنفسي: هذا سيِّئ، إنه يعرف بمن أعتني. وقلت لنيلسون: احزم أمتعتك، ستذهب، لقد رأى جميع الصور». واصطحب كوديش مانديلا إلى بيت في ضاحية نوروود Norwood قرب جوهانسبورغ، يملكه طبيب ودود، حيث أقام في جناح الخدم، مدعياً أنه البستاني.[80]

كان مانديلا يحشد جماعة صغيرة من الخبراء للانطلاق في حملة تخريب باسم إم. كي /سهم الأمة/. وكان لدى الحزب الشيوعي مجموعته الخاصة من الأخصائيين لتنفيذ مخططاته التخريبية، وكان واضحاً أن المجموعتين يحتاج بعضهما بعضاً، فاندمجتا. كان مانديلا دائماً يصر محقاً على أن الإم. كي أسسها إفريقيون، لكنها بحاجة إلى خبرة ومهارات (تكتيكية) لا يستطيع المؤتمر

الوطني الإفريقي وحده أن يقدمها. .[81] فجند جو سلوفو الذي كان يثق به ويحوز إعجابه، ليخدم في القيادة العليا. وقال مانديلا فيما بعد: «إن كلمة الاستسلام لم تكن من المفردات التي يعرفها. كان مقداماً دائماً وأبداً».[82] كما امتدح سلوفو بدوره مانديلا بطريقته الخاصة: «نما حبي وإعجابي به. لم يكن في نيلسون أي ضعف أو كياسة تنم عن إحساس بالتفوق. وكان قد قام بخطوات جبارة في المجال الأيديولوجي منذ أن تجابهنا، في ممرات الجامعة أوائل عقد الخمسين، حول دور الحزب في النضال. وعلمه ذكاؤه الحاد أن يتمسك بالطبقية قاعدة للقمع الوطني. لكن ألم الحياة ـ التي كانت غطرسة البيض تهيمن على كل لحظة من لحظات اليقظة فيها ـ ترك ندوباً واضحة».

جلب سلوفو مجموعة صغيرة من الخبراء الشيوعيين، ومن ضمنهم جاك هودجسون Jack Hodgson، ودينيس غولدبيرغ Dennis Goldberg، اللذين كانا ملمين بالمتفجرات جراء خبرتهما في شمال إفريقية إبان الحرب العالمية الثانية، وآرثر غولدريتش Arther Goldreich، الذي حارب البريطانيين في فلسطين أواخر عقد الأربعين. وتبين أن خبرتهم كانت بعيدة عن الإتقان بشكل مذهل. وقد كتب سلوفو فيما بعد: «لم يكن لدينا مسدس واحد، وكانت معرفتنا (بالتكنيك) في هذه المرحلة المبكرة من النضال ابتدائية لأقصى حد».[83] وقد مارس الخبراء مهاراتهم بشكل متسرع جداً. وفي صباح أحد الأيام، عندما خرج كوديش إلى مبان آجرية خارج جوهانسبورغ لتجربة القذائف مع جاك هودجسون، أصر مانديلا على الحضور، في المباني الآجرية رأى كوديش رجلاً أسود كان واضحاً أنه عرف مانديلا، وأراد أن يحبط التدريب لكن مانديلا ذهب ليتحدث إلى الرجل، ثم عاد أدراجه وقال لهم: تابعوا. انفجرت القنبلة كما ينبغي، مخلفة غمامة من التربة الفوقية، كما لو أنها قنبلة نووية مصغرة. فكّر كوديش أنهم عندما عادوا أدراجهم كان مانديلا مبتهجاً، يهنئ الجميع.[84]

في تشرين الأول (أوكتوبر) 1961 وجد مانديلا مخبأ جديداً في مزرعة ليليسليف Lillesleaf Farm، وهي عبارة عن منزل منعزل مع بعض الأكواخ في ريفونيه Rivonia، التي كانت وقتها ضاحية شبه ريفية تزرع فيها الخضار لتباع في الأسواق، وفيها بعض الأكواخ خارج حدود مدينة جوهانسبورغ. كان الحزب الشيوعي قد اشترى المزرعة سراً، وموه ملكيتها باسم آرثر غولدريتش، الذي استقر فيها مع أسرته ليظهر واجهة محترمة ونمط حياة تتضمن ركوب الخيل أيام السبت، بدا المكان مخبأ أميناً لمانديلا عندما اصطحبه صديقه مايكل هارميل إلى هناك، وكان ـ كما شهد فيما بعد في المحكمة ـ «مكاناً نموذجياً بالنسبة لرجل حياته حياة خارج على القانون. حتى ذلك الوقت كنت مضطراً للبقاء في الداخل أثناء ساعات النهار ولم أكن لأجرؤ على الخروج إلا تحت جنح الظلام. ولكن في ليليسليف استطعت أن أعيش عيشة مختلفة، وأن أعمل بكفاءة أكثر». [85]

وفيما بعد كتب من سجنه أنه شعر بالسعادة في ليليسليف لأن «المكان كله ذكرني بأسعد أيام حياتي، أيام الطفولة». [86] استخدمت ليليسليف مخبأ لأعضاء الحزب الشيوعي بالإضافة إلى مانديلا، برغم أنه هو وعائلة غولدريتش كانوا يعيشون هناك فعلاً. حيث شغل غرفة صغيرة في البناء الخارجي، وكان يعرف باسم دافيد موتساماي David Motsamayi. وقال للمحكمة فيما بعد: «إن المزرعة لم تكن مقر القيادة الفعلي /لسهم الأمة/ ولا المؤتمر الوطني الإفريقي، لكن راستي بيرنشتاين، الذي كان يأتي زائراً، خشي أن المكان بدا وكأنه يتحول إلى مقر قيادة شبه رسمي لسهم الأمة. [87] من ليليسليف كان مانديلا يخرج أحياناً متنكراً في الأمسيات ليلتقي بقادة المؤتمر الوطني الإفريقي وسواهم. كان أحياناً يلبس ثوب ميكانيكي، وأحياناً بذلة حارس ليلي بمعطف رمادي طويل بأقراط كبيرة، ومرة تنكر بزي كاهن يقود جنازة كاذبة من الناشطين المتنكرين. كان يستمتع بالإحساس المسرحي: ففي تشرين الأول (أوكتوبر)

اجتمعت مجموعة من الناشطين الهنود في منزل في فورد سبورغ Fordsburg ودخل رجل يلبس ثياباً قذرة لمحطة خدمة كالتكس Caltex، ولم يعرفوا أنه مانديلا قبل أن يقول: «اجلسوا يا رفاق».[88]، وكان أحمد كاثرادا واحداً من مجموعة صغيرة كلفت بالتأكد من أن مانديلا يبدو / رجلاً جديداً/. وأقنعوه بالتخلي عن ثيابه الأنيقة، لكنه بقي محتفظاً بغروره، ولم يستطيعوا إقناعه بحلق لحيته التي أصبحت جزءاً من نمطه الثوري».[89]

ساور القلق كثيراً من أصدقاء مانديلا حيال قلة حذره. وقد كتب بيرنشتاين «ربما كان الرجل الأكثر مطاردة في البلاد في ذلك الوقت، وكان يقدم على مجازفات كبيرة. لكن ذاك كان أسلوبه. كان شخصاً يقود من الجبهة. ولم يطلب يوماً من أحد مخاطرة لم يكن هو مستعداً للقيام بها بنفسه». وقلق بيرنشتاين بسبب توسع دائرة الأعوان والسائقين والزوار الذين يعرفون بمخبأ مانديلا في ليليسليف، وأن مسؤولية الأمن كانت مقتسمة بشكل خطر بين الحزب الشيوعي ومانديلا نفسه. وتذكر بيرنشتاين: «كنا بطيئين في تقدير ما تنطوي عليه الأحداث من أخطار».[90]

زارت ويني مانديلا عدة مرات في ليليسليف، حيث كانت تحمل إليه الخضار ثم تذهب بعد ذلك لزيارة صديقيهما الهنديين بول وأديلايد جوزيف. قال بول: «كنت أرى السيارة ملطخة بالطين، وكان واضحاً أنها قادمة من منطقة زراعية، وكنا نعرف أن بيتنا خاضع لمراقبة دائمة. كانوا كلهم مهملين إهمالاً مرعباً. لكنها كانت الأيام الأولى للحركة السرية، بكل ما يحيط بها من ألق». وفي أحد الأيام فوجئ آل جوزيف عندما اصطحبهما وولتر سيسولو بالسيارة إلى غرفة صغيرة في فورد سبورغ، قرب وسط جوهانسبورغ «دخلنا لنجد نيلسون هناك. عانقنا، وتحدث في أمور عائلية، وبعد قليل قال: / أنا سعيد لأني رأيتكما / وذاك كل ما في الأمر». وبعد سنوات علما بأنه قلق لسماعه قصة كاذبة بأن زواجهما على وشك التداعي، وأراد أن يقدم بعض المساعدة.[91]

الحياة في الظل مصدر توتر لكثير من المتآمرين. وقد قال دينيس غولدبرغ الذي كان يعمل في الخفاء في كيب تاون «أظن أن الناس الذين يعملون في الخفاء يعتقدون أنهم لا يطالون وبالتالي يصبح التوتر كبيراً لديهم لدرجة أنهم يرتكبون أخطاء في لاوعيهم ليضعوا حداً لذلك.. مثل الخروج من الصقيع». رأى غولدبرغ / مرحلة كزبرة الثعلب/ مرحلة متقلقلة تقلقلاً عميقاً في حياة مانديلا: «فهناك جانب كئيب لأن يكون الإنسان قائداً (رومانتيكياً). يجعلك تقدم على مخاطرة تلو أخرى، لأنك يجب أن تحافظ على تلك السمعة، وعندما تعمل في الخفاء فإنك تعلق بين الاختفاء في حفرة في الأرض وسحب الغطاء فوقك لأنك وقتها تكون في مأمن، وبين الخروج للقيام بمزيد من العمليات الأكثر جرأة». [92]

أيام الاختباء ارتحل مانديلا في طول جنوب إفريقية وعرضها، دون قلق يذكر. وقد قاد السيارة مرة إلى دوربان ليقيم عند آل مير، فصدمت فاطمة إذ تلقت اتصالاً هاتفياً من صديق سألها: «هل وصل نيلسون؟». وعندما أقام لمدة أسبوعين في مزرعة سكر في تونغات Tongaat قرب منزل لوثولي، ادعى بأنه خبير زراعي، إلى أن سأله أحد العمال في المزرعة «ماذا يريد لوثولي؟». [93] لكنه كان مصمماً على مداومة اتصاله بعامة الناس، الذين تأكد تثبيتهم له. وفي منتصف تشرين الثاني (نوفمبر) دعيت ماري بنسون Mary Benson للقائه خارج جوهانسبورغ. كان يرتدي معطف السائق الأبيض، وقد قام للتو بجولة في ناتال والكيب. وقال لها: «لا يمكنك أن تستوعبي تماماً ما لم تبقي هناك / مع/ الناس». وحدثها مازحاً كيف نجا بجلده مؤخراً، وترنم بذكر الأيام الخوالي، ثم أوصلها بالسيارة إلى منزل أختها، وكان يقود سيارة قديمة غريبة الشكل تبقبق باستمرار حتى تقف. [94]

في الوقت الذي كانت قيادة إم. كي تخطط لأعمال التخريب، لم يشعر الجنوب إفريقيين البيض بما يوحي بالخطر بعد قمع إضراب الاعتصام في

البيوت. وكسب الحزب الوطني الحاكم دعم الناخبين البيض بالوعود التي قدمها حول اتخاذ إجراءات أكثر شدة ضد المحرضين. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) 1961 حدثت أول نوبة تخريب، عندما قطع أحد الأبراج الكهربائية وحرق مكتب حكومي، وتبين أن ذلك كان من فعل اللجنة الوطنية للتحرير، وهي فرع من الحزب الليبرالي الذي تطور فيما بعد إلى حركة المقاومة الإفريقية (ARM).[95] أعلنت إم. كي عدم مسؤوليتها عن أعمال التخريب هذه، التي اعتبرتها «تميل مزاجياً نحو أعمال الجرأة البطولية» لكنهم، في مجالسهم الخاصة، وافقوا على تنسيق أعمالهم.[96] لم تفلح أعمال التخريب سوى في زيادة صمود معظم البيض، وفي الانتخابات التي تلت ذلك حقق الوطنيون أكبر فوز لهم. حيث أعطاهم الناخبون ـ لأول مرة ـ أغلبية عظمى واضحة.[97]

وافق 16 كانون الأول (ديسمبر) عيد دينغان Dingan's Day في ذكرى المجزرة الأفريقانية للزولو عام 1838 ولكنه أصبح الآن يختزل احتجاجات الإفريقيين. وهنا نفذت إم. كي أول أعمال التخريب، بانفجارات في جوهانسبورغ وبورث إليزابيث ودوربان تسببت تلك الأعمال بضجة وحماسة وطنية، على الرغم من أن المخربين لم يكونوا أكفاء تماماً: حيث قتل واحد منهم، وهو بطرس موليف Petrus Molife ونسفت ذراع واحد آخر، وحاول جو سلوفو تفجير دريل هول Drill Hall في جوهانسبورغ لكنه اضطر إلى الانسحاب بعد أن اكتشفه سيرجنت في الجيش.[98] لكن مخربي إم. كي نجحوا في الهجوم على مكاتب الحكومة و محول كهربائي.

في الليلة السابقة كان متطوعو المؤتمر الوطني الإفريقي قد وزعوا منشورات ولصقوا ملصقات تعلن عن تأسيس إم. كي وتشرح الحاجة إلى أساليب جديدة إضافة إلى المنظمات التقليدية. «يأتي وقت في حياة أية أمة لا يبقى فيه سوى خيارين: الاستسلام أو القتال». وقالوا إن إم. كي أملت أن تعيد الحكومة إلى جادة الصواب «قبل أن تبلغ الأمور مرحلة الحرب الأهلية

اليائسة».[99] وبحلول الصباح كانت الشرطة قد مزقت معظم الملصقات ولهذا فإن الرسالة لم تصل إلى سوى عدد قليل من الناس. وفيما بعد كتب أحد المتآمرين «خلافاً لنوايانا فإن التخريب لم يخلف سوى موجة صغيرة من القلق لدى الحكومة أو في البلاد عامة».[100] لكن مانديلا ورفاقه كانوا في البداية مبتهجين إذ اعتقدوا أن الجنوب إفريقيين البيض سيدركون الآن أنهم يجلسون على قمة بركان، وأن المؤتمر الوطني الإفريقي لديه «سهم ماضٍ سيحمل النضال إلى قلب القوة البيضاء».[101] وقد كتب مانديلا فيما بعد من السجن «لقد كنا تياهين بنجاحاتنا الأولى. وحتى أولئك الذين شكوا في البداية في حكمة الخط الجديد انجرفوا أيضاً مع موجة الحماسة».[102]

أثبت توقيت الانفجارات أنه محرج بالنسبة للمؤتمر الوطني الإفريقي، كما اعترف مانديلا، فقبل ستة أيام فقط كان رئيس الحزب ألبرت لوثولي قد منح جائزة نوبل للسلام في أوسلو. لكنهم تأكدوا أن لوثولي قد عاد سالماً إلى الوطن قبل أن يحصل التخريب، ولم يكن المؤتمر الوطني الإفريقي مرتبطاً رسمياً بسهم الأمة (إم. كي) لكن لوثولي بقي قلقاً حيال اتجاه العنف. وكان قد قال لدبلوماسي كندي منذ شهرين: إن الأعضاء الأصغر سناً في المؤتمر الوطني الإفريقي كانوا يفكرون بالعنف. إلا أنه رأى أن محاولة الإطاحة بالحكومة عن طريق القوة ستكون / حماقة انتحارية/ .[103]

أعطت جائزة نوبل التي منحت للوثولي، قبولاً دولياً لنضال المؤتمر الوطني الإفريقي. وكان مانديلا (غاية في السعادة) عندما سمع بأخبار الجائزة من إذاعة ريفونيه Rivonia .[104]

لكن وزارة الخارجية البريطانية بقيت حذرة حيال الاتصال بلوثولي. وعندما توقف في لندن في طريقه إلى النرويج رأى أحد المسؤولين أن الاجتماع به «سيقابل باستياء شديد من قبل حكومة جنوب إفريقية وأنه لن يقدم ولن يؤخر بالنسبة لدعم قضية الزعيم لوثولي في جنوب إفريقية».[105]

في الحقيقة لم يكن هناك تناقض ظاهر بين انفجارات إم. كي والضغوط السلمية التي مازال المؤتمر الوطني الإفريقي يمارسها. وبقيت القيادة العليا لـ إم. كي متفائلة بأن أعمال تخريب متتالية سيكون لها فعل / طلقة عبر الأقواس/ لتعيد جنوب إفريقية البيضاء إلى وعيها.[106] لكن بعيد الانفجارات الأولى بدأت إم. كي تخفف من توكيدها أعمال التخريب وتفكر أكثر بحرب العصابات. وقد قال بيرنشتاين، الذي كان معنياً بالأمر: «لم يكن هناك قرار رسمي. وإنما تطورت الأمور تلقائياً من فكرة أن التخريب سيؤدي بطريقة أو بأخرى إلى / مرحلة تالية/ ».[107] وبدأت القيادة العليا تهيِّئ لسفر القادة المهمين إلى الخارج للتدرب، يتبعهم المتطوعون الشباب.

كان مانديلا قد أصبح الآن قائداً عاماً لقوة مقاتلة واعدة. و له سلطة ومكانة قائد ثوري يجابه نظاماً عسكرياً لا يحظى بشعبية، في عصر الثورات حيث بدت قوات الاضطهاد في تراجع في كامل إفريقية. لقد ترك جميع أدواره السابقة: من ملاكم، وثري متبطل، ومحام، ورب أسرة ـ وتقمص دوره الجديد قائداً لحركة فدائية سرية. كان تحولاً مفاجئاً وبلا تحضير، من سياسي متعدد الأوجه إلى جندي ملتزم. لقد كتب لمانديلا أن يكون جندياً هاوياً لم يعمر طويلاً إذا قارناه بالثوريين الصينيين والكوبيين. وبقي قبل كل شيء السياسي الذي رأى الحاجة إلى مؤشرات رمزية تقود شعبه إلى نوع جديد من المواجهة».

13

الاندفاع الأخير

1962

أصبحت إفريقية السوداء تحتل رقعة أكبر على الخارطة، تعد بتأثير جديد على العالم، ودعم قوي للإخوة الإفريقيين في الجنوب. أوائل عام 1962، وبعد أول تفجر لأعمال التخريب، قرر أعضاء اللجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني الإفريقي وجوب السعي من أجل الحصول على مساعدة من بقية القارة لتقديم المال والتدريب العسكري، وطلبوا من مانديلا أن يجري اتصالات، وأن يتحدث في لقاء قمة إفريقي في إثيوبية في شباط (فبراير) ليشرح حملة المؤتمر الوطني الإفريقي. وفي عمر الثالثة والأربعين، لم يسبق لمانديلا السفر خارج جنوب إفريقية، فوافق بحماسة كبيرة. إلا أن رحلته الإفريقية ـ كما كشف في مذكراته الشخصية ـ كانت مليئة بالنكسات وكانت أصعب بكثير مما توقع هو وزملاؤه.

كان الوقت غير مناسب للسفر عبر القارة. فالدول المستقلة حديثاً كانت تخرج إلى الوجود بتواتر سريع، وكلها آمال بدور إفريقي موحد في العالم. وكان السادة السابقون الإمبرياليون يعرضون عليها المساعدة والصداقة لإبقائها في الفلك الغربي، فيما كان الاتحاد السوفيتي والصين يتنافسان لإغرائها بالاتجاه نحو الشرق.

وكان الأمريكيون، إبان حكم الرئيس كينيدي، يزدادون اهتماماً، خشية أن تتحول الحرب الباردة في إفريقية إلى حرب عرقية، وأن ترص الدول

الإفريقية صفوفها ضد ما أسموه / معقل البيض/ ـ جنوب إفريقية وأنغولا وموزامبيق إفريقية الوسطى ـ وفي تموز (يوليو) 1962 أرسل تقرير سري إلى كبار صناع السياسة في إدارة كينيدي، ومن ضمنهم ريتشارد هيلمز Richard Helms في السي آي إيه، يقترح أن يقوم الرئيس بزيارة مبكرة إلى إفريقية، وحذر التقرير من أن معقل البيض «لا يكن الحب للتاريخ والنظرية السياسية الأمريكية»، وأن الكتلة الشيوعية ستواصل الصيد في المياه الإفريقية العكرة «كان الجنوب إفريقيون السود يعتبرون لاعبين مهمين، لكن لا يمكن إدراك كنههم». فقادتهم كانت لهم نزوات مع العنف، وأحياناً مع الشيوعية.[1]

سيجد مانديلا رأيه الشخصي بإفريقية يبدو فجأة للعيان قبل أن يغلق تماماً أمامه. وقد ذهب قبل مغادرته إلى ناتال ليرى لوثولي رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي، الذي وجد معنوياته عالية. وافق لوثولي على رحلة مانديلا، وطلب أن يستشار في عمليات المؤتمر الوطني الإفريقي. بعد ذلك أمضى مانديلا يومين في جوهانسبورغ، حيث اجتمع بأصدقاء قدامى من ضمنهم وولتر سيسولو ودوما نوكوي. وغضب لأن أحد الزملاء الهنود لم يأت إلى الاجتماع لأنه كان «يسكر». وفيما بعد في بيتشوانا لاند غضب أكثر عندما اعتقل زميل آخر لأنه كان يقود سيارته في حالة سكر. وكتب في مذكراته «ذاك عمل يعتبر خيانة وينم عن عدم إحساس مذهل بالمسؤولية»[2]، لكنه بقي سعيداً بالرحلة.

في 10 كانون الثاني (يناير) 1962 ودع ويني وأُخذ بالسيارة عبر الحدود إلى بيتشوانا لاند (بوتسوانا الآن)، التي كانت وقتها ما تزال محمية بريطانية. هوى تلك البلاد من النظرة الأولى، وكتب فيما بعد أنه رأى إفريقية بحالتها البرية، رأى لبؤة تعبر الطريق.[3] وفكر أنه بعد غياب جوهانسبورغ اصبح في «مركز كوزموبزليتاني آخر حيث بقاء الأقوى هو القانون الأعلى وحيث النباتات المتشابكة تخفي جميع أنواع المخاطر».[4]

كانت بيتشوانا لاند كثيراً ما تستخدم كطريق نجاة للناشطين السود، الذين

بدت السلطات البريطانية متسامحة معهم، وكانوا سعداء بإيواء مانديلا الذي (قيل) «إن شرطة جنوب إفريقية تبحث عنه منذ أشهر». لكن المفوضية العليا كانت تراقبه من كثب. وأخبرت لندن أنه وصل بلدة لوباتسي Lobatsi الحدودية يوم 12 كانون الثاني (يناير)، و«معروف أنه يملك مبالغ تقدر بـ600 جنيه». [5]

وتلقى مانديلا «صدمة حياته» في لوباتسي عندما اكتشف أن ضابط الهجرة كان أيضاً رئيس الأمن. وقد ساوره الشك عندما تعرف عليه الرجل وعرض عليه بيتاً آمناً كي لا تختطفه شرطة جنوب إفريقية، لكنه اطمأن عندما عرف أنه ساعد أوليفر تامبو أيضاً قبل سنتين. [6] وكان هناك سبب يدعو إلى الحذر والاحتراس فقد تلقت المخابرات البريطانية خبر عدة زيارات سرية للفرع الخاص بجنوب إفريقية منذ نيسان (أبريل) 1960، ومن ضمنها بعض «اللاجئين السياسيين» الذين كانوا في الحقيقة عملاء جنوب إفريقيين. [7] كما جندت الشرطة المحلية كثيراً من الأفريقانيين وتبادلت المعلومات مع الجنوب إفريقيين، حسب ما أفاد جون لونغريغ John Longrigg من السفارة البريطانية في بريتورية. [8]

من بيتشوانا لاند وضع مانديلا مع صديقه جو ماتثيوز على متن طائرة مستأجرة أقلتهما إلى دار السلام في تانزانية. كانت المخابرات البريطانية تتبع ماتثيوز الذي صار الآن يعمل من باسوتولاند، وكانوا يعتقدون أنه «ربما كان منظراً شيوعياً يعمل متخفياً وراء المؤتمر الوطني الإفريقي»، لكنهم لم يعلموا من الذي استأجر الطائرة. [9] وعلى الطريق نجحت الطائرة بصعوبة في تفادي الارتطام بجبل. وتلك الحادثة اختبرت ضبط مانديلا لنفسه إلى أقصى حد، و(ذكر أنها أوقفت جو ماتثيوز عن الكلام). [10]

في دار السلام سلطت الأنوار على مانديلا. دهشت فريني غينوالا Frene Ginwala، ممثلة حزب المؤتمر الوطني الإفريقي التي كانت تعمل كوكيلة سفر للرفاق الهاربين عندما استقبلته. وكان تامبو قد أخبرها بوصول مانديلا مرتدياً بذلة، وأنه يجب أن / يوارى/ بين التانزانيين. لكنه أتى معتمراً قبعة

باسوتوBasuto، وبذلة سفاري صيد وحذاء موسكيتو. علقت غينوالا «ويفترض أن أخفيه!». [11]

ازدهر مانديلا في تانزانية التي حصلت على استقلالها قبل شهر. وابتهج بأسلوب جوليوس نيريري، كرجل من الشعب، بسيارته الصغيرة وبيته المتواضع، وتفقد ببعض الحسد مقر قيادة حزب نيريري، حزب الاتحاد الوطني الإفريقي التانغانياكي، الذي يتألف من ثلاثة طوابق ولديه طاقم من المسؤولين المتفرغين. لكنه حزن عندما نصحه نيريري بتأجيل الكفاح المسلح والتنسيق مع سوبوكوي والمؤتمر الإفريقي العام، فرد بأفكار معاكسة لما يعتقده نيريري، بأن الاشتراكية طبيعية في إفريقية. وبوضوح ملفت لم يشارك نيريري الرأي بأن الإفريقيين شعب رعوي متنقل ليس فيه تقسيمات طبقية. وأصر مانديلا على أنه قبل وصول الرجل الأبيض بزمن طويل كان الإفريقيون قد طوروا التعدين وعلم المعادن، الذي قدم فائضاً اجتماعياً ومول صروحاً من النيل إلى زيمبابوي. [12]

من تانزانية طار مانديلا لمدة قصيرة إلى إفريقية الغربية، حيث اجتمع بتامبو، الذي أصبح الآن ملتحياً مرسل الشعر، وكان ينظم مكاتب حزب المؤتمر الوطني الإفريقي في غانة. [13] ثم طار إلى إثيوبية لحضور مؤتمر الحرية الإفريقي في أديس أبابا. الذي نظمه هيلا سيلاسي، ذلك الحاكم الأسطوري الذي حرك مشاعر مانديلا عندما كان يافعاً في السابعة عشرة إذ سمع لأول مرة كيف وقف صامداً في وجه قوات موسوليني النازية. لم يكن سيلاسي اشتراكياً ولا ديمقراطياً لكنه كان يحكم الدولة الإفريقية التي كانت دائماً مستقلة، وصار الآن ينصح ويشجع بدهاء قادة الدول الجديدة الأخرى. كتب مانديلا: «هذا هو البلد الذي كان يحكم من قبل الإفريقيين، على الرغم من أنه لم يكن لديه مؤسسات ديمقراطية. كل بنية رأيتها هناك كانت نتيجة مبادرة ومهارات إفريقية». وتأثر مانديلا بألق الملك الصغير في لباسه الشعبي، وهو يستمع بصلابة وينحني

للجمهور بإيماءة من رأسه، وقد سره أن يرى خبراء عسكريين يتلقون الأوسمة وينحنون مثل أي شخص آخر.[14]

كان دخول مانديلا إلى المؤتمر مؤثراً، حيث تخلى عن اسمه المستعار / دافيد/ وألقى خطاباً أعده بعناية وفق نصيحة تامبو وروبرت ريشا. وصف مانديلا الاضطهاد الوحشي الذي يتعرض له السود في جنوب إفريقية في «أرض تحكم بالبندقية». وشكر الدول الإفريقية الأخرى لاستمرارها بالمقاطعة والعقوبات. لكنه أصر على أن شعبه يجب ألا يبحث عن خلاصه وراء الحدود «لأن نقطة ارتكاز الكفاح من أجل الحرية والديمقراطية في جنوب إفريقية، موجودة داخل جنوب إفريقية نفسها». وتحدث عن هشاشة الحكومة وتنامي المناهضة فقال: «الرأس الذي يلبس التاج لا يعرف النوم المريح». وعن مستقبل حملة التخريب التي بدأت في الشهر السابق. وقال مانديلا : «يجب أن تسدد ضربات قاسية وخاطفة بكامل ثقل جماهير الشعب»، إلا أنه لم يتخل كلياً عن اللاعنف في الاحتجاج: «إن أيام العصيان المدني، والإضرابات والتظاهرات الحاشدة لم تنته، وسنلجأ إليها مرة إثر مرة».[15] وسيعود متسللاً إلى جنوب إفريقية بما أمكن من السرعة، وقد قال لجريدة جوهانسبورغ ستار إن الأشهر العشرة الأخيرة من حياة التخفي كانت «الفترة الأكثر إلهاماً في حياتي ففي كل مكان كنت أستمد الإلهام من المشاعر الدافئة.. ومقدار الثقة التي وجدتها بين الجماهير الإفريقية».[16]

كان الخطاب الأكثر أهمية في حياة مانديلا المهنية حتى ذلك الوقت، ولكن لم تنقل منه الصحف في جنوب إفريقية ما يذكر. وفي لندن كتبت الأوبزرفر أنه وجه «تحذيراً خطيراً من أن الوضع في جنوب إفريقية متفجر». وفي مقابلة مع المانشستر غارديان نفى أي ارتباط بسهم الأمة (إم. كي)، لكنه قال إنه يعتقد أنها رفعت معنويات الشعب، وأعطت قوة لأنواع أخرى من الاحتجاج: «هذه المنظمة تستطيع أن ترد الصاع صاعين انتقاماً للهجمات التي

تشنها الحكومة على الناس الأبرياء».[17] والواقع أن حديث مانديلا ضمن بوضوح الارتباط بين المؤتمر الوطني الإفريقي وإم. كي، مثيراً غضب قادة المؤتمر الوطني الإفريقي في البلاد الذين يريدون أن يبقى الفصل القانوني بين المنظمتين.[18]

كان مانديلا قلقاً حيال التوترات بين القادة الإفريقيين، خاصة العداء تجاه «وفود الإخوة العرب». وكان الإفريقيون في شرق ووسط إفريقية يرفضون إدخال الشمال إفريقيين في منظمتهم «حركة الحرية الإفريقية شرقي ووسط إفريقية بافميكا PAFMECA/ حتى الجزائريين، الذين كانوا يخرجون للتو من حربهم ضد فرنسة. وعندما احتج مانديلا نبح في وجهه أحد الوفود «في شمال إفريقية هناك إفريقيون ليسوا إفريقيين»، فأمَرَّ إليه تامبو ملاحظة تقول / اخرس / لكن مانديلا سرعان ما نجح في إدخال الشمال إفريقيين وكسب امتنانهم. كما ساعد في إقامة روابط بين الجنوب إفريقيين السود والشمال. واتسعت حركة الحرية الإفريقية لشرق ووسط إفريقية لتشمل جنوب إفريقية، وغير اسمها إلى / بافميكسا PAFMECSA/ وبعد سنة ستزداد توسعاً لتشمل غرب وشمال إفريقية وتصبح منظمة الوحدة الإفريقية (OAU).

مازال مانديلا قلقاً بسبب مفهوم الانفصال (اللاوحدة) في جنوب إفريقية السوداء، وحيال تنافس المؤتمر الوطني الإفريقي والمؤتمر الإفريقي العام. وقد سبق خطابه أمام المؤتمر متحدث أكثر فصاحة هو بيتر مولوتسي Peter Molotsi من المؤتمر الإفريقي العام، الذي تحدث عن الأبهة التي كانت عليها إفريقية «وعن روعة حضارة آزانيا Azania الغابرة، وهو الاسم الذي أعطاه المؤتمر الإفريقي العام لجنوب إفريقية».[19] وفوجئ مانديلا إذ وجد صديقه القديم مايكل سكوت ـ الذي انضم مرة إلى الجاثمين (احتجاجاً) في سويتو ـ في المؤتمر، إلى جانب مؤتمر إفريقية العام فيما يبدو، لكنه لم يبد أنه على علاقة جيدة مع وفد المؤتمر الإفريقي العام، لذلك جالسه مانديلا وعرفه على قادة

سود.[20] كان المؤتمر الإفريقي العام ينشر قصصاً حقودة ضد المؤتمر الوطني الإفريقي في الدول الإفريقية، مطلقاً عليه اسم /جيش كزوسا القبلي/ وأنه /مخترق من قبل الشيوعيين البيض/. كان مانديلا يحاول إظهار جبهة موحدة، كما كان يحاول تفادي إثارة عداء المؤتمر الإفريقي العام. وتحدث مع الشاب فيليب كوسانا Philip Kgosana بطل مسيرة كيب تاون للشباب التي نظمها المؤتمر الإفريقي العام عام 1960 «في لقاء مع طلبة الجامعة ولكنه فشل في إقناعه بالانضمام إليه».[21]

سرعان ما تبين مانديلا أن تحالف المؤتمر الوطني الإفريقي مع البيض والهنود باعد المسافة بينهم وبين القومية السوداء في بقية القارة. كانت نضالية المؤتمر الإفريقي العام قد خلبت لب إفريقية، الأمر الذي لم يستطعه المؤتمر الوطني الإفريقي. ووصلت الأخبار إلى تنفيذي المؤتمر الوطني الإفريقي في جوهانسبورغ بأن مانديلا يواجه بعض المصاعب في أديس أبابا. وارتبكوا إذ تبينوا أن المؤتمر الإفريقي العام فاز بدعم خارجي أكبر مما كانوا يظنون. فكتب بيرنشتاين أن «مصداقيه المؤتمر الإفريقي العام في إفريقية لم تكن تتناسب مع أداء قادته السياسي التافه في الداخل وإنما مع خطاباتهم الراديكالية. لقد وقفوا في صف واحد مع الموضوع الإفريقي العام الذي يتعلق بوضع /الزنوج/ وحولوه إلى سلاح ضد برنامج المؤتمر الوطني الإفريقي غير العرقي».[22]

هنا أظهر مانديلا (براغماتيته) وحساسيته السياسية. وفي تقرير مهم للمؤتمر الوطني الإفريقي تحدث عن «الشعور المنتشر المعادي للاستعمار والمعارضة الشديدة لأي شيء يبدو شركة بين الأبيض والأسود». كان الاعتقاد السائد هو أن المؤتمر الوطني الإفريقي «منظمة يهيمن عليها الحزب الشيوعي»، بينما انطلق المؤتمر الإفريقي العام بمزايا هائلة بسبب أيديولوجيته، و«المعارضة التي أحسن استغلالها للبيض والشراكة». خشي مانديلا أن تكون جائزة نوبل التي منحت للوثولي «قد خلفت انطباعاً بأن لوثولي قد تم شراؤه من قبل

البيض»، وأن سيرته الذاتية / دعوا شعبي ينطلق/ ، التي ساهم في كتابتها الكاهن الأبيض الأب تشارلز هوبر Charles Hooper، وامتدحها آلان باتون Alan Paton، أيضاً جعلته يبدو (أضحوكة البيض)، وذكر مانديلا أن المؤتمر الوطني الإفريقي «قد ساعد في ترسيخ الانطباع بأن النفوذ الأبيض متنام بالتعاون مع البيض في المستوى الأعلى، ولكن ليس بين أوساط العامة». جميع هذه الأشياء جعلت المؤتمر الإفريقي العام يبدو الأمل الوحيد للشعب الإفريقي، ويجب التذكير بأن مجرد الادعاء بأنك أضحوكة ديماغوجي كافٍ لأن يجرد المؤتمر الوطني الإفريقي من مصداقيته. وأن طبيعة الاتهام الذي نوجهه للمؤتمر الإفريقي العام يجعل منهم أبطالاً بشكل أو بآخر. إذ لا يضير أي سياسي إفريقي في إفريقية أن يقال «إنه عنصري أو معاد للبيض». [23] لم يكن مانديلا يطالب بالعودة إلى المجد الإفريقي الأسود السابق، وإنما بنوع جديد من المجتمع المتعدد الأعراق لا مثيل له في إفريقية كلها. ولأول مرة كان يواجه القوة الكاملة للقومية الإفريقية والعداء للشيوعية.

حرص مانديلا في بقية جولته على الحديث عن منجزات المؤتمر الإفريقي العام وسياساته بالإضافة إلى منجزات وسياسة المؤتمر الوطني الإفريقي، كي لا يفاجأ الإفريقيون عندما يلتقون بالمؤتمر الإفريقي العام فيما بعد. حتى أن وزير الدفاع التونسي تذمر «إذا كان كل ما تقوله عن سوبوكوي حقيقياً، ماذا تفعل أنت هنا إذا؟». [24] كان مانديلا يلاقي صعوبة دائماً في تبرير الإفريقيين المعتادين على نضال مباشر وسافر ضد الإمبريالية البيضاء. واعتقد أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان بطيئاً جداً في مجابهة الدعاية المعادية للشيوعية التي يشنها المؤتمر الإفريقي العام «لقد كان شبابنا معتدلين بعض الشيء في مهاجمتهم.. إن أمامنا كثيراً من العمل قبل أن نستطيع القول إننا قد سمرناهم.. هناك كثيرون يقولون إنهم نشطاء لكنهم المنظمة الوحيدة في جنوب إفريقية التي تواكب بقية إفريقية». [25]

أكدت بقية جولة مانديلا الإفريقية شكوكه وقلقه. ففي القاهرة تذمر رسميون مصريون من أن صحيفة نيو أيدج الأسبوعية اليسارية التي تصدر في جوهانسبورغ انتقدت الرئيس عبد الناصر لمهاجمته الشيوعيين. أكد لهم مانديلا أن صحيفة النيو أيدج لا تمثل بالضرورة سياسية المؤتمر الوطني الإفريقي ووعد بأن يعالج الموضوع لدى عودته.[26] وتابع طيرانه إلى تونس حيث عرض عليه الرئيس بورقيبة التدريب و5000 جنيه استرليني ثمن أسلحة. ثم انطلق إلى المغرب، مركز حركات التحرير الإفريقية، بما فيها الموزامبيقية والأنغولية، وقبل هذا وذاك الجزائرية.

كانت الحرب الجزائرية مع فرنسة قد انتهت للتو بعد ثمانية أعوام من النزاع المتصعد وموت نصف مليون. كانت الجزائر تحذيراً مرعباً من مصير محتمل لجنوب إفريقية، بجيشها الأحمر في مواجهة مستوطنين بيض أعمق جذوراً وأفضل عتاداً. استقبل مانديلا من قبل الدكتور مصطفاي، رئيس البعثة الجزائرية في المغرب، الذي شرح له بحكمة أن المحاربين الفدائيين يحتاجون إلى قاعدة عسكرية قوية خارج البلاد، ومكاتب في الخارج لتعبئة الدعم الدبلوماسي الدولي.[27]

في وجدة قرب الحدود الجزائرية راقب مانديلا الفدائيين يقومون بعرض احتفالاً بعودة قائدهم أحمد بن بيلا، الذي أطلق من سجنه في الجزيرة وسرعان ما سيصبح أول رئيس للجزائر المستقلة. وشرح ابن بيلا، بخطاب قصير، أن حرية الجزائريين لا معنى لها طالما أن إفريقية ما زالت بين براثن الإمبريالية.[28] دهش مانديلا باحتشاد الجماهير، وكتب في مذاكرته أنها «حماسة محيرة[29]»، ومع ابن بيلا راقب جيشاً ولد في أتون المعركة الحقيقية»، أثر فيه أكثر من أي عرض عسكري في إثيوبية. وكتب من السجن بعد أربعة عشر عاماً «شعرت بالثقة وقتها، كما أشعر الآن، بأن وحداتنا، التي تعمل من أرض صديقة، بمجرد أن تطأ أقدامها ترابنا، فإنها ستزداد عدداً وستنمو قوتها الضاربة بسرعة

تضع فيروورد في مواجهة جميع المتاعب التي كانت تعذب شانغ كاي شك Chiang kai-shek، ونغوديم Ngo Diem ودوغول De Gaulle وباتيستا Batista والبريطانيين». [30] وبقي عظيم التأثر بالثوريين الجزائريين وبنصيحة القائد العسكري الجزائري هواري بو مدين (الذي سيحل محل ابن بيلا في عام 1965 عقب الانقلاب)، وقال لنفيل آلكساندر Neville Alexander فيما بعد في السجن، إنه بعد أن تحدث معه تبين عدم جدوى محاولة الإطاحة بنظام الأبارثيد: لا بد للمؤتمر الوطني الإفريقي من إجبارهم على الجلوس إلى طاولة المفاوضات – هذا النقاش كان بالنسبة للتروتسكي آلكساندر «قماشة حمراء أمام ثور». [31]

من المغرب قام مانديلا بزيارات طائرة إلى الدول السوداء الجديدة في إفريقية الغربية. وفي مالي حذره وزير الدفاع ماديبرا كيتا Madeira Keita من مغبة «عمل عاجل قد يكون وقعه كارثياً». وأضاع فرصة رؤية الرئيس السينيغالي سيكوتوري Sekou Toure، لكنه لم يجتمع بالسير ميلتون مارغاس Milton Margas رئيس وزراء سيراليون ورئيس ليبريا توبمان Tuabman. وكانت الزيارة الأكثر إحباطاً هي عودته إلى غانة، حيث اجتمع ثانية بتامبو وحاول رؤية الرئيس كوامي نيكروما آملاً أن يتمكن من مجابهة القبضة القوية للمؤتمر الإفريقي العام. وقد لقي وتامبو تشجيعاً من بعض الوزراء، إلا أن وزير الخارجية آكو آجي AkoAjei أسمعهما محاضرة حول كون المؤتمر الوطني الإفريقي منظمة قبلية، وقال إنهما لن يتمكنا من مقابلة الرئيس. أدرك مانديلا أن نيكروما لم يقل له الحقيقة حول المؤتمر الوطني الإفريقي، واضطر إلى الاكتفاء بتسليم مذكرة. حتى أن الغانيين لم يدفعوا حسابه في الفندق. لكنه حظي بوقت للاسترخاء وأمضى عدة أمسيات بصحبة هيلاري فليغ Hilary Flegg التي أدارت صندوق الدفاع في قضية الخيانة في جوهانسبورغ. [32]

من غانة استقل مانديلا الطائرة إلى لندن في زيارة لمدة عشرة أيام. كان

لديه إذن بالسفر من طانجانيكا Tanganyika، لكنه أمضى وقتاً عصيباً مع ضابط الهجرة الذي سأله عن الغرض من زيارته. قال مانديلا إنه يؤلف كتاباً عن تطور الفكر السياسي في إفريقية وأراد زيارة المتاحف والمكتبات. وسرعان ما أدرك أن معلومات الضابط كانت أكثر دقة وأنه على دراية بارتباطه بتامبو (الذي كان يقف في نسق آخر) لكنه في النهاية سمح له بالدخول.

في لندن لم يحاول مانديلا أن يرى أحداً من أعضاء حكومة ماكميلان، وقال فيما بعد: «كنت ثورياً فجاً».[33] كان هدفه الأول هو مزيد من الحديث مع تامبو الذي كتبت زوجه أديلايد لمانديلا تحذره من أن مرض الربو يزداد سوءاً على تامبو بسبب ضغط العمل. وقد منعه من الذهاب إلى الأمم المتحدة في نيويورك. كان تامبو قد عومل بجفاء من قبل وزارة الخارجية في لندن. التي كانت قلقة حيال ارتباطات المؤتمر الوطني الإفريقي بالشيوعية، وكانت الوزارة تولي مزيداً من الاهتمام للمؤتمر الإفريقي العام.[34] وفيما بعد رد المؤتمر الوطني الإفريقي بإرسال روبرت ريشا المتحمس في صوفيا تاون الذي قال سيسولو إنه «يتحدث لغة المؤتمر الإفريقي العام»[35]

استمد تامبو شجاعة كبيرة من حماسة مانديلا والتزامه التام بالنضال. تذكر أديلايد تامبو أنه «مهما كانت الحالة خطيرة فإنه كان دائماً في مستوى المسؤولية، كما لو أنه كان يعرف أن عليه إبقاء الروح المعنوية للشعب عالية».[36]

كما تابع مانديلا اتصالاته البريطانية فقد أقامت ماري بنسون حفلة عشاء لتامبو في شقتها الصغيرة في سانت جون وود St. John's wood. لكنها دهشت عندما رأته يدخل بصحبة مانديلا، مرتدياً بزة نظيفة، وراح يجوب ألواح الأرضية التي تصر لوقع خطواته جيئة وذهابا وهو يتحدث بحماسة حتى الواحدة والنصف صباحاً عن الإحساس بالحرية خلال جولته الإفريقية. فكتبت في دفتر مذكراتها «إنN رائع».[37]

ورتبت له لقاء مع دينيس هيلي Denis Healey السياسي العمالي الذي كان صديقاً لها من أيام الجيش في مصر الذي وجده مانديلا مفيداً جداً. يذكر مانديلا عنه: «حدثني أنه اشتهر في الجامعة بأنه كان ماركسياً، لذلك فهو لا يخاف أن يتحدث معي. فأنا أقبل السياسة».[38]

رتب تامبو لزيارة دافيد أستور، رئيس تحرير الأوبزرفر، الذي كان معه مايكل سكوت Michael scott وكولين ليغوم Colin Legum الخبير في الشؤون الإفريقية لدى الصحيفة. دخل مانديلا الغرفة يتحدث بصوت عال ومشرق: «أتيت لأشكركم لكل ما فعلت صحيفتكم من أجل شعبنا» برغم أنه في الحقيقة كان قلقاً بشأن الأخبار الموالية التي تنشرها الأوبزرفر عن المؤتمر الإفريقي العام.[39] وكتب مانديلا فيما بعد في مذكراته: «كانت المناقشات ودية جداً وكل يدلي بملاحظات ملهمة وتدعو إلى الاعتزاز».[40] صدم أستور بحضور مانديلا الهائل وثقته في تمثيل شعبه، ورتب له لقاء مع قائدي العمال والليبراليين هيو غيت سكيل Hugh Gaitskell وجو غريموند Joe Grimond (الذي كان واضحاً أنه لم يسمع به من قبل) نصحه آستور أن يقيم في واشنطن بدل أن يعود إلى جنوب إفريقية ويعتقل. لكن مانديلا أصر على البقاء قرب شعبه.[41]

وشرح لكولين ليغوم أنه سيوصل حملة المؤتمر الوطني الإفريقي إلى كل جبهة ممكنة، حتى رجال الكنيسة والليبراليين، ولكن الأولوية كانت للكفاح المسلح. ولم يكن يتوق إلى مناقشته مع لوثولي لدى عودته.[42]

أتيح لمانديلا في لندن بعض الوقت للفسحة والاسترخاء: فاصطحبته ماري بنسون إلى مجلس النواب وإلى ويستمينيستر آبي - حيث التقطت له بضع صور - برفقة فريدا ليفسون (التي تولت صندوق الدفاع في قضية الخيانة لبعض الوقت) وزوجها ليون، الذي تناول معه طعام الغداء في تشيلسي.[43] وقام بزيارة مفاجئة لصديقه الأورلاندي القديم تود ماتشيكيزا، مؤلف كينغ كونغ، الذي كان يعيش في المنفى في شقة صغيرة في بريمروزهيل Primrose Hill مع

زوجه إسمه Esme . وكانا يجلسان هناك منتصف الليل عندما وصل تامبو، مصطحباً مانديلا، كان مانديلا بادي الارتياح بينما ظهر تامبو متوتراً. تذكر إسمه «لن أنسى أبداً منظره تلك الليلة. شعرت فعلاً أنه ملهم روحاني، لا يمت إلى عالم المادة بصلة. وبنظره الواسع العظيم لم ير حتى السرير المجعد».

وصف كيف أن شرطة جنوب إفريقية مصممة على الإمساك به. فسألته إسمه: «لماذا تعود إذاً؟ يجب أن تبقى هنا». فأجاب: «القائد يبقى مع شعبه». [44] في وجه جميع الأخطار، كان مصمماً على تحدي العدو في الداخل، بالرغم من احتمال اعتقاله. كان يبدو مستعداً للشهادة.

في لندن بدا مانديلا سيد نفسه، كان بالغ الثقة بسلطته الشخصية، ومصمماً على دفع المؤتمر الوطني الإفريقي نحو موقع إفريقي أكثر. كان اللقاء الأكثر إيلاماً مع يوسف دادو، صديقه الشيوعي القديم الذي صار الآن يعمل في لندن. رآه مع الاقتصادي فيلا بيلاي Vella Pillay الذي أصبح صلة الوصل بين الشيوعيين داخل جنوب إفريقية وخارجها. وكان مانديلا وتامبو قد سمعا تذمراً في طول إفريقية وعرضها من أن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يبد إفريقياً عندما مثله في الخارج شيوعيون بيض أو هنود. والآن قال مانديلا لدادو وبيلاي إن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يظهر نفسه كقوة مستقلة، وأن لا يمثل في المؤتمرات الدولية، إلا من قبل إفريقيين. يذكر بيلاي: «كان الوضع صعباً جداً، ومتوتراً جداً، فقد كان مانديلا صلباً، ولم يبد عليه أنه يصغي إلينا. وقد أصبحت خطاباته في إفريقية أقرب إلى لهجة المؤتمر الإفريقي العام، لكن ربما كانت تلك مرحلة ضرورية». [45] احتج دادو بأن مانديلا كان يغير سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي، لكن مانديلا أصر على أن التغيير في الصورة فقط. «وأن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يظهر إفريقياً حقيقياً. لقد ضاع بين منظمات ضبابية تمثل الجميع». [46]

عاد مانديلا إلى إثيوبية في حزيران (يونيو) في مهمة أكثر تنظيماً وهي

البدء بدورة تدريب عسكري مدتها ستة أشهر لتحضيره ليكون قائداً لسهم الأمة /إم. كي/ .

وعلى تل خارج أديس أبابا أمسك لأول مرة في حياته ببندقية أوتوماتيكية ومسدس. وفي 29 حزيران (يونيو) سجل في مذكراته: «الدرس الأول في التدمير / القنابل المدمرة».[47] أطلق مدفعية الهاون، وصنع قنابل، وذهب في مسيرات متعبة عبر غابات، وتعلم قتال العصابات مستمتعاً بالتحدي الجسمي والانضباط العسكري. وباسترجاع ذكرى تلك الأيام تبدو محاولة التحول المفاجئ إلى قائد حرب عصابات (رومانتيكية) ولا علاقة لها بالواقع في مواجهة جيش جنوب إفريقية الحديث الجيد التنظيم. ولكنه كان منسجماً مع الجو الثوري المندفع الذي ساد إفريقية أوائل عقد الستين.

في جنوب إفريقية أصبحت الحكومة أكثر تصميماً على قمع المعارضة السوداء، وتتبع مانديلا. تذمرت ويني من أن الشرطة، فتشت أو زارت بيتها، كل يوم تقريباً خلال الأسابيع الثلاثة من شهر حزيران (يونيو)، تسأل أين مانديلا.[48] وفي تموز (يوليو) أقر البرلمان مشروع قانون التخريب، الذي سمح للمحاكم بإنزال عقوبة الإعدام بالمخربين لأعمال تخريب صغيرة. كانت الشرطة تزداد كفاءة، ولم تعد تضيع وقتاً طويلاً في غارات المشروب أو الأذونات. وقد قال لي سيسولو أوائل تموز (يوليو) «إن الناس يواجهون ترسانة عسكرية محكمة. ويجب أن يحضروا أنفسهم للدفاع عن النفس. والحديث عن اللاعنف لم يعد يليق بهذا الزمن» كان المؤتمر الإفريقي العام يعد بثورة مبكرة، مع حملة رئيسة في العام التالي، وقال لي نائب رئيسهم زيف موثوبينع Zeph Mothopeng في سويتو: «لقد قلنا للناس أن يتوقعوا التحرك عام 1960، ووفينا بوعدنا، والآن نقول أن يتوقعوه في 1963».[49] كانت القيادة العليا لـ إم. كي تتحرق شوقاً أيضاً إلى عمل أكثر جرأة، ومن مخبئهم في ريفونيه كانوا يدفعون خططاً أكثر طموحاً. كانوا بحاجة ماسة إلى عودة مانديلا إلى جنوب إفريقية،

ومنتصف تموز (يوليو) تسلم برقية تطلب منه العودة فوراً لتولي القيادة.

غادر مانديلا إثيوبية يحمل هدية هي مسدس حديث ومائتي طلقة، وعاد بالطائرة عن طريق الخرطوم ودار السلام، وقد امتلأ حماسة إذ وجد عشرين مجنداً في سهم الأمة إم. كي على الطريق من جنوب إفريقية إلى إثيوبية. للتدريب.[50] وعندما وصل إلى بيتشوانا لاند حذره القاضي البريطاني من أن الشرطة الجنوب إفريقية تعرف بعودته الوشيكة. وكان كاثرادا وسيسولو هناك قبل أسبوعين لاتخاذ الترتيبات، واستقبله سيسيل ويليامز Cecil Williams، وهو شيوعي أبيض مدير مسرح أتى بسيارته الأوستين ديستمينيستر الجديدة من جوهانسبورغ ليصطحبه.[51] وانطلقا ليلاً عبر الحدود المفتوحة، ومانديلا مازال في لباسه (الكاكي) الذي كان يلبسه في أثناء التدريب في إثيوبية. ووصلا مزرعة ليليسليف في ريفونيه فجر 24 تموز (يوليو)، حيث أقام مانديلا في البيت المسقوف بالقش.

في اليوم التالي أتت ويني والأولاد لرؤيته في اجتماع أسروي وجيز. وغادرت تتنازعها هواجس الشر، في ذلك المساء وصلت معظم اللجنة العاملة في المؤتمر الوطني الإفريقي إلى ليليسليف، وبينهم سيسولو وكوتان ومبيكي وماركس ونوكوي ودان ثلوم، وهو ناشط آخر في المؤتمر الوطني الإفريقي، لمناقشة حاسمة حول (الاستراتيجية). وتحدث مانديلا عن الدعم المالي والعسكري الذي قدمه له القادة الإفريقيون، ووصف مخاوفهم حيال ارتباطات المؤتمر الوطني الإفريقي بالهنود والبيض. ونادى بإعادة تنظيم تحالف الكونغرس بشكل يعطي المؤتمر الوطني الإفريقي قيادة أوضح، كما اتفق هو وتامبو في لندن. وافق سيسولو على أن (تكتيكهم) يجب أن يعدل، لكنه حذر: «يجب ألا ننسى حساسية الجماعات الأقلية الأخرى». فأجاب نوكوي متحمساً: «نحن أسرى خطايانا. لقد سمحنا لأنفسنا بالانجراف. أعتقد أن التعاون قد مضى شوطاً أطول من اللازم». قال مانديلا: «إن ما ينقصنا هو

المبادرة. يجب أن نغير مواقفنا ونجهد أنفسنا. يجب أن يفهم أصدقاؤنا أن المؤتمر الوطني الإفريقي هو ربان النضال». [52]

أراد مانديلا الذهاب فوراً إلى ناتال ليحدث لوثولي بالمشكلة، خاصة وأن المؤتمر الإفريقي العام كان ينشر شائعات بأن مانديلا قد أصبح من أنصار إفريقية، وأنه انضم إلى المؤتمر الإفريقي العام. اقترح كاثرادا ومبيكي وسواهما تأجيل الزيارة إلى أن يتأكدوا أن الدرب آمن، لكن الاقتراح رفض. [53] وهكذا في الليلة التالية غادر مانديلا ليليسليف إلى دوربان مع سيسيل ويليامز، متنكراً بزي سائق ويليامز وكانا ـ باستهتار ـ يستخدمان السيارة الجديدة الرائعة نفسها التي لاقاه ويليامز بها في بيتشوانا لاند، وكان مانديلا يحمل مسدسه.

في دوربان رأى إسماعيل وفاطمة مير، والتقى مونتي نيكر من الكونغرس الهندي. وحاول إقناعهم بأن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يتحرك إلى المقدمة، وذكر لفاطمة كيف أن أحد القادة الإفريقيين، عندما سمع أن ميثاق الحرية كتبه أناس بيض، مزقه من على الجدار. [54] لكن الهنود لم يقتنعوا. بعد ذلك قاد السيارة إلى غروتفيل ليطرح القضية أمام لوثولي. اعترض رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي على إضعاف الجبهة غير العرقية للمنظمة بناء على طلب قادة أجانب. قال مانديلا إن الوضع خطير. وإن عليهم أن يتأكدوا من أن الدول السوداء لم تحول دعمها للمؤتمر الإفريقي العام. لكن لوثولي أراد أن يناقش الأمر باستفاضة أكثر مع الأصدقاء. [55]

عند ذلك رتب مانديلا لمقابلة مخربي سهم الأمة (إم. كي) من القيادة الإقليمية في منزل آمن في دوربان. بدا مؤثراً في أسلوبه العسكري الجديد، بلحية وقميص وبنطال (كاكيين)، وحياهم بالطريقة العربية «سلام» اعتقد روني كاسريلز، وهو أحد المخربين بأنه قائد بكل معنى الكلمة لكنه متوتر جداً ومتجهّم: لم يبتسم أبداً. [56] بينما تأثر بيلي نير، وهو من المجموعة أيضاً كثيراً بسلطة مانديلا على المسائل العسكرية: «كان مبهجاً ذا خبرة رائعة». [57] وحتى

برونو متولو، الذي سيخون مانديلا فيما بعد كشاهد رسمي، تأثر: «لم يكن بحاجة إلى التباهي ليثبت أنه قائد. كان ذلك واضحاً للجميع. كان صادقاً في كل ما يجب عمله، وطلب أن ينفذ بطريقة بسيطة». [58] في وقت متأخر من المساء انضم مانديلا، بلا تبصر، إلى جماعة كبيرة في بيت جي. آر. نايدو G. R. Naidoo المصور الصحفي المضياف من صحيفة درام، وكان في الجمع كثير من الضيوف غير المألوفين. لم يبد الاكتراث على مانديلا، الذي كان يرتدي (الكاكي)، لكن أصدقاءه شعروا بالقلق . كان يبدو كأنه يطلب أن يعتقل.

بعد ظهر اليوم التالي، الأحد 5 آب (أغسطس) انطلق مانديلا برداء السائق الأبيض عائداً إلى جوهانسبورغ مع سيسيل ويليامز، وكانا يناقشان التخريب على الطريق. وبمجرد عبورهم هوويك Howick وراء بيتر ماريتزبورغ Pieter maritzburg، أدركتهما سيارة شرطة، مع سيارتين أخريين خلفها، وأشارت إليهما بالتوقف. سارع مانديلا إلى إخفاء مسدسه ودفتر ملاحظاته بين المقعدين الأماميين. واستجوبه سيرجنت في الشرطة كان يعرف تماماً محدثه. فكر مانديلا لحظة بالقفز وراء السد ومحاولة الهرب، ولكنه لم يكن يعرف المنطقة. اقتادته الشرطة هو وويليامز إلى بيتر ماريتزبورغ وسجناهما كل في زنزانه منفصلة. [59] عرف مانديلا أن هذا آخر عهده بالعمل السري، بعد سبعة عشر شهراً فقط من خطابه الأوجي في البلدة نفسها (بعد ثلاثين سنة عاد، كرئيس، ليتلقى / حرية هوويك/ ، وقال إن زيارة الموضع الذي اعتقل فيه جعلته يشعر بالشوق للحصول على / الحرية/). [60]

من الذي أدلى بالمعلومات للشرطة؟ السؤال ما زال مطروحاً. فالشرطة، بعد تعتيم يومين على خبر القبض على مانديلا نشرت معلومات مضللة عن الضربة الموفقة. وفي 8 آب (أغسطس) وصفت الراند ديلي ميل كيف أطبقت دورية على منزل كان مانديلا يختبئ فيه. وبعد أربعة أيام كتبت الجوهانسبورغ صنداي تايمز: «وقع مانديلا ضحية الخيانة. وأصابع الاتهام تشير إلى الحمر».

ونشرت الصحيفة «رواية مشوقة تزخر بالتآمر والخيانة».[61] استشم جو سلوفو «رائحة يهوذا بين صفوفنا لم نتمكن من تحديد هويته»، لكن كان هناك أيضاً متهمون أجانب.[62]

وبعد أربع وعشرين سنة نشرت النيويورك تايمز خبراً مفاده أن عميلاً متقاعداً تفاخر بأن السي آي إيه زودت مخابرات جنوب إفريقية بالتفاصيل الكاملة لتحركات مانديلا.[63] وهذا قابل للتصديق: فالأمريكيون بحاجة إلى تعاون بريتورية العسكري، كما هم بحاجة إلى اليورانيوم الموجود في جنوب إفريقية، ويمكنهم أن يقدموا معلومات موثوقة بالمقابل. لكن الادعاء لا يمكن إثباته. ربما أن الجنوب إفريقيين تتبعوا مانديلا من خلال موظفين أفارقة في شرطة بيتشوانا لاند. وربما رأوا سيارة سيسيل ويليامز الرائعة عندما التقطته في بيتشوانا لاند، وعندما ذهبت إلى ريفونيه ودوربان.[64] بغض النظر عمن أدلى بالمعلومات فإن مانديلا لم يتوخ الحذر في دوربان، وقد ترك وراءه آثاراً كثيرة تدل عليه. ولم يظهر مانديلا أي اهتمام بمعرفة المجرم فيما بعد: «لم أر أي دليل موثوق يشير إلى الحقيقة».[65]

بعد فترة بسيطة من الإنكار واجه مانديلا ورطته ببسالة. فقد اقتيد إلى جوهانسبورغ واحتجز في مخفر للشرطة. كان سيسولو في زنزانة أخرى، وحدثه عن اعتقاله. في اليوم التالي مثل أمام محكمة القضاة، حيث شجعه أن يلاحظ الاستياء البادي على القاضي والمحامين. قال وولف كوديش، الذي كان حاضراً يراقب: «حدّق مانديلا في القاضي الذي كان مثبتاً مثل نمس ينظر إلى ثعبان. ولم يتمكن القاضي من استعادة قوته قبل مرور دقيقتين».[66]

كانت لحظة حقيقة بالنسبة لمانديلا، الذي شعر أنه يكتسب قوة معنوية جديدة «كنت رمز العدالة في محكمة الطاغية، ممثل المثل العليا في الحرية والقانون والديمقراطية في مجتمع يهين تلك القيم».[67] ولاستغلال سلطته لأقصى حد ممكن قرر الدفاع عن نفسه، معتمداً على جو سلوفو كمستشار

قانوني. وقد اتهم رسمياً بالتحريض على الإضراب وبمغادرة البلاد بلا جواز سفر، وأراحه أنه لم يتهم بالتخريب. وأجلت جلسة الاستماع إلى تشرين الأول (أوكتوبر) بانتظار المحاكمة في الحصن / Fort/ ، حافظ مانديلا على تفاؤل باد وطلب من رجل الدين آرثر بلا كسال Arthur Blaxall، الذي زاره ثلاث مرات، أن يحضر له بعض كتب القواعد الأفريقانية، وكان يبدي تقديراً لبلاكسال إذ يختتم زياراته بصلاة.[68]

وعندما سمع أن صديقته الإنكليزية القديمة هيلين جوزيف قد وضعت تحت الإقامة الجبرية في منزلها ـ وهي الشخص الأول الذي واجه هذه المحنة المربكة ـ كتب إليها يشجب «النظام القاسي الجبان»، لكنه كان واثقاً بأن شجاعتها لن تخونها، بما أن «جميع الدلائل تشير حتماً إلى قرب هزيمة جميع الأنظمة التي تعتمد على القوة والعنف».[69]

بانتظار المحاكمة سمح لمانديلا بكتابة رسائل وقراءة كتب، وكان قد بدأ برنامجاً تعليمياً سيتابعه ويوقفه على مدى العقود الثلاثة التالية. وبمساعدة كتب زوده بها دافيد آستور بدأ يدرس بالمراسلة للحصول على شهادة / بكالوريوس في الحقوق/ LLB من جامعة لندن، التي ستمكنه من ممارسة المهنة كمحام في المحاكم العليا. كما تمكن آستور من إرسال كتب سياسية إليه بواسطة السفير البريطاني سير جون مود، وأكد لمفوض السجون فيكتور فيرستر Victor Verster أن الكتب ليست مؤيدة للشيوعية: «وستملأ عقل مانديلا ببديل غربي». وكان بين الكتب الستة الأولى تاريخ إفريقية الوجيز a short Histiry of Africa تأليف رولاند أوليفر Roland Oliver وجي. دي. فيدج J. D. Fage، وكتاب تاريخ أوروبا History of Europe، وكتاب التركيب البنيوي لبريطانية anatomy of Britain تأليف أنطوني سامبسون Antaony Sampson. كتب مانديلا كتابة ودودة جداً للسير جون مود (GCB.CBE) وكان ذلك أول اتصال له مع دبلوماسي بريطاني، شاكراً الصديق المجهول للهدية القيمة.[70]

وفيما بعد كتب اللورد دانروسيل Dunrossil زميل مود، الذي كان دائماً محترساً من المؤتمر الوطني الإفريقي، إلى وزارة الخارجية البريطانية قائلاً: «في المدى البعيد ربما نحصل على بعض النية الطيبة من مانديلا لأننا ساعدناه». [71]

لم يكن اعتقال مانديلا مفاجأة للمؤتمر الوطني الإفريقي حتى انه هو نفسه كان يتوقع ذلك منذ عودته من الخارج. لكن السرعة التي تم بها الاعتقال كان لها فعل الصدمة. وقد كتبت ويني لصديقتها أديلايد تامبو في لندن في أيلول (سبتمبر): «كانت هذه ضربة قاصمة توقيتها خاطئ. كنا نعرف أن هذه الضربة قادمة ولكنها أتت مبكرة قليلاً».

وقد استمدت ويني الشجاعة من الدعم الذي لقيه مانديلا في لندن «كل يوم نبحث بشوق في صحفنا لنرى ما الذي ستفعله بعد ذلك». وأدركت أن نيلسون سيمضي بعض السنوات في السجن، وقد حثها برام فيشر وآخرون على مغادرة البلاد للدراسة في الخارج، الأمر الذي كانت تقاومه. [72] كان القلق يساور بعض أصدقاء ويني حيال بعض صداقاتها غير الحميدة، وأرادوا إبعادها عن الطريق. [73]

وفي الوقت الذي كان مانديلا في / الحصن/ وزع المؤتمر الوطني الإفريقي الذي يعمل في الخفاء منشورات تقول: «مانديلا في السجن، والشعب مربط بالسلاسل». وتنادي باجتماع جماهيري قبل أن يقدم للمحاكمة. أظهرت المنشوارت مانديلا بصورته الجديدة كخارج على القانون لا يعرف المساومة، والمحارب المتفرد الذي يرمز إلى وحدة الشعب: «نيلسون روليهلاهلا مانديلا هو القائد المقاتل السري للنضال من أجل الحرية. إنه يشق طريق الحرية بالتضحية والإقدام والشجاعة. أساليب النضال السياسي الجديدة». [74] وحيته صحيفة إفريكان كوميونيست / الشيوعي الإفريقي/ في تشرين الأول (أكتوبر) 1962 قائلة:

ظهر في جنوب إفريقية قائد من نوع جديد القائد الذي رفض الاستسلام بخنوع لإرهاب فيروورد، أو الخضوع للاعتقال أو الهرب من البلاد، واختار حياة الخارج على القانون، عاش النضال. وطورد وعمل في الخفاء وبرغم ذلك بقي مع شعبه. إن بروز مانديلا في موقع الصدارة في جنوب إفريقية كان عن طريق الكفاح الموحد للشعب ووحدة جميع الإفريقيين، ووحدة جميع الجماعات الوطنية، ووحدة الشيوعيين وغير الشيوعيين في القتال من أجل الحرية. لقد عاش حياته في ذلك الجو[75]

ابتكر جو سلوفو وزملاء آخرون خطتين مختلفين لإخراج مانديلا من /الحصن/ : الأولى تقضي بالهرب من قاعة المحكمة بمفتاح منسوخ، متنكراً بشعر مستعار ولحية كاذبة، الخطة الثانية قضت رشوة الكولونيل المسؤول في السجن، الذي عرض السماح له بالهروب مقابل 6.000 جنيه. ولكن عندما حان وقت مثول مانديلا أمام المحكمة نقلت المحاكمة إلى بريتورية، مما أبطل الخطتين.[76]

وفي سجن بريتورية التقى مانديلا ثانية وبشكل خاطف بسيسولو الذي حكم عليه بست سنوات في السجن لتحريضه على إضراب. وبدعم من مانديلا طلب الإفراج عنه بكفالة فيما هو ينتظر الاستئناف، ثم زاد الكفالة فجأة زيادة كبيرة كي يتابع التخطيط للتخريب. أما مانديلا نفسه فلم يطلب الكفالة: كانت سياسته أن يجسد التحدي.

كان الآن يلعب دوراً أكثر توهجاً، جاعلاً من محكمة القضاء الأعلى مسرحاً له. وأتى إلى افتتاح محاكمته يوم 22 تشرين الاول (أكتوبر) 1962 يرتدي (كاروس كزوسي) من جلد النمر، «أحمل على ظهري تاريخ وثقافة وتراث شعبي». بدأ بقمة التحدي قائلاً إنه سيقوم بالدفاع عن نفسه، وطلب إزاحة القاضي بسبب استحالة المحاكمة العادلة: كان يواجه قاضياً أبيض محاطاً بمدع عام أبيض، وأتباع من البيض بيض.[77] لم يحاول مناقشة الدليل الذي قدمه

حوالي مئة من الشهود الذين شهدوا على تحريضه وعلى مغادرته البلاد بلا جواز سفر.

وقد لاحظ اللورد دانروسيل الذي كان يشهد المحاكمة لصالح السفارة البريطانية، أن مانديلا كان «خارج ممارسة مهنة المحاماة بشكل لا لبس فيه». وأحياناً كان يحتاج مساعدة المدعي العام في استجوابه.[78] ولكن عندما شهد سكرتير فيروورد السيد بارنارد Mr. Barnard عن رسالة مانديلا إلى رئيس الوزراء قبل ثمانية عشر شهراً يطالب فيها بميثاق وطني، استجوبه مانديلا بحماسة، قائلاً: «إن من غير اللائق ألا يجيب فيروورد عن رسالة تطرح مواضيع بتلك الأهمية». قال بارنارد: «إن رسالة مانديلا كانت عدائية وفظة، ولم تكن صياغتها تطلب تعاون فيروورد الودي». أنكر مانديلا ذلك، ولكن بعد أربعة عشر عاماً في السجن كتب: «ربما كان في ادعائه بعض الحق».

وعندما انتهى مانديلا من نقاشه، اقترب منه المدعي العام السيد بوش وقال له على انفراد «لأول مرة في حياتي العملية أكره ما أنا فاعل. ويؤلمني أن علي أن أطلب من المحكمة إيداعك السجن».

شد مانديلا على يده، وأكد له أنه سيتذكر كلماته دائماً. ولكنه كان يخفي مفاجأة! فقد قال للقاضي إنه سيطلب العدد نفسه من الشهود الذي يطلبه الادعاء، لكنه في الحقيقة لم يحضر أي شاهد لمعرفته بأنه مذنب في القضية المنسوبة إليه. وبدل الشهود حضر طلباً فصيحاً لتخفيف الحكم. كان في الحقيقة خطاباً سياسياً دام ساعة كاملة.

ذلك الصباح كانت قاعة المحكمة مطوقة بالشرطة، ومحشوة بالإفريقيين وبينهم ويني ترتدي ثوباً قبلياً على طراز بوندو Pondo. دخل مانديلا القاعة رافعاً قبضته. وهو يصيح /أماندلا!/ فقوبلت صيحته برد عالٍ /نغاويثو!/ كان خطابه تبريراً شخصياً لتحديه القانون، مبتدئاً بتطوره السياسي الخاص. بدأ بوصف الحياة البيتية الهادئة في مجتمع القبيلة التي سمع عنها كثيراً عندما كان

طفلاً، حياة «ليس فيها طبقات، ولا غني ولا فقير ولا استغلال للإنسان من قبل الإنسان». «وخلص إلى أن ذلك المجتمع كان فيه كثير من البدائية وعدم الأمان». لكنه قال عنه: «كان يضم بذور الديمقراطية الثورية التي لا تسمح باستبعاد أحد أو استغلاله». كانت النسخة الأولى من الخطاب تتضمن: «أنا ورفاقي نقاتل من أجل مجتمع كهذا في بلادنا». إلا أنه عدلها إلى عبارة أكثر حذراً «هذا هو التاريخ الذي ما زال حتى اليوم يلهمني ورفاقي في نضالنا السياسي». ثم ناقش النزاع بين الضمير والقانون، مستشهداً بالفيلسوف البريطاني برتراند راسل Bertrand Russel الذي حكم عليه بالسجن لاحتجاجه ضد الأسلحة النووية، وأعاد إلى الأذهان كيف كانت التظاهرات السلمية في جنوب إفريقية تقابل بالعنف من جانب الحكومة. وختم حديثه بلهجة لا تنازل فيها «الأجيال القادمة ستقول إني كنت بريئاً وإن المجرمين الذين يجب أن يقفوا أمام هذه المحكمة هم أعضاء الحكومة». (79)

كان بياناً سياسياً متحدياً، ومنذ ذلك الحين يستشهد به المؤرخون، لكنه في ذلك الوقت خضع لرقابة الصحف في جنوب إفريقية. وقد حذر وزير العدل جون فورستر John Vorster أن الخطابات من قبل أشخاص ممنوعين أمام المحكمة يجب ألا تسمح لهم «بخلق منبر». وبالتالي فقد حذفت الجوهانسبورغ ستار عبارات مانديلا الأكثر جرأة.

يوم 7 تشرين الثاني (نوفمبر) 1962 أدلى القاضي بحكمه: السجن ثلاث سنوات للتحريض، إضافة إلى سنتين لمغادرة البلاد بلا جواز سفر. ونوه مانديلا بأن ما مجموعه خمس سنوات كان أقسى عقوبة فرضت حتى تاريخه في جنوب إفريقية، من أجل مخالفة سياسية. لكنها لم تكن غير مسبوقة في إفريقية. فقبل ثمانية أعوام حكم على القائد الكيني جومو كينياتا Jomo Kenyatta بالسجن سبعة أعوام (من قبل قاضٍ تلقى رشوة من الحاكم السير إيفلين بارينغ Sir Evelyn Baring) وهو الآن على وشك أن يصبح رئيساً لوزراء كينيا

المستقلة.[80] وجد مانديلا بعض العزاء من ملاحظة أن الحكم صدر بحقه في ذكرى ولادة أول دولة اشتراكية في روسيا، دعمت حركات التحرر في كافة أرجاء العالم، وأن محاكمته تزامنت مع الأزمة حول كوبا، عندما واجه كاسترو كينيدي بالصواريخ السوفياتية. وقبل هذا وذاك شجعه أن الجمعية العمومية للأمم المتحدة صوتت، قبل إصدار الحكم عليه مباشرة، على فرض العقوبات على جنوب إفريقية لأول مرة.[81]

إلا أن الحكومات الغربية بقيت غامضة تماماً في مواقفها تجاه مانديلا والمعارضة السوداء، وتقدم السجلات المحفوظة في لندن وواشنطن حالة تستحق الدرس لمحدودية الدبلوماسيين في مواجهة حكومة أجنبية خطيرة لكنها قيمة. وبعد أن تركت جنوب إفريقية الكومنويلث، والبريطانيون يخشون دعم الجواد الخاسر ـ الأبيض أكثر منه الأسود ـ وفي حزيران (يونيو) 1962 عندما كان مانديلا مطارداً زار السفير السير جون مود لندن لإجراء محادثات مع مسؤولي وزارة الخارجية. وكان هو يعتبر فيروورد /كريهاً بود/ ، لكنه كان يعتقد أن فيروورد كان يرى بريطانية الصديق الثابت الوحيد لجنوب إفريقية، وكان من أنصار / اللعب على حبلين/ باتخاذ موقف «مؤيد وودي» تجاه بريتورية لحماية المصالح البريطانية، في الوقت الذي يدرك أن استمرار قوة الحكومة الوطنية لم يكن في مصلحة بريطانية. ولم يكن لسياسة التغطية التي يطبقها مود (بإجراء اتصالات سرية مع السياسيين السود) كبير أثر. فقد لاحظ المسؤولون في لندن أن أياً من غير البيض لم يدع إلى الحفلة التي أقامتها السفارة بمناسبة عيد ميلاد الملكة، في العام السابق. وفسر مود الأمر، تفسيراً غير قابل للتصديق، قائلاً: «لم يكن هناك كثير من غير الأوروبيين المناسبين في منطقة كيب تاون». ووعد بأن يكون لحفلة العام التالي «نكهة أكثر تعددية عرقية»، وقام ببداية مترددة باستقباله مجموعة مختلطة من الفتيات المرشدات ـ الكشافة ـ.[82]

وكانت حكومة جنوب إفريقية تراقب عن كثب. وعندما أقام مود فعلاً

حفلاً متعدد الأعراق في حزيران (يونيو) 1963 تلقى توبيخاً شديداً لمدة نصف ساعة من قبل الدكتور فيروورد في مقابلته الوداعية.[83]

ادعى مود بأن الدبلوماسيين الامريكيين أكثر حذراً من البريطانيين في مجال تطوير اتصالاتهم بالسود، ولكن الحقيقة هي أنهم كانوا أكثر مخاطرة لبعض الوقت، كما كانوا في أجزاء أخرى من العالم.[84]

في كانون الثاني (يناير) 1959 قال السكرتير الأول الأمريكي في كيب تاون للبريطانيين إنه يستقبل كثيراً من السود في منزله، وإن مكتب المعلومات الأمريكي في جوهانسبورغ فيه غرفة مطالعة فريدة متعددة الأعراق (ولم يذكر ارتباطها، عبر آلة تصوير المستندات بالـ PAC)، كانت الإدارة الأمريكية أيام كينيدي أكثر قلقاً حيال أخطار الأبارثيد، وكانت تفكر جدياً بفرض عقوبات، مما أثار فزع البريطانيين. وكانت وزارة الخارجية الأمريكية تحث على مزيد من الاتصالات بالإفريقيين في حال كانت الثورة السوداء قادمة.[85] وبحلول عام 1963 كانت سفارة الولايات المتحدة تعلن بصخب عن حفلة متعددة الأعراق بمناسبة عيد الاستقلال يوم 4 تموز (يوليو). قالت السفارة البريطانية في واشنطن إن ذلك كان بهدف إرضاء مشاكلهم العرقية المحلية الخاصة.[86]

كان السفير الأمريكي جوزيف ساترثويت Joseph satherthwaite ـ الذي كان مسؤولاً سابقاً عن السياسية الإفريقية في واشنطن ـ يتابع من كثب علاقة مانديلا بالشيوعيين. وفي كانون الأول (ديسمبر) 1962 حدث وزارة الخارجية الأمريكية عن زيارة مانديلا لدوربان قبل اعتقاله مباشرة. عندما ابتعد بالمؤتمر الوطني الإفريقي عن حلفائه البيض والهنود. قال ساتر ثويت، دون أن يقدم أي دليل على ادعائه: «إن جميع الأعضاء العاديين في المؤتمر الوطني الإفريقي لم يعرفوا أن هذا (التكتيك) الجديد قد أملته منظمة الشعب الملون في جنوب

إفريقية (SACP) واعتقدوا أن مانديلا يبتعد عن هيمنة الشيوعيين البيض على ائتلاف الكونغرس». [87] والحقيقة هي أن سفارته لم يكن لديها ارتباط مباشر مع مانديلا.

كان البريطانيون دائماً أكثر حرصاً على عدم إزعاج بريتورية، لكن في تشرين الثاني (نوفمبر) 1962، بعد الحكم على مانديلا، قاموا بمخاطرة محسوبة. كما أبلغت السفارة لندن بالسماح لدبلوماسي مستثمر صغير هو ماركوس أدواردز Marcus Edwards (هو قاض الآن) بالاجتماع بالسياسيين السود الشباب. وذلك لتناول الشراب مع بعض صحفيي المؤتمر الإفريقي العام، وبينهم دافيد سيبكو David sibeko، وهو قائد مستقبلي سيقتل، فأكدوا له أنهم ليسوا «عصبة من المؤخرات السوداء « وقالوا إن المؤتمر الإفريقي العام سيقفز قريباً إلى العمل. بعد أسبوع تحدث إدواردز عن لقائه مزيداً من أعضاء المؤتمر الإفريقي العام، الذين كانوا مشاكسين، يضحكون ويصيحون، لكنهم أظهروا «جديتهم وتطرفهم». وقال إنهم جميعاً بحاجة إلى « رجل واحد، صوت واحد، وحزب واحد». [88]

وقد قام دبلوماسي بريطاني آخر، مغفل الاسم باتصالات سرية مع المؤتمر الوطني الإفريقي بواسطة جو ماتثيوز في باسوتو لاند. أوضح ماثيوز أن التزام مانديلا بالعنف قد رفع مكانته خارج جنوب إفريقية و(أشار إلى شعار مانديلا في عروته) قائلاً: «إن اعتقال مانديلا زود المؤتمر الوطني الإفريقي بشهيد». وقال: «إنه هو ورفاقه في المؤتمر الوطني الإفريقي لم يشعروا بالتعاطف مع / الإفريقية الشاملة/ واحتقروا الوزراء ذوي التعليم السيِّئ والأصوات الحادة في جنوب إفريقية». أما الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي فقد قال ماثيوز (برغم أنه من الأعضاء البارزين): «إنه فشل في أن يصبح حركة جماهيرية لأن السود اعتبروه جسماً غريباً، ولم يستطيعوا تقبله عاطفياً». خلص

الدبلوماسي إلى أنه يصعب تصديق أن مائيوز كان «رجل موسكو الثابت على المبدأ».[89]

استساغت وزارة الخارجية في لندن هذه المقبلات من الأخبار السارة فطلبت بإصرار المزيد من المعلومات حول المعارضة السوداء.[90] لكن السفارة رفضت القيام بمزيد من / المخاطرات المحسوبة/ التي شعرت أنها ستشجع / السود الطائشين/ على التفاخر بارتباطهم بالبريطانيين. وقد كتبت الدبلوماسية هيلاري يونغ Hilary Young: «من المتوقع أن تعترض حكومة جنوب إفريقية بعنف، إذا وجدت أن أعضاء من طاقم العاملين لدى السفير يجرون اتصالات بمنظمات محظورة مثل المؤتمر الإفريقي العام والمؤتمر الوطني الإفريقي خاصة وأن الهدف المعلن لتلك المنظمات هو الإطاحة بالحكومة الحالية». وخلصت يونغ إلى أن «هناك نزاعاً أساسياً بين هدفنا في المدى القصير بالحفاظ على علاقات ود وصداقة مع الحكومة الحالية وهدفنا في المدى البعيد تطوير علاقات صداقة مع هؤلاء الناس الذين قد يخلفونهم».[91] والواقع أن المدى البعيد أهمل، ولم تقم الحكومة البريطانية بأي اتصال مع القادة السود الكبار قبل أن يودعوا السجن. وقد قال لي مانديلا بعد أن أصبح رئيساً: «لا أذكر أني ذهبت إلى السفارة البريطانية أو الأمريكية. ولا أذكر أنهم كانوا يعرفون بوجودي».[92]

انتهت مهنة مانديلا الوجيزة كقائد حرب عصابات ورجل دولة إفريقي بالسرعة التي بدأت بها، دون أن يتلقى أية تعزيزات عسكرية واضحة أو أي دعم دبلوماسي من الغرب. وسينتقد فيما بعد لعدم براعته، وتصرفاته المسرحية، وعجزه عن تنظيم قوة عسكرية جدية. وسيقبل بعضاً من هذا النقد. لكن الطريقة الوحيدة لتقديم تهديد خطير لجنوب إفريقية البيضاء كان ممكناً من خلال حملة إرهاب مدنية، كما في الجزائر، تتسبب في غارات مرعبة وخسارة في الأرواح،

الأمر الذي لم يكن هو ولا سهم الأمة (إم. كي) ليقبلا التفكير فيه. ولم يتصور أبداً أن الكفاح المسلح بحد ذاته، دون عقوبات أو ضغوط أخرى، قد أجبر جنوب إفريقية البيضاء على تغيير سياساتها، لكن تقديمه نفسه بلبوس القائد العسكري ثم المضحى به كان بحد ذاته رسالة سياسية واضحة، رسخته كالقائد المبذول الذي تحدى النظام، ولوحق وعمل في الخفاء ولكن بين ظهراني شعبه».

14

الجريمة والعقاب

1963 ـ 1964

توراى مانديلا عن عيون العامة في السجن مخلفاً صوراً حية وراءه: كزبرة الثعلب السوداء التي ضللت الشرطة، والقائد العسكري الذي ناصر نضال الشعب، والقائد القبلي بلباسه الكامل ينادي بهويته الإفريقية. لم يكن بحاجة إلى التلفزيون ـ الذي لم تسمح الحكومة بدخوله إلى جنوب إفريقية قبل عام 1976 ـ ليستحوذ على خيال الشعب. ومن السجن يستطيع أن يصبح كما وصف نهرو غاندي: «تعبيراً رمزياً عن رغبات الشعب المختلطة»،[1] فقد اعتمدت قيادته على النمط الشخصي أكثر مما اعتمدت على التنظيم. لم يكن له مركز رسمي في المؤتمر الوطني الإفريقي، فقد كان الكفاح المسلح الذي ترأسه في مرحلة الطفولة، عندما أصبح هو معزولاً عن الجميع. لكنه توقع أن يعود إلى الظهور بعد خمس سنوات على الأكثر. ولم تكن لديه أية فكرة بأنه سيبقى في السجن ما يربو على ربع قرن.

بدأ مانديلا تنفيذ الحكم الذي صدر بحقه في سجن بريتورية، الذي كان يعرفه جيداً، لكن أوضاعه صارت أقسى الآن، لم يعد يسمح له بقراءة الكتب، ولم يسمح له إلا بعدد قليل جداً من الزوار. وثارت كرامته إذ أجبر على ارتداء بنطال قصير، وعندما احتج كان الخيار البديل الذي منحه هو السجن الانفرادي. الذي عانى منه بضعة أسابيع مزقته خلالها الصراعات النفسية بسبب وحدة الاتهامات المضادة، إلى أن قرر أنه يفضل الرفقة على البنطال، وسمح له بالانضمام إلى السجناء السياسيين أثناء النهار.[2]

وكان بينهم منافسه القديم في المؤتمر الإفريقي العام روبرت سوبوكوي، الذي أودع السجن منذ شاربفيل، والذي وجد نفسه في الظل بعد أن خطفت صورة مانديلا البطولية الأضواء. كانا أحياناً يجلسان متجاورين يخيطان حقائب البريد القذرة المليئة بالحشرات. كانا يتعايشان بشكل جيد، وينادي أحدهما الآخر باسمه القبلي /ماديبا/ و/هلاثي/، ويتناقشان في كل شيء حتى في كون شو كاتباً مسرحياً أفضل من شكسبير.[3] انتقد مانديلا سوبوكوي لأنه نادى بالحرية في عام 1963 الأمر الذي لم يكن بالإمكان تحقيقه، كما انتقده لعدم إعطائه الأفريقانيين حق قدرهم. وعندما كانت بعض الطائرات الحربية تئز فوقهم كان يذكر سوبوكوي بقوتهم العسكرية. وحثه على قراءة كتاب دينيز ريتز /الفدائي/ عن حرب البوار كي يفهم مقدرتهم على التحمل. وتأثر بقوى الإقناع لدى سوبوكوي، لكنه وجده دائماً نزقاً سريع الغضب يذعن بشكل يدعو للدهشة للسجانين، رفض في البداية الانضمام إلى مانديلا في الاحتجاج على أوضاعهم، ووصل حد الاعتراف بحق الدولة في سجنهم، لكنه في النهاية وافق على تقديم شكوى مشتركة. في ذلك الوقت كان سوبوكوي يعتبر أكثر خطورة من مانديلا. وعندما انتهت فترة سجنه عام 1963 أوقف فوراً بموجب قانون خاص، عرف بـ/ملحق سوبوكوي/ وأبقي في جزيرة روبين ستة أعوام أخرى، منعزلاً بشكل كامل عن بقية السجناء. مما أسهم في تشويشه.[4] (*)

بعد ستة أشهر في بريتورية قيل لمانديلا بغتة أن يجمع حاجياته لأنه سينقل إلى جزيرة روبين. قيدت يداه إلى أيدي ثلاثة سجناء سياسيين آخرين، ودفعوا داخل عربة نقل بلا نوافذ وليس فيها سوى دلو. واقتيدوا بالسيارة أثناء

(*) عندما زرت سوبوكوي سنة 1978 يوم كان تحت الإقامة الجبرية في كمبرلي، وجدته متسامحاً ولحّاظاً لسياسات جنوب إفريقية، كما وجدت عنده هواجس، فكان على قناعة أن جسمه قد زرعت فيه الشرطة جهاز تنصت.

الليل إلى كيب تاون. واصطحبوا، وهم مازالوا في الأغلال، إلى قارب قديم أجبروا على الوقوف في عنبره تحت كوة كان السجانون يبولون عليهم عبرها. وبعد بضع ساعات وصلوا إلى جزيرة السجن الأسطوري، معادل آلكاتراز Alcatraz الجنوب إفريقي.

تبعد جزيرة روبين ثمانية أميال فقط عن البر الرئيسي، يفصلها عنه بحر هائج بارد يحول دون الهرب. يبلغ طول الجزيرة ميلين، ولها ساحل جميل وشاطئ رملي، تملؤه الطيور البرية ومن ضمنها طيور البطريق الصغيرة، وهناك بعض الأبنية الجميلة على جانبي شارع القرية، منها المدرسة. واليوم أصبحت الجزيرة قبلة سياح مشهورة. لكن محاسنها كانت محدودة بالنسبة للسجناء السياسيين في حجراتهم الإفرادية المحاطة بأقصى قدر ممكن من الحراسة.

كان مانديلا واعياً، بما له من معرفة بالتاريخ الترانسكي، أن الجزيرة كانت سجناً لجنرالات الكزوسا الذين وقعوا في قبضة البريطانيين في القرن التاسع عشر. كان الشعور بالاستمرارية طاغياً، وكان مانديلا ينوه أحياناً بأسلاف مثل ماكانا الأعسر Makannathe Left-Handed الذي مات في الجزيرة بعد أن كاد يهزم البريطانيين في غراهامستاون Grahamstown عام 1819. ومنذ ذلك الوقت أصبحت الجزيرة مستعمرة للمجذومين، ومشفى مجانين قبل أن تصبح سجناً عسكرياً في عام 1936، وبعد شاربفيل أعيد استخدامها كسجن يأوي أمواج السجناء السياسيين من حركات مختلفة، إضافة إلى المجرمين العاديين.[5] منذ عام 1962 أصبحت خاضعة لنظام أكثر قمعاً مصمم لإذلال وتحطيم السجناء، وسجانين ساديين هما الأخوين كلينهانز Kleynhans اللذين اكتسبا سمعة خاصة بالاعتداء. وخلال العامين من 1962 إلى 1964، جاء في تقرير للأكاديمي نيفيل ألكساندر Neville Alexander الذي سجن في جزيرة روبين عام 1962، إفادة عن اعتداءات وحشية على السجناء السياسيين أسبوعية وأحياناً يومية.[6]

هذه المرة سيبقى مانديلا بضعة أسابيع فقط على الجزيرة، لكنها كانت كافية لتترك بصمتها، وترسخ مبدأ سيطبقه في جميع سنوات سجنه، وهو أن تصرف السجان يقرره موقف السجين منه. وسيذكر دائماً أول مواجهة له مع أحد الأخوين كلينهانز، الذي صاح: «أنا رئيسكم هنا!» وقال له ولثلاثة سجناء آخرين أن يركضوا إلى زنزانتهم كما يركض القطيع. أصر مانديلا على السير في المقدمة، وتعمد الإبطاء في مشيته، فيما كان كلينهانز يصرخ « سنقتلكم!».

وعندما وصلوا إلى زنزانتهم التي كانت غارقة بالماء، ظهر ضابطان آخران؛ صاح أحدهما بالسجين الأكثر تواضعاً أن شعره طويل جداً، فتدخل مانديلا قائلاً: «اسمع، إن طول شعرنا تحدده الأنظمة». وعندما اقترب الضابط كأنما ليضربه. شعر مانديلا بالرعب، لكنه تمكن أن يقول متظاهراً بشجاعته المميزة: «إذا وضعت يدك علي سآخذك إلى أعلى محكمة في الأرض ، وعندما أنتهي منك ستكون أفقر من فأر في كنيسة». استمر المسؤول في تهديده، لكن مانديلا أصبح أكثر جرأة عندما رأى أنه كان يرتجف.[7] هنا غادر الضابط الأعلى رتبة ـ الذي تبين أنه رئيس السجن ـ غادر الزنزانة بهدوء، وسرعان ما تبعه الضابط الآخر

فيما بعد أخذ السجناء الأربعة إلى زنزانة أوسع، حيث سمع مانديلا بعد العشاء نقراً على النافذة. وأحدهم يهمس: «نيلسون تعال إلى هنا». كان سجاناً ملوناً يحمل أخباراً من ويني وعرض أن يجلب له التبغ والشطائر، الأمر الذي صار يفعله كل ليلة تقريباً. وبذلك اطمأن مانديلا إلى أنه حتى في جزيرة روبين المرعبة، فإن السجانين يختلفون عن بعضهم مثلهم مثل باقي المخلوقات البشرية.[8]

بعد بضعة أسابيع على الجزيرة قيل لمانديلا أن يحزم أمتعته ثانية، وأعيد إلى الحجز الإفرادي في بريتورية. لم يكن هناك أي تفسير فيما قالت الحكومة للصحافة ـ كذباً ـ إنه قد نقل لحمايته من مغبة هجوم سجناء المؤتمر الوطني

الإفريقي عليه.[9] ولم يستغرق وقتاً طويلاً ليعرف هو السبب، في أوائل تموز (يوليو).

سمع مانديلا أن أحد محامي المؤتمر الوطني الإفريقي، هارولد وولب قد اعتقل، ثم حيّاه في ممر السجن توماس ماشفان Thonas Mashefane، الذي كان كبير العمال في مزرعة ليليسليف. وبعد بضعة أيام، في مكتب السجن، وجد نفسه وجهاً لوجه مع قادة المؤتمر الوطني الإفريقي الذين كانوا يختبئون في ريفوينا. خلال الأشهر الثمانية من سجن مانديلا بدأت حكومة فيروورد باتخاذ إجراءات صارمة أكثر فعالية ضد المقاومة السوداء، خاصة بعد أن بدأ بوكو Poqo الفرع الإرهابي السري من المؤتمر الإفريقي العام باغتيال البيض أولا في الترانسكي ثم بارل paarl قرب كيب تاون. وفي الأول من أيار (مايو) 1963 أصدرت الحكومة تشريعها الأكثر قسوة حتى الآن، بدعم من الحزب المتحد أيضاً، وقد تضمن «قانون التسعين يوماً» الرديء السمعة، الذي سمح للشرطة باعتقال أي شخص لمدة ثلاثة أشهر في سجن انفرادي، دون الاتصال بالآخرين وبلا محاكمة، مما أطلق يد شرطة الأمن في الاستجواب والتعذيب.[10]

وبعد عشرة أيام تمت الاعتقالات الأولى بموجب القانون. وهذه لم تكن تستهدف بوكو بقدر ما كانت تسعى لاكتشاف مخبأ قادة المؤتمر الوطني الإفريقي، ومن ضمنهم سيسولو وكاثرادا وغوفان مبيكي، الذين خرجوا من إقامتهم الجبرية واختفوا. قالت هيلدا بيرنشتاين التي سرعان ما اعتقل زوجها «لم نقدر من أين وكيف سيباشرون، وهنا أظهرنا جهلنا».[11]

كان قادة المؤتمر الوطني الإفريقي وحلفاؤهم مازالوا يدخلون ويخرجون في ريفونية متنكرين، ويناقشون خطط أعمال التخريب وحرب العصابات التي ستشن بمساعدة مجندين مختارين من سهم الأمة (إم. كي)، تم تهريبهم خارج البلاد كي يتدربوا في الجزائر وإثيوبية والاتحاد السوفيتي.[12] وبقيت القيادة العليا لسهم الأمة (إم. كي) متحدية، وفي 26 حزيران (يونيو) قام سيسولو بأول

إذاعة من / راديو الحرية/ من مخبأ خفي، واعداً مستمعيه أنه سيبقى في الخفاء في جنوب إفريقية وبذلك تحدى الشرطة لتقتفي أثره.

وصف برونو متولو Bruno Mtolo المخرب من دوربان الذي سرعان ما سيشي برفاقه، كيف رأى ذات مرة القادة مجتمعين في البيت المسقوف بالقش في مزرعة ليليسليف: سيسولو بشاربه الرفيع، يرتدي كنزة خضراء وبنطال جينز، منهمكاً في صياغة منشور على الآلة الكاتبة، وكاثرادا بقميص بسيط وصندل، بشعره الخرنوبي، وغوفان مبيكي يرتدي بذلة عامل زرقاء.[13] كانوا يضعون خطة طامحة جداً سميت / عملية ماي بوي/ التي وضع صياغتها الأولى جو سلوفو وغوفان مبيكي. بدأت الوثيقة هكذا: «لقد خلعت الدولة البيضاء عن نفسها كل ادعاء بأنها تحكم بآلية ديمقراطية، ولما كانت مدججة بالسلاح فقد طرحت أمام الشعب خياراً واحداً، وهو الإطاحة بها بالقوة والعنف».[14] وتابعت الوثيقة لتقترح تأسيس جماعات حرب عصابات في كامل جنوب إفريقية، يدعمها غزو مسلح قوامه قوات أجنبية تأتي بالغواصات والطائرات.

كان مخططاً مستهتراً وبعيداً عن الواقع وكان أنصاره ومؤيدوه الرئيسيون في القيادة العليا لسهم الأمة (إم. كي) هم مبيكي وسلوفو وآرثر غولدريتش. أبدى سيسولو وآخرون تحفظات قوية، وكانت الخطة قيد المناقشة في تموز (يوليو). أما لوثولي الذي مازال معترفاً به رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي، فقد كان معتكفاً في ناتال، مسقط رأسه، بعيداً عن كل من جماعة ريفونية والمؤتمر الوطني الإفريقي في الخارج، وقد كتبت ويني مانديلا إلى أديلايد تامبو في لندن بعد زيارتها لوثولي: «إنه يجهل كل شيء عن النشاطات في الخارج. وهذا أكثر ما يقض مضجعه».[15]

لكن بعض أعضاء القيادة العليا لسهم الأمة (إم. كي) كانوا يتوقون إلى العمل، خاصة بعد أن أعلمهم مانديلا بعروض التدريب العسكري الأجنبية. حتى أن جو سلوفو أراد أن يستقل الطائرة إلى دار السلام لمناقشة الأمر مع

أوليفر تامبو والمؤتمر الوطني الإفريقي في المنفى. وقبل رفاقه، على أساس أن صياغة الوثيقة النهائية لم يتم الاتفاق عليها بعد.[16] لكن لدى وصول سلوفو إلى تانزانية كان المخطط كله قد كشف، بكل اندفاعه. وأقر سلوفو فيما بعد: «كان لدينا رأي حسن الوقع عما يمكن لإفريقية المستقلة السوداء أن تفعله وما لا يمكن أن تفعله. ربما كانت الخطة أكثر من كونها غير واقعية».[17]

في أوائل تموز (يوليو) 1963 كانت استجوابات الشرطة قد بدأت تتمخض عن معلومات. فقد كشف واحد من الأشخاص الكثر الذين اعتقلوا ـ ما زال المؤتمر الوطني الإفريقي يجهل من هو ـ عن أن سيسولو واصدقاءه كانوا أحيانا يختبئون في ريفونية. ثم أدلى شخص آخر بمزيد من المعلومات الدقيقة عن المزرعة. واستطاع الضابط المحقق الشاب الذكي الملازم فان وايك Van Wyk أن يحدد موقع مزرعة ليليسليف. ويوم 11 تموز (يوليو) وصلت شاحنة مغلقة تابعة لشركة تنظيف على الناشف. وانطلق منها جمهرة من رجال الشرطة والكلاب وأحاطت بأبنية المزرعة. قفز كل من سيسولو ومبيكي وكاثرادا من نافذة خلفية، لكن سرعان ما ألقي القبض عليهم مع الآخرين. وجمعت الشرطة مئات الوثائق، كان بينها أوراق عن عملية ماي بوي، وأمسكوا مخرباً آخر هو دينيس غولدبيرغ في البيت الرئيسي.[18]

هذه هي الأخبار التي سمعها مانديلا من زملائه في سجن بريتورية. ولم يكن قد ذهب بنفسه إلى ريفونية منذ العام السابق، قبيل اعتقاله بقليل. لذلك ما كان له أن يقر عملية ماي بوي. لكنه كان قائد سهم الأمة (إم. كي) وقد ترك عشرات الوثائق المكتوبة بخط يده في ليليسليف لأنه شعر ـ مثل كثير من الثوريين الآخرين ـ بأنه مضطر لتدوين أفكاره. وقد طلب من جو سلوفو تدمير هذه الأوراق، لكنها كانت في مكانها تنتظر لتصبح دليل جريمة.[19] وكان مانديلا حتماً هدفاً رئيسياً لأية جهة ادعاء، وربما يواجه عقوبة الإعدام بموجب

مشروع قانون التخريب الذي صدر في تموز (يوليو) 1962. وأصبح مانديلا المتهم الأول.

أدرك جميع القادة المسجونين أن هذه المحاكمة ستكون قضية تاريخية أكثر خطورة من قضية الخيانة، التي طعن بالتهمة الأصلية فيها. كان متآمرو ريفونية مذنبين بشكل لا لبس فيه بالتخطيط للتخريب، إذ لم يكن لحرب العصابات، وعرفوا أن عليهم حشد أفضل فريق دفاع ممكن. تطلع مانديلا ثانية إلى برام فيشر للمشورة، بما لديه من مهارة قانونية والتزام. فقد كان فيشر نفسه ينضم إلى جماعة ريفونية بين وقت وآخر، كما يعرف مانديلا وبقية المتهمين، برغم أن العامة لم تكن تعرف. وأثناء المحاكمة كان قد بدأ يخطط لكي يعمل في الخفاء.

حافظ فيشر ـ المحامي ـ على هدوئه المهني وصدم بالسوية الساذجة والمتهورة لعملية ماي بوي. التي قال عنها، فيما بعد أثناء محاكمته هو، إنها «تفكير طفولي لا يمت للواقع بصلة، نتاج خيال مغامر». لكنه كان مصمماً على إعداد أفضل دفاع ممكن عن المتآمرين وحشد مجموعة من المحامين الكبار الذين لا يقهرون، أصبحوا جميعاً رفاقاً مقربين من مانديلا. وكان بينهم فيرنون بيرانجيه Vernon Berrange «المتنبئ» الذي أقنعه فيشر بالعودة من لندن، ومحام شاب لامع هو أرثر تشاسكالسون Arthur Chaskalson الذي لم يكن ملتزماً أبداً لكنه كان معجباً بفيشر فعرض خدماته. وأحضر تشاسكالسون بدوره صديقاً جامعياً هو جويل جوف Joel Joffe الذي كان يخطط للهجرة إلى أستراليا.[20] وافق جوف وهو رجل نحيل، ينكر ذاته، له وجه طويل، على أن يصبح المحامي الرئيسي، وقد أطلق عليه مانديلا والآخرون «الجنرال القابع وراء الستار». وهناك شخص آخر جند لهذه المهمة وسيصبح موضع ثقة مانديلا هو جورج بيزوس George Bizos، وهو يوناني ضخم كثيف الشعر له أسلوب فلاحي، وقد هاجر من اليونان إذ كان صبياً هرباً من النازيين، والتقى بمانديلا

لأول مرة في جامعة ريتز، وقد قدم ليتخصص بالقضايا السياسية، حيث كسب ثقة فيشر.

كان جويل جوف قد التقى مانديلا في مناسبات اجتماعية، حيث كان مانديلا يبدو أصغر بخمس عشرة سنة مما هو فعلاً. والآن، وهو في لباس السجن المؤلف من بنطال قصير وقميص (كاكي) وجده جوف «نحيلاً دون الوزن الطبيعي بشكل مؤسف». وكان وجهه غائر الخدين، شاحباً بلون أصفر سقيم وقد تدلت بشرة وجهه كأكياس تحت عينيه «لكن جوف رآه ما زال هادئاً ومرحاً واثقاً بنفسه، وبدت معنوياته عالية كما كانت دائماً».[21] قال جورج بيزوس: «لم يكن طبيعياً السلام الذي كان يشعر به مع نفسه».[22] كان مانديلا ما يزال محتجزاً بشكل إفرادي، كسجين مدان في أسفل السافلين. قال إنه كان «يعيش في جو الحكم بالإعدام. وقد أتى أحد كبار السجانين إلى زنزانته ليلاً وأوقظه ليقول له: ستنام نوماً طويلا جداً».[23] وعندما اجتمع مانديلا بمحاميه حذره فيشر من أن الادعاء سيطلب له الحكم بالإعدام. قال مانديلا: «لقد عشنا في ظلال المشانق».[24]

افتتحت المحاكمة في بريتورية في تشرين الأول (أكتوبر) 1963 وسط نوبة من الهياج الشعبي أثارتها الصحف، التي تحدثت عن مؤامرات ثورية سربتها الشرطة. وأحيطت المحكمة العليا / قصر العدل/ من الداخل والخارج برجال شرطة بثياب رسمية وعادية. يدققون بعناية في هويات المتفرجين.

وعندما ظهر مانديلا في قاعة المحكمة خارجاً من الزنزانات السحيقة، صدم بعض الأصدقاء لهزاله وشحوبه. وقد تساءلت هيلدا بيرنشتاين «بأي سهولة ألبسوا هذا الرجل الفخور الرفيع الثقافة لباس وهيئة الإفريقي كما يريده البيض / صبي/ ؟.[25] لكنه أشرق بابتسامته وضم قبضة يده اليمنى وزمجر / آماندلا!/ فرد عليه جمهور السود في القاعة / نغاويثو!/ ». مما أرسل الرعب في اوصال جيش رجال الأمن.[26]

كان القاضي إفريقانياً محترماً وصارماً، هو كوارتوس دو ويت Quartus de Wet. لكن المدعي العام بيرسي يوتار Percy Yutar الذي كان رجلاً صغير الحجم له أسلوب مسرحي مضخم، كان محامياً يهودياً يمينياً، قريباً من الحكومة، كان يستمتع بمجابهة الأعداء السود واليهود. وسيدعي فيما بعد أنه رفض توجيه تهمة الخيانة العظمى لمانديلا قائلاً: «لقد مارست التعقل والحذر واتهمته بالتخريب فقط». [27] لكنه كان مدعياً عاماً لا يعرف الرحمة.

كان فريق الدفاع مقتنعاً منذ البداية، حسب تعبير جويل جوف أن «قلب وجوهر هذه القضية لم يكن في قاعة المحكمة هذه وإنما في العالم خارجاً». [28] وما من شك في أن الحكومات الغربية كانت تراقب هذه القضية باهتمام. لقد أصبح الغربيون الآن أكثر وعياً بقيادة مانديلا، وأكثر قلقاً من العقابيل المحتملة للحكم بإعدامه، لكنهم حافظوا على ضبط النفس بسبب ارتباطاتهم الدبلوماسية واستثماراتهم. كانت الحكومة البريطانية الأكثر قدرة على التأثير في حكومة فيروورد، إلا أنها كانت أيضاً الأكثر خوفاً من إزعاجها.

وقد كتب السير جون مود، السفير البريطاني متملقاً في رسالته الوداعية في نيسان (أبريل) 1963 أنه كان يخشى أن يخرج المؤتمر الوطني الإفريقي الجيد الانضباط من الساحة ليترك المكان للمؤتمر الإفريقي العام الأكثر عنفاً وسذاجة. واعتقد أن المقاومة السوداء، بمساعدة من الدول الإفريقية الجديدة، ربما تتطورإلى «حركة فدائية منظمة تحظى بدعم أغلبية الرأي العام العالمي». وحذر لندن أن الأمر «سيصبح أكثر صعوبة في حال الاستمرار بمعاملة جنوب إفريقية على أنها أقرب إلى الحليف وفي الوقت نفسه لا يمكن المساس بها». واقترح بإصرار أن «المسيحية تشكل خطراً أكبر بكثير من الشيوعية بالنسبة لسيادة البيض».

لكن بقي غير محدد وغامضاً، وخلص إلى «أن علينا أن نعيد النظر بدقة وبتواتر قريب في خط توازن مصالحنا». [29]

السفير الجديد السير هيو ستيفنسون Sir Hugh Stephenson كان أكثر تحفظاً وأقل تأثيراً من مود. وقد حذره وزير الخارجية اللورد هوم Lord Home مسبقاً من مغبة تعريض مصالح بريطانية الاقتصادية والدفاعية للأذى، لكنه نصحه ألا يظهر ما يدل على التغاضي عن الأبارثيد، مما قد يضر بالعلاقات مع إفريقية والأمم المتحدة. ونصحه هوم أن يضع في حسبانه أن جنوب إفريقية قد تنتقل إلى أيدي الوطنين الإفريقيين «في المستقبل المنظور»، وأمر بتطبيق سياسة مود في «إعادة التأمين» من خلال «اتصالات شخصية سرية مع أهل الفكر غير الأوروبيين». [30] لكن السير هيو لم يكن رجل المبادرات: فهو موظف مدني سابق في الهند كان مغرماً بشراب الجين، ولم يستطع يوماً أن يدرك الحقائق في إفريقية، ولم يكن يميز بين كيب تاون، والقاهرة وبيتشوانا لاند وبالوتشستان. كان يخاف إثارة حفيظة الأفارقة. وقبل أن يقدم أوراق اعتماده لرئيس الدولة أقنع بأن يشير إلى «آراء تختلف وجهات نظر حكومتي اختلافاً جذرياً عن حكومتكم حولها». ولكن عندما اعترضت وزارة الخارجية الجنوب إفريقية سحب تلك الكلمات. [31]

بعد أن بدأت المحاكمة الأولية في قضية ريفونية أقرت الجمعية العمومية للأمم المتحدة يوم 11 تشرين الأول (أكتوبر) القرار المؤثر رقم 1881، الذي دعت فيه جميع الدول ما عدا جنوب إفريقية إلى إطلاق سراح السجناء السياسيين. [32] فقال فيشر لبيزوس «لن يجرؤوا على شنقهم بعد هذا!». [33] لكن السفارة البريطانية كانت ما تزال مترددة في ممارسة أي ضغط. ونصحت وزارة الخارجية السير هيو ستيفنسون بأن يحذر بريتورية من قوة الرأي العام البريطاني. أبدى السير هيو بعض المقاومة إلا أنه حدث وزير الخارجية الدكتور موللر أخيراً عن قلق بريطانية، في الوقت الذي أكد للندن أنه «كانت لدي شكوكي دائماً حول قيمة هذه الطروحات». كما استشهد بأقوال جون أرنولد، المحامي البريطاني الذي يمثل اللجنة الدولية للمحكمين في المحاكمة، وأخبره

أن المتهم الرئيسي كان «إما شيوعياً أو متأثراً بالشيوعية تأثراً كبيراً»، وأنه «مذنب كأبشع ما يكون الإجرام». [34] ولم يذكر تحفظات أرنولد الخطيرة حول المحاكمة». [35]

أفسد النائب العام بيرسي يوتار الاتهام الأول، الذي أبطله القاضي نزقاً، ولم تبدأ المحاكمة الكاملة قبل 3 كانون الأول (ديسمبر) في بريتورية. وبقي مانديلا متحدياً. وعندما سئل كيف سيدافع عن نفسه؟ أجاب ببساطة: «لست أنا، وإنما الحكومة هي التي يجب أن تقف في قفص الاتهام. أنا أقول إني لست مذنباً». [36] عندها قدم يوتار، الواثق من أدائه، الاتهام المعدل، الذي تضمن تهمة رئيسة حساسة:

> إن المتهم أقدم قاصداً وبنية خبيثة على التآمر والتحضير لأعمال عنف ودمار في كافة أرجاء البلاد، استهدفت مكاتب ومنازل مسؤولين إداريين، كما استهدفت جميع خطوط وطرق الاتصال. وكان الهدف من وراء ذلك إدخال جمهورية جنوب إفريقية في حالة من الفوضى والاضطراب تتفاقم، حسب مخططاتهم، بتشغيل آلاف الوحدات المقاتلة الفدائية المدربة المنتشرة في كافة أرجاء البلاد حيث يمكنها ذلك.

واختتم اتهامه اختتاماً مسرحياً قائلاً: «إنهم قد خططوا حملتهم كي يكون العام الحالي 1963 عام تحريرهم مما يسمونه نير هيمنة الرجل الأبيض».

خيم الوجوم على فريق الدفاع بينما كان يوتار يكشف حيثيات الاتهامات. وتساءل جوف «هل هناك أي أمل في أن ينجو أي من المتهمين من عقوبة الإعدام؟». ونادى يوتار سلسلة من الشهود، كثير منهم دحضوا في الاستجواب، وصفوا بدقة تحركات مانديلا والآخرين. والأسوأ هو أن يوتار كان باستطاعته الاعتماد على مئات الوثائق التي جمعتها الشرطة من ليليسليف وأماكن أخرى، والتي أعطت تفاصيل عمليات المؤتمر الوطني الإفريقي السرية. وسرعان ما أصبح محامو الدفاع في حالة رعب من تعاظم الأوراق المكتوبة

بخط اليد حول /أفكار/ في مختلف المواضيع، التي شعر المتهم أنه مضطر إلى حفظها في ريفونية. حتى أن غوفان مبيكي الذي كان منسقاً في ريفونية، وطلب من الآخرين إحراق أوراقهم السرية احتفظ هو بأوراقه.[37] وقد كانت إحدى الكراسات المكتوبة حول حملة مناهضة أذونات المرور معنونة: /سري للغاية/ وقد اختتمت بتوجيه: «هذه الوثيقة يجب ألا تقع في يد غريبة. اقرأها وافهم مضمونها ثم أتلفها بحضور رفيقين آخرين على الأقل «ولكنها كانت متروكة هناك كي تلتقطها الشرطة.

أعطت عملية إخفاء الوثائق فكرة حسية عن تصور وعجز المؤتمر الوطني الإفريقي المحظور. حيث كان «أوت» (أوليفر تامبو) يتبادل الرسائل برموز مبسطة مع «رعد» (دوما نوكوي)، دوما تعني /رعد/ أو /كن مشهوراً/ باللغة الكزوسية /كانا يناقشان خطط نقل مقاتلي الحرية جواً ـ يشيرون إليهم بكلمة /الطرود/ أو /طلاب الجامعة/ ـ من بوتسوانا، لكن اختلط الأمر على المراقبين بسبب الرموز، وأصيبوا بالإحباط لسوء الأداء ميدانياً. فقد جاء في رسالة من لوساكا أن «السبعة عشر طرداً التي أرسلتها صودر منها اثني عشر من قبل الضرائب، وسبعة أمسكوا». وكان هناك دائماً بعض اللبس حول المال «لقد استلمنا أموالاً من دول معنية. هل بإمكانكم أن تعلمونا أي دول قدمت المساعدة حتى الآن منذ عودة ماديبا (مانديلا) إلى الوطن؟».[38]

أظهرت وثائق ريفونية هوة كبيرة بين مفهوم الكفاح المسلح وتنفيذه، وغياب ما أسماه لينين /تثبيت القرارات/. وكانت أكثر الوثائق إساءة مكتوبة بخط يد مانديلا، يذكر جورج بيزوس أنه: «احتفظ بكل ورقة تورط في جريمة في ريفونية. كانت غلطة شنيعة. لقد قدموا الوثائق إلى الشرطة على طبق. ولم يقل يوماً إن الخطأ خطأ أي شخص آخر فقد كان شهماً جداً». .[39] لكن الوثائق أعطت أيضاً صورة رائعة عن فكر مانديلا. كان هناك خطط الهرب من سجن بريتورية مكتوبة بخط يده، تظهر خطاً منقطاً من زنزانته عبر باحة الرياضة. «لا

حاجة بي إلى ذكر الآثار المدمرة سياسياً لأية محاولة انقلابية». وكان هناك ملاحظات عن حركات ثورية أخرى. وعن أساليب حرب العصابات «الفدائيون لا يشنون حرباً تقليدية ولا يخوضون معارك حاسمة».

وكان هناك أقوال مأخوذة من كتاب عن إيرغان، الجماعة الإرهابية الإسرائيلية: «العالم لا يحزن على الضحايا. إنه يحترم فقط أولئك الذين يقاتلون.. المقدرة على التضحية هي مقياس الثورة وأبو النصر.. إن القتال السري هو دولة حقيقية مصغرة». وكان هناك ملاحظات عن هوكبالاهاب Hukbalahap لجيش الثوري الفيليبيني: «يجب أن يقتنع الشعب أن مصيره في يده».

كما كانت هناك أقوال في السياسة والقيادة، بعضها مأخوذ من السيرة الذاتية للجنرال كريستيان دو ويت قائد فدائيي حرب البوار اللامع: «أفضل أن أقف بين شعبي على كوم من الروث، على أن أعيش في قصر غرباء». وكانت هناك مقاطع من سيرة الجنرال جي. إم. هيرتزوغ J. M. Hertzog بقلم أوزوالدبيرو Oswald Pirow: «أصبح هيرتزوغ رجل دولة أكثر مما هو سياسي». وكانت هناك ملاحظات عن فريدريك الكبير Frederick the Great: «كان في جيشه بغلين خاضا أربعين حملة، ولكنهما بقيا بغلين «وكانت هناك مقتطفات حلوة من المارشال مونتغومري Field Maershal Montgomeny «الحرب الكاملة تحتاج لياقة كاملة». وحتى مقتطفات من أقوال الرئيس ترومان Truman «القائد هو الرجل القادر على جعل الآخرين يقومون بما لا يريدون القيام به، وهم راضون».

لكن الملاحظات الأكثر إدانة كانت/ 62/ صفحة عن الشيوعية كتبت على دفتر بخط مانديلا. وكانت في أربعة أجزاء، تتضمن قسماً من / أسس اللينينية / لستالين. وكان الأكثر إحراجاً هو الجزء الأول، الذي يعتمد بشكل كبير على كتيب الشيوعي الصيني ليوتشاوتشي Liu Shao-chi حول «كيف تكون شيوعياً جيداً». لكنه يتضمن تعليق مانديلا: «في ظل حكومة للحزب الشيوعي تصبح

جنوب إفريقية أرضاً للبن والعسل.. لن يكون هناك بطالة، أو فقر، أو مرض». [40] ووجد محامو الدفاع حرجاً كبيراً في ذلك، لكن مانديلا برره بأن تذكر أنه كان ينسخ وثيقة صينية، بمثابة جزء من نقاش ليظهر كم أن الكتابة الماركسية طنانة. [41] وأكد راستي بيرنشتاين فيما بعد أنه أعار مانديلا الكتب، مثلما أعار كثيرين غيره. [42] وأظهرت ملاحظات مانديلا المنسوخة التي وجدت في ريفونية أنه كان لا يتعب من نسخ الوثائق من جميع الأقوال وجميع المصادر.

الشاهد الرئيسي للادعاء كان يرمز إليه «بالسيد إكس»، لكنه في الحقيقة كان برونو متولو، المخرب الماكر الذي كان في اجتماع مانديلا في دوربان قبيل اعتقاله والذي زار ريفونية. وقد تكشف الآن أنه مخبر للدولة. وقد كتب مانديلا فيما بعد: «لم أستطع أن أصدق عيني عندما رأيته يعتلي منصة الشاهد». [43] كان متولو، صاحب الذاكرة الممتازة، أول شاهد ربط مانديلا ربطاً مباشراً بسهم الأمة / إم. كي/ بأن أدلى بإفادته عما قاله مانديلا للمخربين في اجتماعهم في دوربان: كيف أن القادة الإفريقيين وعدوه بتقديم التدريب العسكري والأموال، وكيف ستمتد الحملة في جنوب إفريقية إلى حرب العصابات، وأن الشيوعيين يجب ألا يبوحوا بمعتقداتهم الحقيقية لقلة شعبيتهم في إفريقية.. وأصر متولو على أن المؤتمر الوطني الإفريقي خاضع لسيطرة الشيوعيين خضوعاً كاملاً. [44]

كانت شهادة مدمرة. وقد كتب مانديلا في السجن «عندما سلمت ملاحظاتي أدركت أن الدولة ستتمكن من تأمين دليل ضدي. وشهادة متولو جعلت ذلك حتمياً». [45] ما كان مانديلا لينكر قيادة سهم الأمة / إم. كي/ ، ولا حديثه مع المخربين في دوربان، وإنما سينكر فقط أن الشيوعيين كتموا معتقداتهم. وحذره محامو الدفاع من أن اعترافه ربما يكلفه حياته، لكن مانديلا قال لهم إن عليه أن يتحمل مسؤولية القيادة، وإنه أراد أن تعرف الحقيقة. وقال إنه كان مضطراً لأن «يوضح للبلاد وللعالم أين تقف أوم خونتو، ولماذا، وأن

يوضح أهدافه وسياسته، ليميز الحقائق الكاملة عن أنصاف الحقائق، وعن التحريف في قضية الدولة. وإذا كان بذلك يعرض حياته للخطر، فليكن «صار الآن واضح التصميم على أن يمثل النضال في شخصه».

وجد محاموه أنفسهم في موقف يصعب الدفاع عنه. وعندما استجوب بيرانجيه متولو استطاع أن يحدث بعض الثغرات في دليله؛ مثل ذِكْر أن مانديلا قال في دوربان إن الشيوعيين الذين يذهبون إلى الخارج لصالح سهم الأمة (إم. كي) يجب ألا يحاولوا الترويج لقضية الحزب أو نشر الدعاية للشيوعية، مما قد يسيء إلى (إم. كي). لكن القاضي ما زال يبدو متأثراً بشهادة متولو. وفي هذه الأثناء، علق جويل جوف: «اعترف متهمنا الرئيسي، نيلسون مانديلا بحمل الثقل الرئيس للاتهام».

كانت المناقشات بين المتهمين ومحاميهم حساسة ولكنها كانت محكومة بالظروف. فقد بنى آمر السجن غرفة خاصة، كان المتهمون يصطفون فيها مقابل حاجز مشبك، يواجهون عبره محاميهم وهم يجلسون على مقاعد عالية مثل رواد بار الحليب، وعندما وصل المحامون أول مرة، وقف مانديلا باسماً وقال: «ماذا تشربون اليوم أيها السادة؟ (شوكولاته أم بوظة بالصودا؟)». [46] أصبح المحامون يعرفون المتهم معرفة حميمة، ويشعرون بالقوة الكاملة لشخصية مانديلا. وذهل جورج بيزوس لرفض مانديلا رعب السجانين. ففي أحد الأيام اشتكى إلى الضابط المسؤول عن المكتب المخلع الأوصال الذي كان عليه أن يستخدمه لكتابه ملاحظات لمحاميه. طار صواب أوكامب: «أنت لم تعد محامياً، أنت سجين!.. لا يحق لك إعطاء الأوامر». فأجاب مانديلا ببرود: «هل انتهيت أيها الكولونيل؟ سأعود إذن إلى عملي مع المحامين». وفي اليوم التالي وصلت طاولة رائعة. [47]

لاحظ جويل جوف أن مانديلا وسيسولو كانا الأكثر تعرضاً للخطر، وكان احتمال شنقهما خمسين بالمائة. لكنه وجد أن شجاعته لم تهتز أبداً. رأى جوف

أن «الأمر كان مختلفاً تماماً عن الشجاعة في ميدان المعركة، حيث يمكنك أن تكون شجاعاً بلا تفكير. ظهر نيلسون مانديلا بمظهر القائد الطبيعي. وأعتقد أن لديه جميع مقومات القادة: من شخصية آسرة، ومقدرة، وموقع، وهدوء، ودبلوماسية، وبراعة وقوة إقناع. عندما التقيته أول مرة وجدته جذاباً ومشوقاً. ولدى انتهاء القضية كنت أعتبره رجلاً عظيماً حقاً. وبدأت ألاحظ كيف أن شخصيته وحضوره لم يؤثرا في مجموعة المتهمين فحسب، وإنما على السجن وطاقم العاملين في السجن أنفسهم».

كان المتهمون الرئيسون قد اعترفوا بضلوعهم في أعمال التخريب والتخطيط لسهم الأمة (إم. كي) وكانوا مصممين على تقديم تبرير سياسي لذلك، إلا أن التهمة الأكثر خطورة ـ التي قال النائب العام بيرسي يوتار إنها حجر الزاوية في القضية ـ هي أنهم وافقوا على عملية ماي بوي التي تنادي بحرب عصابات تعم البلاد بمساعدة أسلحة وقوات أجنبية. شرح مانديلا وسيسولو لمحامي الدفاع أن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يكن قد وافق على الخطة عندما أغارت الشرطة على ريفونية، على الرغم من أنها ربما كانت خطة ضرورية إذا فشلت جميع الوسائل الأخرى. لكن غوفان مبيكي، أكبر المتهمين وأكثرهم تمسكاً بعقيدته، أصر على أن عملية ماي بوي كانت أساس جميع نشاطات سهم الأمة (إم. كي). وقد وافق عليها المؤتمر الوطني الإفريقي أسوة بسهم الأمة (إم. كي). وكان إصراره حرياً بأن يدفعه هو وأصدقاءه إلى المشانق. وقد قال جوف فيما بعد: «لو أنه ثبت أنهم قد باشروا ثورة مسلحة لكان من الصعوبة بمكان بالنسبة للقاضي ـ بموجب قانون التخريب ـ ألا يحكم عليهم بالإعدام».

لكن مانديلا كان منشغلاً الآن بنقاشه السياسي. فقد كان مصمماً ـ كما في محاكمته السابقة ـ على إلقاء خطاب نهائي عن مثله السياسية، الأمر الذي لا يمكنه أن يفعله إلا بتصريح من المحكمة. وهذا لا يمكن استجوابه أو دحضه، لذلك فإنه يكون أقل ثقلاً بالنسبة للقاضي. ولكنه لم يشأ أن يبدو معرضاً

للاستجواب كي يعود ليؤكد قناعاته الأساسية. مثل فيلم موغول سام غولوين يقول: «هذه مبادئي أيها السادة، وإذا لم تعجبكم فلدي سواها».[48] أمضى مانديلا أمسيات كثيرة في زنزانته في إعداد الخطاب بمساعدة زملائه ومحاميه وآخرين. لقد تأثر بالخطابات الثورية العظيمة السابقة. مثل خطاب كاسترو «التاريخ سيغفر لي». وأراد بشكل خاص أن يترك أثراً قوياً فيما وراء البحار.[49]

فكتب بخطه بياناً بليغاً يشرح بوضوح تطوره السياسي. لكن المحامين أبدوا قلقهم حيال صراحته المتحدية، التي ربما تدفع القاضي إلى شنق مانديلا، خاصة وأنه ينتهي بكلمات «إنه مثل أعلى وأنا مستعد للموت(*) من أجله».[50] ورفض مانديلا شطب هذه الكلمات، لكنه في النهاية وافق على إضافة «إذا دعت الحاجة».[52]

بدأت قضية الدفاع بخطاب مانديلا الطويل من قفص الاتهام، الذي لا يمكن مقاطعته، مما أثار سخط يوتار الذي كان يعد العدة لأيام من الاستجواب. ولمدة أربع ساعات تحدث مانديلا عن معتقداته وآرائه السياسية عائداً بذاكرته إلى خلفيته القبلية وبدايات الشعور القومي، وتحوله إلى التعددية العرقية. واعترف بأنه كان قائداً لسهم الأمة (إم. كي) وأنه خطط للتخريب، لكنه أصر ثانية على أن اللاعنف أثبت عجزه في الحيلولة دون انجراف البلاد في حرب أهلية. وقال إن التخريب قدم أفضل أمل لعلاقات عرقية في المستقبل.

وشبه تعاونه مع الشيوعيين بتعاون تشرشل مع ستالين. إلا أنه أعطى تفسيراً شخصياً أكثر، فذكر أن الشيوعيين كانوا الجماعة السياسية الوحيدة التي

(*) أتيح لي النظر بتمعن في الخطاب عندما زرت المحكمة كي أغطي المحاكمة لصالح جريدة الأوبزرفر. وعندما صعد مانديلا من الزنزانات السحيقة، ابتسم لي فوجدت نفسي أرد تحيته برفع قبضتي مما أثار ذعر الشرطة المحيطة فأخذت للاستجواب قبل أن يسمح لي بالعودة. وفي آخر النهار طلب مني مانديلا، بواسطة محاميه أن أراجع مسودة الخطاب الذي كان يعده، وأن أعلق على صداه في الرأي العام وراء البحار، فأمضيت المساء كله وأنا أراجع الخطاب مع المحامين، ولم أستطع أن أقترح سوى تعديلات طفيفة. معظمها لم تحز القبول[51].

كانت مستعدة لمعاملة الإفريقيين معاملة بشر مساوين لهم. واعترف بأنه تأثر بالفكر الماركسي، لكنه أنكر كونه شيوعياً، وامتدح النظامين النيابيين البريطاني والأمريكي، اللذين يعتبرهما الشيوعيون رجعيين. وأكد على غياب الكرامة والحقوق الإنسانية بالنسبة للإفريقيين، وتدمير حياة الأسرة السوداء «الأمر الذي كان يحطم القيم الأخلاقية ويثير العنف». يريد الافريقيون حصة عادلة من جنوب إفريقية كلها «إنهم يريدون الأمن، وحصة في المجتمع». وقال إن المؤتمر الوطني الإفريقي معني بـ «صراع من أجل الحياة».

وختم حديثه بدفاعه / اعتذاره/ الخاص: «خلال حياتي كرست نفسي لكفاح الشعب الافريقي. وقد حاربت الهيمنة البيضاء، وحاربت الهيمنة السوداء. كنت دائماً أرفع عالياً أنموذج المجتمع الديمقراطي الحر حيث الجميع يعطون بانسجام وتعادل في الفرص». توقف قليلاً ونظر إلى القاضي وقال: «إنه مثل أعلى أتمنى أن أعيش من أجله وأن أحققه» ثم خفض صوته وقال مختتماً حديثة: «لكن إذا اقتضى الأمر، فإنه مثل أنا مستعد لأموت من أجله».[53] ساد الصمت ثلاثين ثانية. صمت بدا لمانديلا دقائق كثيرة. بالنسبة لجويل جوف بدا كالصمت الذي يعقب مسرحية قبل التصفيق الشديد ـ لكن بلا تصفيق ـ .[54]

كان الخطاب الأكثر تأثيراً في حياة مانديلا السياسية كلها. فقد صوره بوضوح قائداً، ليس للمؤتمر الوطني الإفريقي فحسب، وإنما للمعارضة المتعددة الأعراق للأبارثيد. لقد تراجعت العبارات المعادية للاستعمار في خطاباته السابقة تراجعت لصالح تحليل شخصي أكثر عمقاً بما لا يقاس. ترددت كلماته حول العالم، وكانت بمثابة بيان للذين يشنون حملات معادية للأبارثيد في كل مكان. حتى إن بعض الدبلوماسيين الغربيين بدأوا يغيرون رأيهم حول كون مانديلا خاضعاً لسيطرة الشيوعيين. وقد علق جون ويلسون John Wilson في وزراة الخارجية بأن «الأسباب التي طرحها للتواطؤ مع الشيوعيين يصعب كثيراً الإجابة عنها». أما جون أور John Ure من دائرة الابحاث الإعلامية (التي

تستخدمها المخابرات البريطانية لتزويدها بالدعاية المعادية للشيوعية). فقد شعر أن بريطانية تفقد مركزها لدى الجنوب إفريقيين السود ثمناً لسياساتها الحذرة. وقال عن مانديلا: «سيصبح شخصية ذات شعبية في جميع أرجاء القارة سواء أراد ذلك أم لم يرد». ويجدر بالمخابرات (أصدقائنا) أن تسجل اعترافاته بالتواطؤ مع الشيوعيين. وتستطيع بريطانية أن تروج بعض الدعاية عن الرسالة لقائلة: «مانديلا وصحبه لا يحبون الشيوعية حقاً، لذلك لا بد لهم من توخي لحذر في مسايرتها». [55]

ثبتت أقدام المتهمين بالدعم المتزايد من الخارج. ليس من دول إفريقية فحسب، وإنما من بريطانية، الأمر الذي فاجأ مانديلا. ففي منتصف المحاكمة انتخب مانديلا رئيساً لاتحاد طلبة جامعة لندن. قال جوف عنها «معهد لم يحضر فيه أبداً! ومن قبل أناس لم يكن يعرفهم!». [56]

كانت الحكومة البريطانية الآن مدفوعة نحو التدخل لمنع شنق مانديلا. وقد كتب دافيد أستور في (الأوبزرفر) إلى وزير الخارجية آر. إيه باتلر قائلاً: إن مانديلا كان «واحداً من أكثر القادة الإفريقيين تأثيراً». [57] كان باتلر متعاطفاً لكنه خشي أن أية محاولة بريطانية للتدخل قد تبوء بالفشل. [58] وقد حذر ليون بريتان Leon Brittan رئيس جماعة باو Bow المحافظة من أن مانديلا إذا مات فإنه سيصبح شهيداً. مما يجعل حل مشاكل جنوب إفريقية أكثر صعوبة. [59] وقد قام وفد من الحركة المعادية للأبارثيد، كان فيه النائب العمالية باربرا كاستل Barbara Castle ورئيس مجلس اللوردات القادم لورد غاردينر Lrod Gardiner بزيارة لوزارة الخارجية ولكن قيل له إن أي احتجاج أو شكوى ربما تضر بتوقعات مانديلا. [60] وفي 7 أيار (مايو) 1963 عرض رئيس الوزراء أليك دوغلاس هيوم إرسال رسالة خاصة إلى فيروورد حول المحاكمة. لكن السير هيو ستيفنسون أوصى «بعدم ممارسة أية ضغوط أخرى». وخلافاً لبعض التقارير المنشورة لم يكن هناك دليل على أن الرسالة قد أرسلت؟[61] وعندما راجع سفير

جنوب إفريقية وزارة الخارجية البريطانية ذاك الشهر، قيل له إن الحكومة تتعرض لضغوط أقل الآن بصدد اتخاذ خط أقوى ضد جنوب إفريقية، على الرغم من أن الأحكام بالإعدام ستفجر الأمور من جديد.[62] وأبلغت السفارة البريطانية في بريتورية لندن بأن الميجور جنرال هندريك فاندين بيرغ Major General Hendrick Vanden Bergh رئيس الفرع الخاص في جنوب إفريقية (الذي سيصبح فيما بعد رئيس الشرطة السرية Boss) لم يكن يتوقع أحكاماً بالإعدام، وأن يوتار لن يطلب لهم تلك الأحكام.[63] وفي مطلع حزيران (يونيو)، وقبل أسبوع واحد من صدور الحكم أَعلم القنصل البريطاني ليزلي ماينفورد Leslie Minford ـ المعروف بارتباطاته مع جهاز المخابرات ـ وهو في حالة سُكر، جورج بيزوت قائلاً: «جورج لن يكون هناك حكم بالإعدام».[64]

بعد خطاب مانديلا، كان على وولتر سيسولو أن يواجه اقسى استجواب من قبل يوتار. وقد أثار قلق محاميه مسبقاً لأنهم لم يستطيعوا مساعدته، لكنهم كانوا يعرفون أن سيسولو، برغم قلة تعليمه الرسمي، كان يتمتع بذكاء قوي. حيث قال بيزوس: «إنه يتمتع ببراعة مذهلة؛ إذ يسأل سؤالاً بسيطاً ويطلب إجابة، وتأتي الإجابة لتتحدث عن نفسها وتحل المشكلة».[65] والواقع أن سيسولو صمد خمسة أيام من المساءلة أمام يوتار، وأمام كثير من اعتراضات القاضي، ببرود ودهاء، ورفض أن يجرِّم أياً من المتآمرين الآخرين. فكر جوف: «الحكم على رجل كهذا بالموت، لن يكون سهلاً بالنسبة لأي قاض».[66]

بعيد أن أدلى سيسولو بشهادته دعا القنصل البريطاني زوجه ألبرتينا مع ضيوف سود آخرين إلى حفلة عيد ميلاد الملكة في جوهانسبورغ. ولدى وصولهم خرج خمسة من طاقم الإطعام البيض. تشجع سجناء ريفونية بالدعوة البريطانية ـ وهي الأولى لأي شخص له ارتباط مفتوح مع المؤتمر الوطني الإفريقي ـ لكن ناطقاً باسم القنصلية أوضح أن ألبرتينا قد دعيت لكونها «شخصية معروفة بأعمالها الاجتماعية ونشاطاتها الخيرية».[67]

اعتلى منصة الشهادة بعد سيسولو كاثرادا وريموند مهلابا، متآمران آخران من ريفونية كان الاتهام ضدهما أضعف بكثير، ثم راستي بيرنشتاين، الذي كان دليل اتهامه أضعف من الجميع. تلاه غوفان مبيكي الذي كان في وسط المؤامرة دون أي ظل من الشك، لكنه لم يدافع عن عملية ماي بوي في المحكمة، ولم يدل بأي شيء لم يكن بين الأدلة أصلاً. وتبعه دينيس غولدبيرغ والياس موتزوليدي وأندرو ملانجيني وهم أيضاً من متآمري ريفونية. ثم بعد ذلك ألقى بيرسي يوتار خطابه الأخير ـ متضمناً اتهامات مبالغاً فيها، بعضها أبطله القاضي، لكنها مازالت تقدم ذخيرة قاتلة ـ وذلك قبل أن يدلي تشاسكالسون وفيشر بدفاعهما الأخير.

أجل القاضي كوارتس دو ويت القضية لمدة ثلاثة أسابيع ليدرس الاتهام الذي نطق به يوم 11 حزيران (يونيو). وقيل إن المتهمين لم يقروا عملية ماي بوي: «لم يثبت أن الخطة قد قطعت أية مسافة وراء مرحلة التحضير، وأنا أصر على هذا الرأي». لكنه رأى أن المؤتمر الوطني الإفريقي «منظمة تهيمن عليها الشيوعية»، مستشهداً برواية مانديلا لآراء قادة إفريقيين آخرين. ووجد جميع المتهمين، باستثناء بيرنشتاين، مذنبين بتهمة التخريب.[68] غضب مانديلا لأن كاثرادا ومهلابا لم يخل سبيلهما أيضاً، لكنه لم يفاجأ بإدانته. وشكه الوحيد كان حول نص الحكم، الذي سيقدم في اليوم التالي. كان مستعداً للموت، وفكر في كلمات شكسبير في مسرحية القياس للقياس Measure for Measure:

كن ثابتاً للموت، فالموت أو الحياة
سيكون عندها الأحلى[69]

وقرر ـ إن حكم بالإعدام ـ أن يدلي بتصريح متحدٍ، كتب لصياغته بعض الملاحظات الوجيزة:

1. تصريح من قفص الاتهام.
2. لقد عنيت كل كلمة قلتها.

3. لقد أريق دم كثير من الأبطال في هذا البلد طلبا للمعاملة بما ينسجم مع المقاييس الحضارية.

4. *.

5. إذا كان لزاماً أن أموت دعوني أعلن للجميع أني سأواجه مصيري كرجل.[70]

كان مانديلا ومبيكي وسيسولو قد قرروا جميعاً في المحاكمة أنه مهما يكن الحكم فإنهم لن يطلبوا الرحمة. بما أن هذه كانت قضية سياسية، فإن طلب الرحمة سيكون هبوطاً مفاجئاً من الرفيع إلى التافه. وأرادوا أن تصل الرسالة. وقد قال مانديلا: « ليس هناك أية تضحية تكبر على النضال من أجل الحرية». وكان مقتنعاً بأن محكمة الاسترحام لن تغير الحكم في كل الأحوال.[71]

فزع محامو الدفاع من رفض السجناء طلب الرحمة، كما ذهلوا لشجاعتهم. وقد كتب برام فيشر إلى صديق شاب في المنفى بعد أن وصف مناقشة السجناء: «كان القرار غير قابل للطعن. أريدك أن تعرف أي رجال شجعان يجب أن تكونوا أنت ورفاقك كي تخلفوهم».[72] لكن بعد الحكم تقدم المحامون بطلب التخفيف، الذي دعم في الصباح التالي من قبل الروائي الليبرالي آلان باتون، الذي أكد على أهمية خلاص قادة المؤتمر الوطني الإفريقي وأهمية الرأفة والاعتدال بالنسبة للسلام في المستقبل، على رغم مخاوفه حيال الشيوعية. وكتب باتون فيما بعد: «لم يكن لدي أدنى شك في أن برام فيشر كان / يستخدمني/ ولم يكن لدي أي اعتراض أن استخدم من أجل غرض من هذا النوع».[73]

وعندما أتى دو ويت لينطق بالحكم، تشجع مانديلا إذ لاحظ أن «التوتر لم يكن ظاهراً على المتهمين في القفص وإنما على القاضي نفسه».[74]

(*) الفقرة 4 تتألف من خمس كلمات لم يتمكن مانديلا نفسه من قراءتها أو تذكرها.

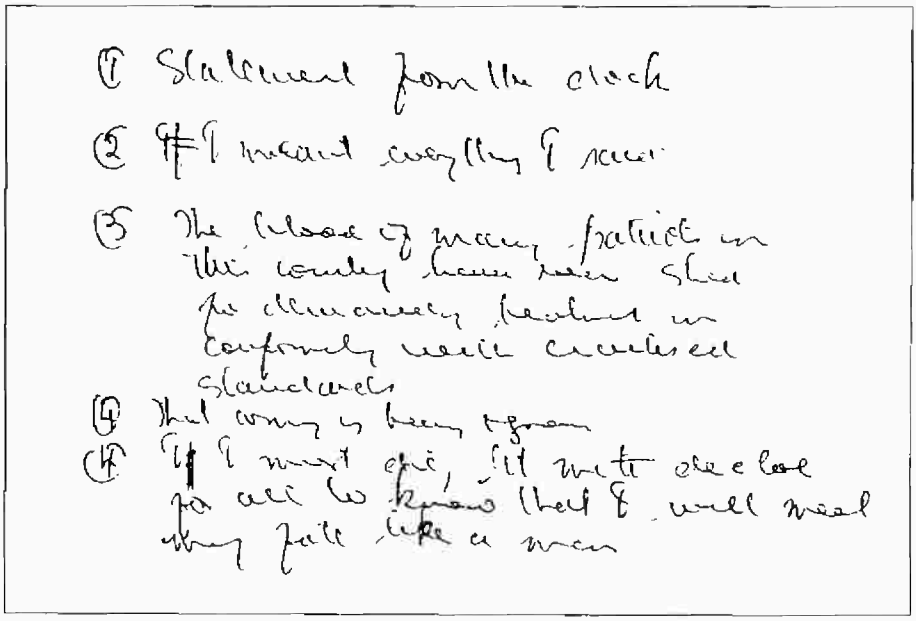

ملاحظات دونها منديلا للبيان الذي كان ينوي إلقاءه من قفص الاتهام في المحكمة لو كان صدر حكم الإعدام عليه.

قال القاضي إنه قرر ألا يفرض العقوبة القصوى ـ وتنفست قاعة المحكمة الصعداء ـ لكن هذه هي المرونة القصوى التي يستطيع إظهارها. ثم حكم على ثمانية منهم بالسجن مدى الحياة. فابتسم مانديلا، وشعر سيسولو براحة كما لو أنهم أطلقوا سراحه.[75]

ساد الاضطراب قاعة المحكمة إذ اندفع المشاهدون خارجين بالخبر. ولم يستطع مانديلا أن يومئ لويني أو لأمه التي كانت قد غدت محنية الظهر مذهولة، قبل أن تندفع الشرطة نحوه هو والسجناء الآخرين لتأخذهم إلى الزنزانات في الأسفل. وبعد نصف ساعة اقتادوهم في عربة مغلقة تابعة للشرطة ـ متفادين الجمهرة التي استطاعت فقط أن ترى يد مانديلا تحييهم عبر القضبان ـ إلى سجن بريتورية المحلي، حيث صُفِقَت البوابات وراءهم.[76]

عكس رد فعل الصحافة على الحكم الهوة بين الرأي العام في جنوب

إفريقية البيضاء والغرب. ففي لندن اتخذت الصحف اليمينية موقفاً ناقداً من حكومة بريتورية بقدر الصحف اليسارية. حيث عنونت الديلي تلغراف مقالها الافتتاحي: «جنوب إفريقية في المحكمة». وقالت الغارديان: «جنوب إفريقية في قفص الاتهام». والتايمز «قانون الحصار».[77]

لكن افتتاحية جوهانسبورغ صنداي تايمز حذرت السود من أن الحكم أظهر أن «الجواب لمشكلتهم ليس في العنف والانقلابات»، بينما حملت الصفحة الأولى عنوان: «ريفونية: القصة من الداخل». ووصفت بأنها «قصة تآمر، وخيانة، وخبل، وإضاعة أموال، وغدر وعمل تحري لامع». كما كشف الميجور جنرال فاندين بيرغ.[78] جريدة الستار أعربت عن فرحها لأن المتآمرين لن يشنقوا، ولكنها تشعر بالارتياح لأنهم أبعدوا عن الطريق: «كانت مؤامراتهم متهورة إلى أقصى درجة، وكانت ستتمخض عن نتائج وخيمة بالنسبة لكثيرين، كما هي بالنسبة إليهم، لولا أنها خنقت في مهدها. ولديهم ما يدفعهم إلى الشكر لأنها انتهت على ذلك الشكل، وذلك ما نشعر به جميعاً».[79]

فكرت حكومتا بريطانية وأمريكة بممارسة الضغط على جنوب إفريقية لتخفف الأحكام، لكن السفير الأمريكي وافق مع السير هيو ستيفنسون، الذي رأى أن أي تدخل سيولد «رد فعل معاكس قوي بشكل كبير».[80] ووجدت وزارة الخارجية البريطانية أن النقاش «ليس مقنعاً تماماً». وتطلعت إلى بعض الدعم الأمريكي. فيما أراد وزير الخارجية راب بتلر من ستيفنسون أن يقابل وزير الخارجية الجنوب إفريقي الدكتور موللر «للتعبير عن آراء تؤيد إسقاط القضية. إلا أن شيئاً من هذا الحديث لم يسجل».[81]

في الحقيقة ساعد رفض مانديلا الاستئناف ضد الحكم في تخليص الدبلوماسيين من موقف حرج. وسرعان ما تلاشى الاهتمام الدولي. وحرصت السفارة البريطانية على متابعة علاقة ودية مع بريتورية التي كانت بحلول تموز (يوليو) (فيما لحظ الجنوب إفريقيين) تجد الأمريكيين والبريطانيين أكثر تعاطفاً

معها.[82] صار البريطانيون الآن يتوقعون في سرهم أن مانديلا سيطلق سراحه ليلعب دوراً مفيداً، مثل سواه من / خريجي السجون/ في أماكن أخرى من إفريقية أو الهند. وقال ستيفنسون لراب باتلر في أيلول (سبتمبر) «بإمكاننا أن نكون شاكرين جداً لأن القاضي لم يحكم بالإعدام. لأن ذلك يعني أن قائداً من وزن نيلسون مانديلا، بعد أن يزداد رصيده الشعبي إثر قضاء فترة في السجن، سيكون جاهزاً للحوار بين السود والبيض الذي لا بد أن يحدث في جنوب إفريقية». لكن ستيفنسون حذر أيضاً من أن قادة سوداً آخرين سيظهرون، «ربما لن يشاركوا في كراهية العنف وسواها من القيم الحضارية التي كانت ركناً في خطاب السيد مانديلا».[83]

مضحك أن مانديلا كان يمتدح كمخلص محتمل يستحق دعم الغرب، من قبل دبلوماسيين لم يحاولوا الالتقاء به، في الوقت الذي أصبح بعيداً عن منالهم تماماً. كانت بريتورية واثقة بأنه خلال بضع سنوات سيكون قد تلاشى بعيداً عن الأنظار والقلوب، ويصبح المؤتمر الوطني الإفريقي منسياً ومتروكاً. هذه التوقعات سرعان ما أصبحت وشيكة الحدوث.

لقد دخل مانديلا السجن بكل مجد قائد فُقد، ضمن هالة من الشهادة. صحيح أنه لم يكن يستطيع الادعاء بأنه قائد عسكري كبير، أو مخطط ثوري. وقت في عضد المؤتمر الوطني الإفريقي الحظر تلو الآخر، كما كان أداؤه طائشاً، كما ثبت في ريفونية، في حين كانت سهم الأمة (إم. كي) بعيدة عن كونها قوة مقاتلة منضبطة. في العقد الماضي لم تبد قيادة مانديلا تصعد هرماً منتظماً، بقدر ما كانت صوراً متتالية لرجل في موقع الحركة، يقود من الجبهة، زعيماً لمتحدين متطوعين، كان المناهض الذي يلقي خطابات وهو متهم بالخيانة، كزبرة الثعلب السوداء الملتحية وهي تعمل في الخفاء، البطل القبلي بهندامه الكامل «يحمل إفريقية على ظهره»، قائد حرب العصابات في حلة (كاكية)، ويحمل مسدساً. لطالما بدت هذه الصور نظرية أكثر مما هي واقعية،

لكن الرمز، المثل الأعلى، والثياب والأداء كانت تجليات مؤثرة لشعبه، كما كانت لتشرشل أو لغاندي. وبمقدرته على عكس إحساس الشعب وتجسيد تطلعاته، أصبح مانديلا سياسياً كبيراً في زمانه.

لقد خرج من محاكمتين أكثر قوة وعمقاً من أي وقت تصور أصدقاؤه المقربون أنه ممكن. لقد همدت الخيلاء والعدوانية اللتان كانتا في البداية، والاستعراضية التي عبرت عن نفسها في أدوار مختلفة، وتكثفت في التزام واضح وحيد، ولم يكن لأحد أن يزرع الشك في مدى تضحيته. لقد كان اندفاعه نحو القيادة في مستوى التحدي، وبدا، كما قال جورج بيزوس، في سلام مع نفسه.

المحنة الكبرى لم تأت بعد فكل ميادين قتاله قد تقلصت الآن إلى خشبة مسرح صغيرة، ستقدم خطاً أكثر حميمية في شخصيته.